





التحوّلات السياسيّة في إيران
الدين والحداثة ودورهما في تشكيل الهويّة الوطنيّة

تأليف: موسى النجفي وموسى فقيه حقّاني

ترجمة: قيس آل قيس

موسى النجفي:

ولد في مدينة أصفهان بإيران، عام ١٩٦٢م.، حاز شهادة الدكتوراة في العلوم السياسية (الفلسفة السياسية) من پژوهشگاه علوم انسانى ومطالعات فرهنگى في التخصّص نفسه، امتهن التعليم والعمل الإداري في التعليم والبحث العلمي، من أعماله العلمية:

- پرسش از ماهيت مدرنيته در ايران.
- انقلاب فرامدرن وتمدن اسلامى (موج چهارم بيدارى اسلامى).
- مدخلى بر تاريخ انديشه سياسى در اسلام وايران.
- تاريخ تحولات سياسى ايران: بررسي مؤلفه هاى دين، تجدد ومدنيت در تأسيس دولت- ملت در گستره هويت ملى ايران (هذا الكتاب)

موسى فقيه حقّاني:

أستاذ جامعي متخصّص في التاريخ، تولى مناصب علمية عدّة. يعمل حاليًا في مؤسسة دراسات التاريخ السياسي المعاصر لإيران. له عدد من الدراسات والأعمال علمية منها:

- خانه مشروطيت اصفهان: نيم قرن بيدارى اسلامى.
- رساله مكالمات مقيم ومسافر (تحقيق ونشر).
- تاريخ تحولات سياسى ايران: بررسي مؤلفه هاى دين، تجدد ومدنيت در تأسيس دولت- ملت در گستره هويت ملي ايران (هذا الكتاب).

التحولات السياسية في إيران

الدين والحداثة ودورهما

في تشكيل الهوية الوطنية



المؤلّف: موسى نجفي وموسى فقيه حقاني
الكتاب: التحولات السياسية في إيران الدين والحداثة ودورهما في تشكيل الهوية الوطنية
الناشر الأصلي: مؤسسة مطالعات تاريخ معاصر إيران
الترجمة: قيس آل قيس
المراجعة والتقويم: هادي نعمة وآخرون
الإخراج: محمد حمدان
تصميم الغلاف: حسين موسى

الطبعة الأولى: بيروت، 2013
ISBN: 978-614-427-018-9

Political Changes in Iran: Religion and Modernity and Their Role in the Formation of National Identity

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن قناعات واتجاهات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي»



مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

Center of civilization for the development of islamic thought

بناية ماميا ط 5 ـ جادة حافظ الأسد ـ بئر حسن ـ بيروت
هاتف: 826233 (9611) ـ فاكس: 820378 (9611) ـ ص. ب55/ 25
info@hadaraweb.com
www.hadaraweb.com

3236.2245.6.12.12

المحتويات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة المركز

شهدت إيران تحوّلات خطيرة في تاريخها السياسي في القرنين الأخيرين إذ يمكن القول إنّها كانت ساحة مواجهة بين مجموعة من المشاريع السياسيّة الداخلية والخارجية. فعلى صعيد الخارج كانت ساحة تنافس على النفوذ بين القوى الدولية المتصارعة إذ كانت تلك الأطراف تسعى للسيطرة على المجال الجغرافي الإيراني لما له من موقع استراتيجي ولما فيه من خيرات طبيعيّة. وعلى الصعيد الداخلي شهدت إيران حراكًا اجتماعيًّا وسياسيًّا بين تيّاراتٍ سياسية بعضها ينبع من الداخل بكل تلاوينه وبعضها ينبع من الخارج ويستقي من مصادره فكره وأهدافه وخطّة تحرّكه. وما يسعى إلى تحقيقه هذا الكتاب هو الإطلالة على أهم الوقائع التاريخية ذات الطابع السياسي والاجتماعي التي كان لها دور مؤثّر في تشكيل الهوية الوطنية الإيرانية. وهذا العمل العلميّ قد لا يشبه الأعمال التاريخيّة بصيغتها المتعارفة إذ هو يركّز اهتمامه على مجال التاريخ السياسي والثقافي،

وتحليل الوقائع وآثارها بدل عرضها. وعلى أيّ حال نترك الحكم على نجاح هذا العمل وتوفيق المؤلّفين في تحقيق ما أرادوا تحقيقه من عملهم هذا. والله عنده حسن الثواب.

مركز الحضارة

لتنمية الفكر الإسلامي

بيروت، 2012

الفصل الأول

عصر الانتقال

(من عهد نادر شاه أفشار إلى محمّد خان قاجار)

وُلد «نادر شاه» لخيّاط من عشيرة «أفشار» (في خراسان)، اسمُه «إمام قلي»؛ في مدينة «أبي ورد» العامَ 1100هـ. وقد وقع في أسر «الأزبك» مع والدته، وهو في السابعة عشرة؛ ثم توفّيت والدته هناك، ليُطلَق سراحُه ويلتحِقَ بعَسكر الملك محمود السيستانيّ حاكم خراسان.

ولمّا برع في القتال، في حرب «الأزبك»، مُنح رتبةَ «قائد» أو أمير لِواء. ثمّ ما لبث أن نشبت خلافات بين ملك محمود و«نادر شاه» قائدِ جُنده. استبدّ «نادر شاه» برأيه واستولى بجُنده على «كلات»، وبعدها على مدن خراسان واحدةً واحدةً حتّى باتت خراسان بأسرها في قبضته.

وفتح بعدها مدينة «نيشابور» بأمر من الشّاه «طهماسب» الذي منحه لذلك لقب «قلي خان» (أي المُوالي الكبير). وكان مع ذلك أن أُقصي «فتح علي خان القاجاريّ» عن بلاط الشاه «طهماسب»، بعدما

كان يحظى بمكانة مميَّزة فيه؛ وبذلك سقط أكبر منافسي «نادر شاه» من على سُلَّمِ الترقّي لدى الشاه، ففُتِحت آفاق الصدارة لـ«نادر شاه».

فعندما فَتح مدينة مَشهد، عَزل «ملكَ محمود السيستانيّ»، فقوِيَت شَوكتُه، وعيّنه الشاه الصفويّ حاكماً على مازندران وخراسان وسيستان وكرمان؛ كما زوَّج ابنَه رضاقلي ميرزا من ابنة الشاه سلطان حسين.

وفي العام 1143هـ حارب الأفغانيّين بضراوة قرب مدينة دامغان؛ فهزم قائدَهم «أشرفَ أفغان»، ثمّ واصلَ بأسَه بالجنود قرب مدينة «طهران» و«مورجه خورت» قرب أصفهان. وقضى على فلول ما تبقّى من جيش الأفغانيّين في مدينة «زرقان» (التابعة لولاية فارِس)؛ مُنهياً بذلك أمرَهم. لذلك اطمأنَّ «الشاه الصفويّ» للعودة إلى عاصمة مُلكه، مدينةِ أصفهان، إذ أنهى له «نادر شاه» فتنةَ الأفغان.

وبعد ذلك؛ حارب «نادر شاه» العثمانيّين، فحرّر منطقةَ «آذربيجان» من وجودِهم الاستعماريّ فيها. وفي غياب «نادر شاه»، حاصر «الشاه الصفويّ» مدينة «إيروان»، فدارت معركة طاحنة بين جنود إيران والجنود العثمانيّين، كبّدَت الجيش الإيرانيّ خسائر فادحة. ولدى عِلم «نادر شاه» بالأمر، عزل الشاهَ وعيّنَ مكانه طفلَه الرضيع (الذي سمِّي «الشاه عبّاس الثالث»)، وتولّى «نادر شاه» بنفسِه إدارةَ دفّة الأمور. ثمّ عزم على طرد الحكم العثمانيّ من الأراضي التي احتلّها من إيران، فاستطاع ذلك بعد ثلاثِ معاركَ دامية ضدّهم؛ وتحرّرت مناطقُ إيران المحتلّةُ كافّةً.

وفي العام 1148هـ، خرجت العسكريّة الروسيّة من الأراضي الإيرانيّة؛ فقُرِّر لذلك تشكيلُ جمعيّة في منطقة «دشت مُغان»، تتألّف من سُراة الدولة وكبار ضبّاط الجيش لتعيين «نادر شاه» سلطاناً على البلاد. أمّا «نادر شاه» فقام بتدبيرات عدّة تساعده على فرض شروط ثلاثة لحُكم البلاد؛ هي:

- أن تكون السلطنة موروثة في عائلته.
- ألّا يُعتبَرَ مذهبُ التشيُّع الإطارَ الدينيّ الرسميّ للبلاد.
- وأن يتوَّج هو ملكاً (شاهاً) لإيران دون أن تكون أيّ مساعدة للـ«صفويّين» للعودة إلى السَّلطنة (الحُكم).

واجهت سياسة «نادر شاه»، التي تدعو إلى دمج السنّة والشيعة (فتذهب الخصوصيّات التي تميِّز المذهبَين)، معارضةً شيعيّة شديدة مدعومة مِن علماء الدين؛ حتّى كانت مخالفةُ أحد العلماء الشيعة، في منطقة «دشت مُغان» لسياسة «نادر شاه»، سبباً في مقتل ذلك العالِم إثر مواجهات عنيفة مع النظام المفروض.

وقد أكّدت المصادر التاريخيّة مدى الاضطهاد والقمع الذي كابده الشيعة في العصر الأفشاريّ؛ نحو ما تعرّضت له مواكب عزاء سيّد الشهداء الحسين (ع)، من قتل وتنكيل، لِمَا كانت تنتقدُه من القساوة والغِلظة التي عومِل بها الشيعة في ذلك الزمان.

وبعد أن أحكَم «نادر شاه» هيمنته على السَّلطنة، وقضى على عشائر «البختياريّة»، توجّه إلى مدينة «قندهار» وأخضعها. ثمّ فتَح مدينة «دلهي» في الهند العامَ 1151هـ، حتّى سجّل المؤرِّخونَ اسمَه بين أسماء الفاتِحِينَ للهند. وقرّر «نادر شاه» أن يُبقي «محمّد شاه گورگاني» سلطاناً (شاهاً) على الهند؛ فقدّم «محمّد شاه» الجواهرَ والأموال إليه، وعاد بها «نادر شاه» إلى إيران، واضعاً إيّاها في مستودَع في منطقة «كلات نادر شاهي»، ولم يوظِّفها أبداً في دعم الاقتصاد الوطنيّ.

وفي أواخر أيّام حياة «نادر شاه»، اعتراه اضطراب نفسيّ حادٌّ نتيجةَ ظنّه أنَّ ابنَه «رضا قلي ميرزا» خانَهُ ودبّر خطّةً لاغتياله أثناء معارك «مازندران»، فقلع عينَي ابنِه؛ بل تمادى ليشكّ في حاشيته

وبطانة بلاطه، وتعسّفَ على سكّان المُدن والأرياف، من الطبقات الاجتماعيّة كافّة، ما حدا بالشعبّ كلّه إلى أن يغضب عليه. وعندما حاول «نادر شاه» إبادةَ سُراة القادة، شعروا بمكره وباغتوه قتلاً العامَ 1160هـ قَبل أن يطالَهم بسُوء.

وكان «نادر شاه» أيّام حُكمه يرغب في تأسيس قوّة بحريّة تسيطر على المياه الإقليميّة للخليج الفارسيّ وبحر قزوين (بحر الخزر)؛ لكنّه مات قبل تحقيق ذلك. كذلك رغب في إنعاش الاقتصاد الوطنيّ، لكنّ الحروب التي خاضها حالت دون ذلك.

انقسمت حياة «نادر شاه» السياسيّة إلى فترتَينِ:

- الأولى؛ منذ البداية حتّى العام 1142هـ: وفيها كان يُعتبر قائداً وطنيّاً وبطلاً ثائراً، لتمكّنه من القضاء على حكومة الأفغانيّينَ في إيران وطردهم خارج الحدود.
- الثانية؛ منذ العام 1142هـ (أي منذ تسنُّمه عرش السَّلطنة) حتّى يوم قتلِه: كانَ يُعتبر سفّاحاً مستبدّاً.

قاد «نادر شاه» سياسة إقصاء رسميّة للمذهب الشيعي عن طابع الدولة؛ إلَّا أنَّ عمق حُبِّ الرَّسول (ص) وأهل بيته (ع) ظلَّ راسخاً في قلوب جماهير الشعب، ما حال دون إتمام مأرب «نادر شاه» تجاه التشيُّع.

خصوصيّة شخصيّة «نادر شاه»

كان مؤسِّس السلالة «الأفشارية» ذا عزم وهمّة، وقائداً عسكريّاً ماهراً، بل أحدَ أعظم قادة القرن الثامن عشر الميلاديّ؛ حتّى عدَّه البعض نظيرَ نابوليون بونابارت وسزار الروس. وكانت خزانة الدولة الإيرانيّة تواجه مشاكل عديدة، بفعل الانحطاط الاقتصاديّ الموروث

من العصر الصفويّ، إلى جانب فتنة الأفغان؛ وعندما استأثر «نادر شاه» بالمال الوفير من الهند (كما أسلفنا)، لم يوظّفه لخدمة اقتصاد إيران. وكانت الغنائم التي حصدها الإيرانيّون في حربهم في الهند، بعد فتح «دلهي»، على نحو:

- الأحجار الكريمة والنفيسة من قصور ملك الهند.
- العرش الملكيّ المرصّع بالجواهر والزبرجد والدّرّ والياقوت المعروف بعرش «تخت طاووس».
- أكداس الذهب واللُّجَينِ.
- المعدّات الحربية الوافرة.
- هدايا مهراجات الهند الغالية.
- اللوحات الفنيّة النادرة والكتب.

وَرُوِيَ أنَّ مجموع الغنائم قدِّر بما يعادل 350 مليون تومان[1] (في ذلك الزمان). كما حدت غنائم «نادر شاه» من الهند، إلى أن تعفو حكومته الناسَ من الضرائب لثلاث سنوات متوالية.

وانتهت حكومة «نادر شاه» رأسِ السلالة الأفشاريّة، بقتلِه في 11 جمادى الأولى العامَ 1160هـ (1747م). وقال أحد الشعراء في ذلك:

سر شب سر جنگ و تاراج داشت　　　سحرگه نه تن سر، نه سر تاج داشت
به يك چرخش چرخ نيلوفري　　　نه نادر به جا ماند، و نه نادري

أي:

بعد الغروب كان رأس العساكر المهيّأة للقتال

---

(1) ما يعادل 87،500،000 جنيه إسترلينيّ في العامِ 1738م (المترجِم).

وفـي الـفـجـر صـار جـسـمـاً بـلا رأس
ورأسـاً بـلا تـاج
ومـا هـي إلّا دورة واحـدة لـلـزمـن

وانتهى كلّ ما له صلة بسَلطنة «نادر شاه»، بعد مقتلِه. فجلس على عرش السَّلطنة بعده ابنُ أخيه، علي قلي ميرزا، الذي لقّب نفسَه بـ«عادل شاه» أي الملك العادل. وكان أوّل أمر مَلَكيّ أصدره هو قتلُ جميع أبناء «نادر شاه» وَحَرَمِهِ؛ وكان ذلك، فلَمْ يبقَ من نسل «نادر شاه» إلّا حفيدُه «شاهُرخ ميرزا» (نجلُ رضاقلي ميرزا)، إذ عفا «عادل شاه» عنه.

ثمّ خرج أخو «عادل شاه»، إبراهيمُ، عليه؛ فسَجَن «عادل شاه» وقلَعَ عينَه. ثمّ ما لبِثَ أن ثار قادة جيش إبراهيم عليه وقتلوه. وعادت، بقتل إبراهيم، السَّلطنةُ إلى حفيد «نادر شاه»، «شاهُرخ ميرزا» الذي بقي في الحُكم حتّى زمن «آغا محمّد خان»؛ فأمَرَ هذا بقتل «شاهُرخ» ليبقى ابنُه «نادر بن شاهُرخ» آخرَ أفراد السلالة «الأفشاريّة»، ويُقتلَ بأمر من «فتح علي شاه القاجاريّ».

كريم خان والسلالة الزنديّة

سكن الزنديّون أطراف مدينة «ملاير»، ورُحِّل بعض قبائلهم إلى «خراسان». وكان «كريم خان» من جنود «نادر شاه» لدى مَقتَل الأخير. عمل «كريم خان»، بعد مقتل «نادر شاه»، على إعادة قبائل «الزنديّة» إلى «ملاير» من «خراسان».

كان «كريم خان» رجلاً طيّباً جذب حوله الناسَ. اتّحد مع «علي مرادخان البختياريّ» ضدّ حاكم أصفهان، آنذاك، «أبي الفتح خان البختياريّ». وبعد الإطاحة بحُكم «أبي الفتح»، عيّنَ «كريم خان»

رجلاً من الصفويّة، اسمُه «أبو تراب»، سلطاناً على البلاد؛ فاستَولى «كريم خان»، بذلك، على أمور المملكة.

دخل الحسد إلى قلب «علي مراد خان» لِمَا رأى من عزّ «كريم خان» وجاهه ومحبّة الناس له؛ فاختلف معه وكانت الغلبة لـ«كريم خان» الذي سيطر على الحُكم في الجنوب. وكان «كريم خان» يواجه عدوَّينِ كبيرَينِ؛ هما:

- آزاد خان أفغان.
- محمّد حسن خان قاجار.

كان آزاد خان يسيطر على منطقة «آذربيجان»، وتمكّن من سحق جيوش «كريم خان» في مدينة «قزوين»، فاضطرّ الأخير إلى التخلّي عن «أصفهان» و«شيراز». بعدها، جهّز «كريم خان» جيشاً قويّاً هزم به آزاد خان العامَ 1167هـ، وفرَّ الأخيرُ خائباً، ليَطلب العفوَ في ما بعدُ من «كريم خان» الذي عفا عنه.

أمّا «محمّد حسن خان» فكان خصماً عنيداً، أخضع «أصفهان» وتقدّم حتّى مدينة «شيراز» وضرب عليها حصاراً، فقاومَه شعبُ المدينة بشراسة، وأجبره وجنودَه على العودة إلى منطقة «مازندران» شمالَ إيران.

وكانت إيران قد فقدت عنصرَ النظام والوحدة الوطنيّة؛ فحُكم «نادر شاه»، الذي قام على الحروب وسفك الدماء، لم يسمح بازدهار العقائد السياسيّة والأفكار المتنوِّعة، ولا بانتشار الثقافة بين الناس. وقد قسّمت التناحراتُ إيرانَ إلى أربع مناطقَ منفصلة؛ يحكُمها:

- كريم خان زند.
- آزاد خان أفغان.
- علي مردان بختياري.

• محمّد حسن خان قاجار.

قرّر «كريم خان زند» القضاء على «محمّد حسن خان قاجار»؛ فجهّز حملة ولّى فيها الشيخ «علي خان زند»، الْتَحَمَتْ بجيش «محمّد حسن خان» بين مدينتي «ساري» و«بارفروش»، في حرب طاحنة انهزم فيها جيش «محمّد حسن خان» فاضطرَّ هو إلى التراجع.

ولسوء حظّ «محمّد حسن خان قاجار»؛ فقد رماهُ أحد أفراد حمايته ليصيبَ منه مقتلاً. ثمَّ ذهب برأس جثّته إلى الشيخ «علي خان زند» الذي استقبح عملَه ووبّخه بشدّة على ما فعل، وأرسَل الرأسَ إلى «كريم خان زند» الذي تأثّر كثيراً. لكن ظلَّ أن أسِرَ «آغا محمّد خان بن محمّد حسن خان»، وسجِن في مدينة شيراز.

وكان «كريم خان زند» متساهلاً مع «القاجاريين»، حتّى إنه منح «حسين قلي خان» شقيقَ «آغا محمّد خان» إمارةَ منطقة «دامغان». كذلك، تزوّج «كريم خان» ابنةَ «محمّد حسن خان» ـ عدوِّ الأمس! إلّا أنَّ «حسين قلي خان» لم يبادل «كريم خان» العطفَ عينَه، فسرعان ما أعلن استقلال «دامغان»؛ فخاضت جنود الزنديّة، بقيادة «زكي خان» حرباً أجبرته على الفرار. ثمّ قُتِل «حسين قلي خان» على يد «التركمان».

وبسبب المعاملة السيئّة التي كان يلقاها زوّار العتبات المقدَّسة من حاكم مدينة «بغداد»، والتضييق على تجّار إيران في أسواق مدينة «الزوراء»؛ قرّر «كريم خان» العامَ 1190هـ الاستيلاءَ على البصرة ونجح في ذلك.

وانتهى عهد «كريم خان» بوفاته سنةَ 1193؛ وهو عهد تمتّع بالهدوء نسبيّاً، فلم يكن على خلاف مع الشيعة ولم يضطهدهم، ولم يكن شرساً عنيفاً مثل «نادر شاه»، وكان يتحلّى بالرأفة والمحبّة.

ولدى إعلان وفاة «كريم خان»، هرب «آغا محمّد خان» من شيراز إلى طهران ولجأ إلى قبائل القاجار التي كانت تتألّف من:

- عشيرة «أشاقه باش».
- عشيرة «يوخارى باش».

كان هذا نذيرَ عهد جديد مظلِم دام 150 عاماً. فقد كان عهد «الأفشاريّة» وعهد «الزنديّة» فترة انتقال بين «عصر الصفويّة» و«عصر القاجارية». ولهذه الفترة شأنُ همزة الوصل بين أمرَينِ ذَوَي أهميّة قصوى. فاختلف «الزنديّة» بعد «كريم خان» حول مَن سيخلفه على العرش؛ فتولّى شقيقُه «زكي خان» زمام الأمور فترةً ولقّب نفسَه «أبا الفتح خان». فنهض في وجهه الشقيقُ الآخر لـ«كريم خان»، وكان والياً على البصرة، يطالب بعرش السَّلطنة؛ وتمكّن من إزاحة «أبي الفتح» وتولّي الحُكمِ مكانه.

كذلك؛ فشل «صادق خان» في مواجهة «علي مردان خان» (ابنِ شقيقة «زكي خان») الذي اختار مدينة همدان عاصمةً له. لكن انهزمَ بعد مدّة أمام «جعفر خان بن صادق خان» الذي كان ضعيفَ الإرادة، محبّاً للهَيمنة، فكانت رغباته سببَ قتله سنةَ 1203هـ؛ وفي عصره تمكّن «آغا محمّد خان» من السيطرة على مناطق كثيرة.

ثمّ اعتلى نجلُ «جعفر خان» العرشَ، واشتهر بالشجاعة؛ لكن لم يَقوَ على كيد «آغا محمّد خان قاجار» و«ميرزا إبراهيم خان كلانتر». وفي سنة 1209هـ انتهى عصر الدولة الزنديّة، ولَمْ تعدْ إلى الحُكم قطّ.

إيران والعالَم على عتبة ظهور السلالة القاجارية

قبل معالجة الحالة الاجتماعيّة ـ السياسية للعصر القاجاريّ، لعلّه يجدي تقديمُ مدخل تاريخيّ ـ فِكريٍّ لِمَا ورثه الصفويّون (وإيران)

ممَّن سَلَفَ (قبل العصر الصفويّ)، وامتدّ إلى العصر القاجاريّ. وسنقوم بذلك من خلال جدوَل بيانيّ مطابِق لعادات القاجاريّين وخصائصهم وأُسُسِهم وقواعدهم.

1 ـ جغرافيا إيران السياسيّة:

جعل الصفويّون إيرانَ بلداً مستقلّاً، بعد أن كانت مقسَّمة إلى:

- إيران الشرقيّة (خراسان الكبرى).
- إيران الغربية.
- إيران المركزيّة.

وكانت الأبعادُ القوميّة والجغرافيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، كما علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، تفصل هذه الأمّة بعضها عن بعض.

2 ـ التشيّع:

كانت العلاقة بين الدِّين والدولة، وتحديداً بين علماء الدِّين والدولة؛ غيرَ مستقرّة، وذاتَ ارتباط وثيق بالسياسة الثقافيّة ـ الدينيّة، وتختلف، قرباً وبُعداً، باختلاف سياسة السلطة. فمثلاً، كانت علاقة علماء الدِّين جيّدة مع الصفويّين، ولم تكن كذلك مع «نادر شاه». أمّا مع القاجاريّة، فكانت العلاقة مَشوبةً بالتسامح حِيناً، والفُتورِ آخرَ! وكانت في بعض الأحيان، كذلك، إيجابيّة ـ والمشهورُ، في هذا المجال، أنَّ علماء الشيعة لا ينظرون إلى الحكّام والسلاطين والشاهات على أنّهم «أُولو الأمر»، خلافاً لِدَيدَنِ علماء أهل السنّة.

ازدهرت مدرسة «الأصوليّينَ»، التي أسّسها آية الله وحيد البهبهانيّ، بشكل لافت في العصر القاجاريّ؛ في وقت انكفأ فيه مَسلَكُ «الأخباريّين». وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء مِن طليعة

المدرسة الأصوليّة؛ وأصدر فتوًى شهيرةً بوجوب الجهاد ضدّ الروس في الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة الأولى.

3 ـ كانت علاقة القاجاريّة بالشعب علاقةَ الإرغام والقسوة؛ فالقاجاريّون يعتبرون أنفسَهم قبيلةً فاتحةً منتصرة، وظلّوا كذلك حتّى نهاية حُكمهم.

4 ـ حلّ الوهنُ في البُنى الاقتصاديّة للبلاد، في العصر القاجاريّ. والسبب كان تغييرَ نظام الحُكم من «الولايات» إلى «الولايات الخاصّة» (وكان هذا النظام بدأ منذ أيّام الصفويّين). حتّى الأرستقراطيّة الجديدة كانت هشّةً، لاقتصارهاعلى أمراء العائلة المالِكة فحسبُ؛ بينما كانت «السيادة للأفضل» في العهد الصفويّ. أمّا وجهُ الوَهن الآخرُ فتمثَّل في عدم كفاءة القوّات المسلَّحة.

5 ـ كَثُرَ الاختلاط والامتزاج بالأقوام (الإثنيّات) الأخرى، لا سيّما المغول، فكِلاهُما قَبَليٌّ يَعُمُّهُ التزمُّتُ؛ والقاجار كانوا طائفةً مغوليّة، لذا اتّخذت سياساتُ حكومَتِهم طابعَ التزمّت والشدّة والبطش والتعنُّت.

6 ـ ضعف الأُسُس والقواعد الحكوميّة: كان نجاح «شاه عبّاس» وأمثالِه، يتمثّل في توازن القوى بين قادة وضبّاطه، الجيش ورجالات البلاط وبين القوة الثالثة المنافسة. أمّا في العصر القاجاريّ فغاب هذا التعادل، وغاب معه اعتمادُ ذَوِي الخبرة والاستراتيجيّة.

7 ـ امتاز سلاطين الصفويّة بعزيمة راسخة وصلابة وعزم، فلا يتراجعون ولا يضعفون؛ ولم يكن القاجاريّون على هذا النحو، لا سيّما بما بدا منهم في معاهدة «تركمن جاي»، إذ

اقتُطِعَتْ بمُوجبها مناطق كبيرة من إيران، فذلّوا وخابوا.

8 ـ كان تقدّم في الفنون والصناعة والاقتصاد. وسادت القوانين المستوحاة من فقه الشيعة كلَّ الدوائر والمؤسّسات. كذلك؛ برع علماء عصر الصفويّين في بناء المُدُنِ، وتقدّمت الفلسفة والعِرفانُ، فقد تأسّست في العهد الصفويّ مدارس علميّة كثيرة. أمّا في العصر القاجاريّ، فلا أثر للإبداع الشامل؛ وإن ظهرت بَوادر إبداعٍ مع استحداث «النظام الدستوريّ». فإنَّ ابتعادَ النظام الدستوريّ عن المحتوى الإسلاميّ الأصيل بمقوّماته العقيديّة السياسيّة، أدّى إلى انهياره وأفول نجمِه.

وكان الصفويّون بدأوا بمسيرة التقدّم، أثناء حُكمهم، على أصعدة شتّى؛ بظهور الأيديولوجيا الحديثة. وفي العصر القاجاريّ، عمدت الحكومة إلى طلب حماية الأوروبيّين (الذين كان لهم طموح استعمار مناطقَ أخرى غيرِ إيران) ودعمِهم لهم لإبقاء السُّلطة في أيديهم، أمام شعب بعيد كلَّ البعد عن مُوالاة هذه الدولة. فكانت علاقة القاجاريّين بالاستعمار علاقةَ تصاغر وهَوان، لكن لم تصل إلى حدِّ العبوديّة والتخلّي عن السيادة؛ لذلك ظلَّ القاجاريّون، رغم انحطاطهم، أفضل حالاً من دولة البهلويِّينَ.

كما ظهرت في العصر القاجاريّ طبقة جديدة، اسمُها «المتنورون» («روشنفكران» بالفارسيّة) تميل بأفكارها إلى أسلوب الغربيّين الفكريّ. وفي العصر الصفويّ لم يكن ثمّةَ فراغٌ فكريّ، ولم يكن الديبلوماسيّون وموظّفو الحكومة يشعرون بعقدة نقص تجاه الغربيّين. فقد كان «محمّد رضا بك»، حتّى في زمن الضعف السياسيّ الصفويّ، يقابل الأوروبيِّينَ بشيء من الشموخ... بل حتّى في مدينة باريس!! وأقرّ الغربُ للصفويِّينَ بذلك. أمّا في العصر القاجاريّ وما بعده، فقد اعتمد الاستعمارُ تصوير هفوات إيران على أنّها جرائم لا

تُغتفَر، للنَّيل منها وتحقيق مآرب الصهاينة. حتّى إنَّ الاستعمارَ جنَّد مؤرِّخين ليهشِّموا صورة مآثر إيران في التاريخ، وليَحُطّوا من قيمة أبطال أبناء الفُرْسِ.

ولقد تجلّت عقدة النقص لدى القاجاريّين تجاه الغربيِّينَ في أفكار الفرماسون ومجمعهم.

9 - إنَّ من أبرز الفروق بين عهد الصفويّين وعهد القاجاريِّين؛ غيابَ نفوذ الاستعمار في العصر الصفويّ، وبروزَه بقوّة في العصر القاجاريّ.

10- كان للصفويِّينَ مشروعيّة دينيّة وقداسة ظاهرة للعِيان. كانوا حَفَظَةَ حُرمة الدِّين، حتّى يمكن اعتبار ذلك إرهاصةَ بداية التمسّك بالتشيّع لأهل البيت (ع). ولا شيء من هذا الوصف ينطبق على القاجاريّين.

العالَم في العصر القاجاريّ

تزامن العصر القاجاريّ مع عصر ازدهار النهضة الثقافيّة في أوروبّا وعصرِ الثورة الصناعية الغربيّة، وانتصار الثورة الفرنسيّة وعصر الانحطاط في إيران. وكان الإيرانيّون الذين يزورونَ أوروبّا، في العصر الصفويّ، يعلوهُم العزّ والفخر (بانتمائهم الفارسيّ)، ثمّ كان عكس ذلك في العصر القاجاريّ. كان المجتمع الإيرانيّ في العصر القاجاريّ محكوماً من مجموعة من المتزمِّتِينَ (oligarchy) المستبدّين على أفراد الشعب؛ في ظلّ اعتماد الحكّام على دعم الأوروبيِّينَ في توطيد تمسّكهم بالسُّلطة.

ولأنّه كان لأوروبّا دورٌ فعّالٌ، في عصر القاجاريّين، في إيران؛ يجدر التطرّق إلى أوضاع أوروبّا في تلك الأيّام.

التقدّم الأوروبّيّ في العصر القاجاريّ

كانت أوروبّا، في العصر القاجاريّ، قد اجتازت ثلاثة عهود خطرة:

1 ـ من بداية الثورة الفرنسيّة إلى ظهور إمبراطوريّة نابوليون بونابارت (حتّى سنة 1814م).

2 ـ من سنة 1814م إلى 1870م وتشكيل الإمبراطوريّة الألمانيّة.

3 ـ من سنة 1870م إلى سنة 1914 (الحرب العالميّة الأولى، وابتداء سَلطنة أحمد شاه القاجاريّ والانحلال التدريجيّ للإمبراطوريّة العثمانيّة).

كان نابوليون يبحث عن موطئ قدم ينطلق منه ليُخضِع القارّةَ الهنديّة؛ فوجّه نظره نحو إيران. ومنذ سنة 1814م حتّى سنة 1870م، توجّه حكّام الدول الأوروبيّة إلى النظام البرلمانيّ. كان لرؤساء حكومات بريطانيا دَورٌ غاية في الأهمّيّة في التحوّل السياسيّ في العهد القاجاريّ؛ وَهؤلاءِ هُم:

- ديزرايلي.
- اللورد ساليزبوري.
- كلادستون.
- بلفور.

أمّا الدول الأجنبيّة التي كانت تتدخّل في شؤون إيران؛ فهي:

- بريطانيا.
- روسيا.
- فرنسا.

• ألمانيا، إلى حدٍّ ما.

ومن المناطق التي لم تقع تحت سيطرة الدول الأوروبيّة بشكل كامل:

• الدولة الإيرانيّة.

• الإمبراطوريّة العثمانيّة.

الخصوصيّات العامّة لهذه الفترة:

1 ـ **النموّ السكّانيّ**: كان تعداد سكّان أوروبّا، سنةَ 1800م، 187 مليونَ نسمة؛ وقد وصلَ سنةَ 1914م إلى 450 مليونَ نسمة.

2 ـ **النظام البرلمانيّ**: في الفترة ما بين 1870م و1914م، اقتدت أغلب الدول الأوروبيّة بفرنسا، واختارت النظام البرلماني.

3 ـ **نموّ الاقتصاد الوطنيّ**: فقد فاضت خزائن الدول الأوروبيّة بثروات الشعوب المستضعَفة.

4 ـ **ازدياد الطغيان القوميّ**: نتيجةً لازدياد الثروة الوطنيّة وظهورِ الترصيف الاجتماعيّ، ظهرت في الأقطار الأوروبيّة تحزّباتٌ قطريّة وقوميّة شديدة.

5 ـ **التقدّم العِلميّ**: شملت الحركة العِلميّة الأقطارَ الأوروبيّة كافّة.

6 ـ **نظريّة «الإنسان الأوروبيّ الأفضل»**: هذه النظريّة جعلت الفردَ الأوروبيّ يعتبر نفسَه أفضلَ من «إنسان الشَّرق»؛ فينبغي إذاً ـ حَسْبَ هذا الاعتقاد ـ أن يسخِّرَ الغربُ الشرقَ ليستفيد من ثرواته. فمن مُنطلَق أنَّ الثورة الصناعيّة قد بلغَت أوجَها، وباتت تحتاج إلى سوق لتصدير منتجاتِها، كما تحتاج إلى موادَّ خامٍ (تجدُها في دول الشَّرق)؛ يجب استعمار دول

الشَّرق وإخضاعُها. (ومنذ العامِ 1914م الْتحقَتِ الولايات المتّحدة واليابان بقائمة الدول الاستعماريّة).

أمّا من الناحية الفلسفيّة، فقد ظهرت على مسرح الفلسفة الغربيّة نظريّة «الأوروبيّ هو الأفضل»، وبحثُ نظريّة التكامل الدروينيّة الاجتماعيّة، وحقّ البقاء للأقوى. كذلك سادت نظريّة الهِمّة والعزيمة (المستنِدَة إلى القوّة ـ سيطرة الأقوى، أو إرادة القوّة).

ومن هذا المنطلق؛ يقول الفيلسوف الألمانيّ «نيتشه» («Nietzsche»؛ 1844م ـ 1900م): «ليست الحياة سوى التنازع للبقاء، وبقاء الأصلح؛ وإنَّ «الإنسان الأعلى» هَدَفٌ يجب تحقيقُه»[1]. وقد سبقه، في هذا المجال، الفيلسوف الألمانيّ «شُوبِنهاور» («Schopenhauer»؛ 1788م ـ 1860م). اتُّخِذت هذه النظريّات ذريعةً مِن قِبل المستعمِرينَ المتسلِّطينَ.

وقد أثبتَ التاريخُ بُطلانَ هذه النظريّات؛ مع انسحاق النازيّة وامِّحاق الفاشيّة.

الخطوط العريضة لأوروبّا في العهد القاجاريّ

في أوائل القرن التاسع عشر، المتزامن مع العهد القاجاريّ في إيران، اجتازت أوروبّا ثلاثة عهود:

- من الثورة الفرنسيّة إلى زمن حُكم نابوليون (فترة الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة الأولى).
- من مؤتمر «فيينا»، سنةَ 1814م، إلى سنةِ 1870م.
- من سنةِ 1870م إلى الحرب العالميّة الأُولى (سنةَ 1914م).

(1) قاموس **المنجد** (القسم الثاني ـ المنجد في الأعلام)، ص720 (المترجِم).

1 ـ تتمثّل الوقائع الهامّة التي حدثت في العهد الأوّل؛ في:

- إعدام ملك فرنسا بِيَدِ الثوّار.
- تدوين بيان حقوق الإنسان.
- تركيز النظام الجمهوريّ في فرنسا.
- استغلال نابوليون للفَوضى، للاستيلاء على ميراث الثورة الفرنسيّة.
- محاولة نابوليون مواجهة الإنكليزيّة ـ ذَوِي الأفضليّة العسكريّة، فوقع خطأً في حرب روسيا! وفيها انتبه إلى إيران التي كانت في حربها الأولى ضدّ الرّوس.

2 ـ منذ مؤتمر «فيينا» (1814م)؛ حاولت الدول الأوروبيّة، على مدى 30 عاماً، التصدّي لآثار الثورة الفرنسيّة؛ وعملت على تسليم السُّلطات للأشراف، وتقديسِ الحُكم المَلَكيّ. وفي العامِ 1848م؛ سيطرَتْ بريطانيا على السوق العالميّة، وتراجعت فرنسا اقتصاديّاً.

3 ـ منذ 1870م وحتّى 1895م؛ وقعت في بريطانيا حَوَادِثُ هامة، منها:

- وصول عدد من الانتهازيّين إلى منصب رئاسة الحكومة، فأذلّوا المستضعَفِينَ. ومِن هؤلاء مَن وصِفوا بِمَقتِ الشعب الإيرانيّ لهم؛ أمثال:

ـ ديزرايلي؛ وهو مِن دعاة استعباد الشعوب وتوسيع رقعة المستعمَرات البريطانيّة.

ـ كلادستون؛ الذي ترأس حكومة بريطانيا 17 عاماً، وكان له علاقات مديدة مع الحُكم القاجاريّ.

ـ اللورد ساليزبوري؛ صاحب دولة المحافظِينَ الأرستقراطيّة.

وقد دخل هؤلاءِ تاريخ إيران على أنهم من دعاة الاستعمار والاستعباد.

- بَلفور (آرثر جايمز)؛ الذي تولّى رئاسة حكومة بريطانيا العامَ 1902م[1].
- لم تكن روسيا، في السنوات المشار إليها آنفاً، دولةً متقدّمةً بَعدُ.
- كان العثمانيّون ـ جيران إيران ـ يفقدون، شيئاً فشيئاً، الأقطارَ الأوروبيّةَ التي فتحوها. كما بدأت حركات الاستقلال في الدول العربيّة (التي كانت خاضعة لنفوذ العثمانيّينَ) تتكاثر؛ ما أثار الهلعَ والقلقَ لدى الخلفاء العثمانيِّينَ، وأشعل الاضطراب في سياساتهم.

الثورة الصناعيّة والاستعمار

لقد بدّل التقدّم والتطور الصناعي في بريطانيا وأوروبّا الوُجهةَ الصناعيّة ـ الاقتصاديّةَ لهذه البلدان؛ فعمَّتِ الاختراعات الكثيرة والأموال الطائلة، وسادَ الاقتصاد المزدهر. كذلك استخراج الفحم الحجريّ والحديد ظهر في أغلب الأقطار؛ إلى جانب صناعة النسيج والآلات البُخاريّة، وتهْيئة كلّ ما تحتاج إليه الصناعات الأوروبيّة الحديثة من الموادّ الحيويّة.

أدّى هذا إلى أن توجّه دوَل الغرب أنظارها إلى إيران. ومنَحت هذه الدولُ نفسَها «حقّ السيطرة والاستغلال» منذ سنة 1885م (مثل

---

(1) صاحب الوعد المشهور («وعد بلفور») لليهود الصهاينة؛ ضمّنه «حقّ اليهود في إنشاء وطن قوميّ على أرض فلسطين» المغتصَبة، سنةَ 1917م. (المترجِم).

«معاهدة برلين»). وبدأت دول أوروبّا باستِعْباد دول البُلدان الضعيفة، وهيمنَت، منذ 1879م حتّى 1899م، على أقطار القارّة السوداء (إفريقيا) كافّة. حتّى إنّه كانت السياسة المُعلَنة آنذاك السيطرة المباشرة على العالَم. وكانت إيران من الدوَل القليلة غيرِ المستعمَرة.

إشاعةُ التفرقة العنصريّة والاستعمار الأوروبيّ

كان الشعار الفلسفيُّ «حفظُ العنصر الأفضل»، يوجِّه سياسةَ الغرب الاستكباريّة في الشَّرق. وساد اعتقاد بين المستعمِرينَ أنَّ الشدّة في الحُكم والهيمنة هي ضمانة الإمساك بالدول الضعيفة؛ فإذا قلّت، قلّت معها الهَيبة.

واستناداً إلى هذا النهج الفلسفيّ ـ السياسيّ في استعمار الشعوب؛ كَتَبَ الأدباء مصطلحاتٍ أشاعَها وكرز بها المستشرِقون والمتفرنِجُون ودُعاةُ الحضارة المسيحيّة ونشر التمدُّن، ومُروِّجو أفضليّة العرق الأبيض والسُّمُوِّ الأوروبّي على سائر الشعوب. كلّ هذه الأفكار قد لَوَّحَ بها الغرب في وجه الأمّة الإيرانيّة.

ومع حضور أميركا واليابانيِّين إلى منطقة آسيا، مستعمِرَينِ لدول فيها، ضَمُرَتِ الهَيبة الأوروبيّة في نفوس شعوب الشرق. وقامت ثورات تحرّريّة، في الشرق، مثل «ثورة الهند ـ الصينيّة»، و«ثورة إندونيسيا»، و«ثورة العراق»؛ فأخذ الضعف المعنويّ يسود الكيانَ الأوروبيّ. وتوالَتِ الانتفاضات الشعبيّة والثورات، مع الصحوة السياسيّة التي اعترَت الشعوب المستضعَفة.

حتّى إنَّ مسألة «العِلمانيّة» التي صدّرها الغرب إلى مناطق الشَّرق، حيث العالَمُ الإسلاميّ، كانت تستوجِب تداعي رجال ونساء الأمّة برمَّتها للتصدّي لهذه المؤامرة المدسوسة، وقد ظهر هذا بين الشيعة في لبنان والعراق وإيران.

الفصل الثاني

العصر القاجاريّ

من بدايته إلى عهد ناصر الدين شاه

ينحدر القاجاريّون من أصول مغوليّة؛ وهُم طائفتانِ:

- قوانلو (كان شيخهم «فتح علي خان»).
- دوانلو.

وكان الشاه عبّاس الصفويّ يَحذرُهما أشدَّ الحَذَرِ؛ لذا أسكنهم في ثلاث مناطقَ متباعدة جغرافيّاً. فأرسل قِسماً منهم إلى مدينة «أسترآباد»؛ وفي زمن «طهماسب الثاني» انقسم هؤلاء إلى قبيلتَينِ:

- يوخارى باش.
- أشاقه باش.

وبعد العصر الصفويّ كانت قبيلتانِ فعّالتَينِ من عشيرة «القزلباش»؛ هما:

- الأفشاريّون.

- القاجاريّون.

وكان لـ«فتح علي خان» دورٌ كبير في طرد الأفغانيِّينَ من إيران. وعندما أصبح «نادر شاه» سلطاناً على البلاد، عمد إلى قتلِ «فتح علي خان» إذ اعتبرَه خطراً على دوام استمساكه بالعَرش. (ونجل «فتح علي خان» هو «محمّد حسن خان» والدُ «آغا محمّد خان القاجار»).

ثمّ ألقي القبض على «آغا محمّد خان» بعد مقتَل أبيه، فأسرَه «كريم خان زند» 15 عاماً. إلّا أنّ «آغا محمّد خان» تمكّن من الفرار إلى قبيلته؛ حيث اتَّخذ قرارَينِ:

- السيطرة على من يدّعي الرئاسة في القبيلة.
- تأسيس جيش قويّ حازم.

وكان «آغا محمّد خان» قويّ الإرادة؛ ولدى تشكيله حكومةً كانت روسيا والإمبراطوريّة العثمانيّة تُواجهان مشاكل داخليّة وخارجيّة عديدة. وكانت روسيا، لمدّة 40 عاماً تخلّلها حُكم «بطرس الكبير» (1682م ـ 1725م) والإمبراطورة «كاترينا الثانية»، مشتّتة الأفكار؛ فلم يكن لها شأن في أي هيمنة على إيران، وكذلك كان حال الإمبراطوريّة العثمانيّة التي كانت مشغولةً بفتوحاتها في أوروبّا.

الإجراءات التي قام بها «آغا محمد خان»

ثبّت «آغا محمّد خان» قواعد حكومة «القاجاريّين»؛ ومن أهمّ ما قام به لاعتلاء عرش إيران، هو:

- في سنة 1200هـ، جعل طهران عاصمةً للبلاد.
- فتح مدينة شيراز بعد خيانة «حاج إبراهيم خان كلانتر» لـ«لطف علي خان زند»؛ وفتح أبواب حصون المدينة أمام الجيوش.

- فتح مدينة كرمان، وقلع عيون بعض سكّانها؛ ثمّ أسر «لطف علي خان زند» وفقأ عينيه وقتله.
- أعاد توحيد إيران تحت لواء سلطته.
- لبس التّاج وتربّع على عرش المملكة الإيرانيّة سنة 1201هـ.
- تنازع مع كاترينا، إمبراطورة روسيا، حول «جورجيا».
- الالتزام بالأخلاق والآداب العشائرية الحَسَنَةِ التي اعتادوا عليها.
- الإعداد العسكريّ الحديثُ الأسلوبِ الذي اعتمِد، من تنظيم وانسجام وانضباط، والحملات الهجوميّة الخاطفة.
- ربط «محمّد خان» سيفَه على خصرِه، يومَ تتويجه على العرش؛ قائلاً: «أنا نصير مذهب الشيعة»، مبدِّداً مرارة السياسة «النادر شاهيّة» التي سادت العهد البائد.
- استتباب الأمن والحزم في الساحة الإيرانيّة.
- عودة الصفاء والاحترام إلى علاقات السلطة مع العلماء الذين دعموا حكّام البلاد.

ووجّه «آغا محمّد خان» جنودَه إلى جورجيا، سنةَ 1209هـ، للقضاء على إمبراطورها الطاغية «هيراكليوس». وانتصر جيشُ إيران ودخل مدينة «تفليس» التي كان أهلُها جزءاً من الشعب الإيرانيّ.

وفي سنة 1211هـ، قتِل «آغا محمّد خان» على يد اثنَينِ من حاشيته. ولم يكن، خلال حُكم «آغا محمّد خان» للشعب رأيٌ في إدارة شؤون البلاد؛ بل كانت الحكومات المتعاقبة تعتمد المركزيّةَ في الإدارة، ومنحَ المقرّبِينَ امتيازاتٍ خاصّة.

الحروب الإيرانيّة ـ الروسيّة

قبل الحديث عن أحداث الحروب الإيرانية ـ الروسية، ينفع التطرّق إلى عهد «فتح علي شاه القاجاري». فقد تربّع هذا الأخير على عرش المملكة الإيرانيّة سنةَ 1212هـ، وَحَكَمَ 38 عاماً؛ وقد خلف عمَّه «آغا محمّد خان». وفي بداية عهده، توجّه من مدينة شيراز إلى مدينة طهران حيث قضى على دُعاةِ السُّلطة؛ أمثال «صادق خان الشقاقيّ» وشقيق الشاه السابق «علي قلي خان» و«محمّد خان زند». وبعد استتباب الحُكم له، عيَّن نجلَه «عبّاس ميرزا» وليّاً للعهد. وغابت المشاكل الداخليّة في المملكة، مع حلول العامِ 1218هـ.

وفي عصر «فتح علي شاه» بدأت روسيا تتدخّل في شؤون إيران الداخليّة، ونافستها في ذلك الدوَل العظمى. وكان «فتح علي شاه»، قبل الحرب الإيرانية ـ الروسية، يهوى التَّرف مُحاطاً بالمتملِّقينَ. إلّا أنَّ عهده لم يخلُ من بعض الإنجازات.

أهمّ رؤساء وِزارات «فتح علي شاه»

- الحاج إبراهيم خان كلانتر، بالملقّب بـ«اعتماد الدولة».
- ميرزا محمّد شفيع المازندراني[1].
- قائم مقام الفراهاني.

كان الحاج إبراهيم خان كلانتر يهوديّاً حديث الإسلام؛ خَانَ «لطف علي خان زند» بأن فتحَ أبواب مدينة شيراز أمام جنود «آغا محمّد خان» وسلّمه المدينة بما فيها. كافأه «محمّد خان» فمنحه

(1) ميرزا: لقبٌ يطلَق في إيرانَ على مَن كانت أمُّه عَلَويّة من سُلالة آل البيت (ع)، ومازندران محافَظة في شمال إيران على بحر قزوين. (المترجِم).

منصب «الصدر الأعظم» (أي رئيس الوزراء)، وظلَّ فيه حتّى سنة 1215هـ.

بدا مِن «إبراهيم خان» شخصيّة كيّسة وذاتُ دهاء مكّنته من اكتساب منصب رئاسة الوزراء عقدَينِ من الزمن، وعلى امتداد عهدَينِ مختلفَينِ ـ الزنديّة والقاجاريّة. هذا أخافَ الأمراءَ وسُراةَ البلاط، وأدرك الجميعُ أنَّ استمرار إبراهيم خان في مركزه المرموق يهدِّدُ سَلطَنة سلطان القاجار وسلالتَه.

كان إبراهيم خان من يهود مدينة «قزوين» الذين هاجروا إلى مدينة «شيراز». وكان اسم جدِّه «عاشر»، لكن بعد اعتناقه الإسلامَ اعتمَد اسمَ «هاشم». ولدى تقلّد إبراهيم خان رئاسة وزراء «آغا محمّد خان»، رحل عدد كبير من رجال عائلته إلى عاصمة البلاد «طهران»، حيث حَظُوا بمناصب حكوميّة هامّة لقرابتهم من إبراهيم خان، وكذلك في محافظات أخرى.

توجّس الشاه من انبساط نفوذ إبراهيم خان وأسرتِه في البلاد، فقتله سنةَ 1215ه وأباد عائلتَه، وعيَّن الميرزا محمّد شفيع المازندراني رئيساً للوزراء. لكن نجا ميرزا أبو الحسن خان (ابنُ شقيقة الحاج إبراهيم خان كلانتر، وزوجُ ابنتِه، وأحدُ روّاد «الماسونيّة» في إيران) وحدَهُ من العائلة المُبادة.

الميرزا محمّد شفيع المازندراني

كان رئيسَ الوزراء 20 عاماً؛ ومن الرجال ذوي السمعة الحسنة. وكان السلطان «فتح علي شاه»، قبل الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة، قد سعى لإعمار البلاد، وتوطيد العلاقة مع رجال الدِّين الذينَ كان في أمسّ الحاجة إلى فتاواهُم أثناء الحرب، فأحسَنَ معاملتَهُم. ومن العلماءِ المُعاصرين له:

أ ـ علماء زمن الجهاد ضدّ الرُّوْسِ:

- الشيخ جعفر كاشف الغطاء.
- السيّد عليّ الطباطبائيّ.
- الملّا أحمد النراقيّ.
- السيّد محمّد المُجاهِد.

ب ـ علماء آخر عهد السلطان «فتح علي شاه»:

- السيّد محمّد باقر الشفتيّ.
- الميرزا مسيح المُجتهِد الطهرانيّ؛ الذي جمع فتاوى العلماءِ في رسالة سمّاها «الرسالة الجهاديّة» ونشرها بين الناس.

كان «فتح علي شاه» قد أحكَمَ باكراً قبضتَه على حكّام ولايات إيران؛ لا سيّما:

- جورجيا.
- هراة.
- قندهار.

لكنَّ علاقاتِه مع جارتِه الشرقيّة، الإمبراطوريّةِ العثمانيّة، بقيت متوتّرة على مدى فترة حُكمه.

وخلال فترة الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة (أي من سنة 1218هـ إلى 1228هـ)؛ كانت القِوى العظمى (روسيا وبريطانيا وفرنسا) ترنو إلى إيران، وكلٌّ من زاوية خاصّة:

- رغبت روسيا في الاستيلاء على بعض المناطق الإيرانيّة، وضمّها إليها؛ ثمّ الوصول إلى المياه الدافئة عن طريق إيران[1].

---

(1) ذكر بطرس الكبير، قيصر روسيا (1682م ـ 1752م)، في وصيّته: «من أجل =

- فرنسا: اعتقد نابوليون أنَّ ضرب بريطانيا يبدأ بالاستيلاء على الهند أوّلاً؛ ودخول فرنسا إلى الهند يجب أن يكون عبر بوّابتِها ـ إيران!
- كانت بريطانيا، التي استولَت على الأسواق التجاريّة الإيرانيّة كافّة، تعتقد أنَّ حفظَ مصالح الاستعمار الإنكليزيّ، وحفظ الهدوء في أفغانستانَ (التي تقع بين إيرانَ والهند)، يجب أن يكونَ عن طريق إيرانَ.

وبعد أن أصبح ألكساندر إمبراطوراً على روسيا، خلفاً لوالدِهِ بطرس الأوّل، استولى بجيوشه على «جورجيا» وألحقها بروسيا. وكانت سياسة احتلال جورجيا أمراً سارياً في عهد بطرس الأوّل؛ وكان قائد الجيش الإيرانيّ «عبّاس ميرزا»، في ذلك الزمان، حاكمَ مقاطعة آذربيجان ووليّ عهد إيران (وكان عمره، في بداية الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة، 16 عاماً).

الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة الأولى

كان طموحٌ قديمٌ لدى الحكّام الرُّوس باحتلال «القفقاز» (التي كانت جزءاً من أراضي الإمبراطوريّة الإيرانيّة)، وضمِّها إلى روسيا؛ تماماً كما كان احتلالُ «جورجيا» الإيرانيّة هدفاً متحقِّقاً في عهد بطرس الكبير (الآنف الذِّكر). فقد تمّ الحُلُمُ الرُّوسيّ هذا في عهد والدةِ بطرس الأوّل (الكبير)، الإمبراطورةِ «كاترينا الثانية» (1729م ـ 1796م).

= الوصول إلى هذا الهدف يجب إضعاف إيران، والاستيلاء على جورجيا والقفقاز». وقال: «إنَّ جورجيا والقفقاز هما الشريان الرئيس لإيرانَ؛ فإن قَطَعت مَخالبُنا هذا الشريان تتدفّق الدماء من الجسد ويصبح سلطان إيران خادماً لنا».

وعند وفاة كاترينا، وخلافة ابنِها بطرس الأوّل لها (1796م ـ 1801م)؛ حلَّت هدنةٌ مؤقّتة في جورجيا محلَّ الحرب، بأمر من الإمبراطور الجديد.

وعندما توفّي «هيراكليوس» حاكمُ جورجيا المتمرِّد؛ أبرم نجلُه «جُرجين» معاهدة مع بطرس الأوّل، سمّاه بمُوجبِها «ملك جورجيا». ومات «جُرجين» بعد سنة (في شهر رمضانَ سنةَ 1215هـ)؛ فأصدر إمبراطور روسيا بطرس الأوّل مرسوماً قضى بضَمّ «جورجيا» إلى روسيا. ثمّ ما لبث أن مات بطرس الأوّل، فخلَفه ابنُه «ألكسندر الأوّل» الذي جعل جورجيا محافظةً من محافظات روسيا. وتمكّنت روسيا من القضاء على ثوّار جورجيا، ثمّ احتلّت مدينةَ «كنجه» (بوّابة جورجيا).

كان احتلال «كنجه» (سنةَ 1218هـ) نقطة انطلاق الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة. وكانت الأمير «عبّاس ميرزا» قائد القوّات الإيرانيّة، وكان السلطان «فتح علي شاه» ملك (شاه) إيران آنذاك. قاوم «عبّاس ميرزا» وجنودُه بشجاعةٍ الرُّوسَ في حرب ضروس، عشرَ سنواتٍ، حالَت دون تمكُّن الرُّوس من تحقيق هدف السيطرة على «إيروان» و«نخجوان».

لكن ما لبثت أنْ خسرت إيرانُ الحربَ، بأنْ لم تحِط بفنون الحرب الحديثة، وخيانة بعض أمراءِ ما وراءَ منطقة «أرس»؛ إلى ما كان مِن الاتّحاد البريطانيّ ـ الروسيّ. فانتهى الصراع بين الإمبراطوريّتَينِ بمعاهدة «كلستان» التي تنصّ على تنازُل إيران عن أراضي «قره باغ» و«كنجه» و«شكي» و«دربند» و«باكو» و«شيروان» و«داغستان» و«جورجيا»، وجزءٍ من ولاية «طالش»؛ لتضَمَّ هذه الأراضي إلى روسيا.

الحالة الداخليّة لإيرانَ وعلاقاتُها الدوليّة في زمن الحرب

استغرقت الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة 26 سنةً؛ تخلّلتها

الاضطرابات التي أثارها الإنكليز، ومعهم ورجالُ البَلاطِ المَلَكيّ الإيرانيّ الذين عرقلوا أعمالَ «عبّاس ميرزا» (قائد القوّات الإيرانيّة) في جبهات القتال.

الاتفاقيات الأوروبيّة ـ الإيرانيّة

هي معاهداتٌ أوروبيّة ـ إيرانيّة أبرِمت أثناء الحرب الروسيّة ـ الإيرانيّة وأثّرت في سَير المعارك؛ وهي:

1 ـ **المعاهدة الإنكليزيّة ـ الإيرانيّة**: وصل نابوليون إلى السلطة سنةَ 1800م؛ وكان هدفه السياسيّ الأوّل إيذاءَ بريطانيا واحتلال شبه القارّة الهنديّة. وكان يطمع في مساعدة بطرس الأوّل إمبارطور روسيا على ضرب الهند عن طريق أفغانستان.

شعر حاكم الهند، الإنكليزيّ «ماركي ولزلي»، بالمؤامرة هذه؛ فأرسل «سِير جان مَلكُم» إلى إيرانَ حيث أبرمَ معاهَدة سنةَ 1215هـ مع رئيس الوزراء «إبراهيم خان كلانتر». أرادت بريطانيا الوقوفَ في وجه الاتّحاد «الهنديّ ـ الإيرانيّ ـ الأفغانيّ» ضدّ الحكومة البريطانيّة.

فكانت المعاهدة الإنكليزيّة ـ الإيرانيّة لتضمَن وقوفَ إيرانَ ضدّ أيّ اعتداء أفغانيّ لملك أفغانستان على الهند؛ وقد تعهّدت بريطانيا بتقديم السلاح إلى إيرانَ، في حال اعتُدي على إيران.

كما تضمّن الاتّفاق حقَّ الإقامة للتجّار الهنود والإنكليز في إيرانَ متى شاؤوا، وأن تُخَفَّفَ عنهم الضرائبُ.

لكن في أواخر القرن التاسع عشر؛ ظهر مانِعان لبسط النفوذ الإنكليزيّ (وشركة الهند الشرقيّة) على شبه القارّة الهنديّة؛ هُما:

- حاكم ولاية ميسور (Mysor) الشيعيّ في جنوب الهند.
- «زمان شاه».

جعلَت سياسة «زمان شاه» الهجوميّة ـ التي أعانته على احتلال «لاهور» ـ منه خطراً كبيراً على الاستعمار البريطانيّ؛ وكان يطمع في اتّحاد وطنيّ ضدّ الإنكليز، يضمّ القِوى المناضلة كافّة، لا سيّما «تيبو سلطان» ليقطَعَ دابر الإنكليز من شبه القارّة الهنديّة.

اعتمدت لذلك بريطانيا سياسةَ الصداقة مع إيران، ورغّبَت «فتح علي شاه» في الإغارة على أفغانستان. ولو أنَّ إيران انضمّت لطموحِ «زمان شاه» لَمَا كانت مجريات الأمور خدمت بريطانيا.

تمكّن «مهدي علي خان»، أوّل ممثّل لشركة الهند الشرقيّة في إيران، أن يشكّل منظّمةً تضمّ «إبراهيم خان كلانتر ـ اعتماد الدولة» و«محمود ميرزا أفغان» (ابن العائلة المَلَكية الذي هرب من أفغانستان ولجأ إلى إيرانَ)؛ وجهّز هؤلاءِ جيشاً توجّه إلى مدينة «هراة» كي يجذبوا «زمان خان» إلى أفغانستان فَيَدَعَ أمر الهند جانباً.

قام «مهدي علي خان» سنةَ 1214هـ بزيارة رسميّة إلى إيرانَ، تزامنت مع مجيء وفد رسميٍّ من قِبل «تيبو سلطان» إلى العاصمة الإيرانيّة. نجحت زيارة «مهدي علي خان»، فتوجّه «سِير جان مَلكُم» (ممثّل شركة الهند الشرقيّة) إلى طهران بهدف التصديّ للتهديد الهنديّ الذي يمثّله «زمان شاه»؛ ولقطع العلاقات الإيرانيّة ـ الفرنسيّة.

وطبقاً لخطّة معدّة سلفاً؛ استطاع «محمود ميرزا أفغان» إزاحةَ «زمان شاه» عن عرشه (بعد أن فقأ عينيه!)، سنةَ 1800م، بهجوم على أفغانستان.

وكان «إبراهيم خان» قد قدّم، في تلك الفترة، كلَّ ما أراده الإنكليز؛ وأبرَم اتفاقيّةً بين إيرانَ وشركة الهند الشرقيّة (وقّعها هو و«سِير جان مَلكُم»)، تلزِم إيرانَ بـ:

- أن تقف في وجه الهجوم الأفغانيّ على الهند.

• أن تمنعَ جيوشَ فرنسا من استخدام إيرانَ جسراً إلى شبه القارّة الهنديّة.

سخط الشعبُ الإيرانيّ بشدّة على خنوع «إبراهيم خان» وعمالته للإنكليز؛ فأصدرَ شاه إيرانَ «فتح علي خان» أمراً بقتلِه، فتمَّ ذلك، كما قتِل أفرادُ عائلته.

وعندما زال خطر «تيبو سلطان» و«زمان شاه»، واعتلى «ألكسندر» عرش الإمبراطوريّة الروسيّة (وهو الميّال سياسيّاً إلى الإنكليز) رجحت كفّة بريطانيا في ساحة السياسة الدوليّة. ولتوطيد العلاقات الروسيّة ـ البريطانيّة، ولمكافاة روسيا على سياساتها المتعاطفة مع بريطانيا؛ تخلّت بريطانيا عن سياسة «الصداقة» مع إيرانَ، وغضّت الطَّرْفَ عن الحملاتِ الروسيّة على حدود إيران.

ثمّ تحرّشت روسيا بـ«جورجيا»، وبذلك بدأت تتجلّى معالمُ الحرب الروسيّة ـ الإيرانيّة. طلبت إيرانُ من إنكلترا (بريطانيا) الحماية في وجه الرُّوس، وفقَ المعاهدة بينهما، لكنّ الإنكليز اشترطوا منحَهم موانئَ وجزائرَ إيران لتأمين الحماية لها، فرفضت إيرانُ هذه الشروط الاستعماريّة.

2 ـ **معاهدة «فين كن اشتاين»**: عندما خاب أمل سلطان إيران «فتح علي شاه» من الإنكليز، تراسل مع نابوليون الذي أرسل إليه رسولاً اسمُه «مسيو جوبر». وعندما اتّفق البلدان تبادلا الوفود الرسميّةَ؛ فأرسِل «الميرزا محمّد رضا القزوينيّ» إلى «فين كن اشتاين» للقاء نابوليون في معسكره سنةَ 1222هـ. أبرَم الجانبان معاهدةً تنصّ على:

• ضمان استقلال إيرانَ.

• إعادة ولاية «جورجيا» إلى الوطن الأمّ «إيرانَ».

- إقامة عدد من المستشارين الفرنسيّين في إيرانَ.
- تحريض الأفغانيّين على الهند وحكّامها.
- قطع العلاقات السياسيّة بإنكلترا.
- المساعدة على طرد الرُّوس من الأراضي الإيرانيّة.

وكان هذا الحلف مضادّاً للرُّوس والإنكليز. وأراد نابوليون أن يشكّلَ جبهةً تضمّ «فرنسا وإيرانَ والعثمانيّين».

3 ـ **معاهَدة تيلسيت**: عندما خسرت روسيا الحرب «الروسيّة ـ الفرنسيّة»، أبرَمت معاهدةَ تيليسيت مع الفرنسيّينَ، وجاءت على حساب الإنكليز؛ وفيها:

- تتعهّد فرنسا بأن تكونَ وسيطاً لحلّ الخلافات بين روسيا والعثمانيّين.
- تتعهّد روسيا بأن تكون وسيطاً لحلّ النزاع الفرنسيّ ـ الإنكليزيّ. (ولم يحصُلْ أن نجحت روسيا في هذه المهمّة لكثرة الخلافات الفرنسيّة ـ الإنكليزيّة).

وفي نهاية المطاف تنكّر نابوليون لكلّ وعوده للإيرانيّين.

4 ـ **المعاهدة المختصَرة**: استغلَّ الإنكليز خيانة فرنسا لإيران، فأرسلت «سِير هارفارد جونز» إلى إيرانَ وأبرَم معاهدةً مختصَرة مع إيرانَ في زمن رئيس الوزراء «ميرزا شفيع المازندراني»؛ ليرجع النفوذ البريطانيّ على إيرانَ، وضمِنَت إيرانُ مرّةً أخرى المحافظةَ على أمن شبه القارّة الهنديّة (فأصبحت إيرانُ ملزَمةً بمنع الجيوش الأوروبيّة كافّة من الوصول إلى شبه القارّة الهنديّة عن طريق الأراضي والمياه الإيرانيّة)، كما منَحت بريطانيا حقَّ الاستقرارِ في جزيرة «خارك» الإيرانيّة، ومناطق الخليج الفارسيّ.

ووَفق هذه المعاهَدة؛ أرسِل «ميرزا أبو الحسن خان الشيرازيّ»، نجلُ شقيقةِ رئيس الوزراء المقتول «ميرزا إبراهيم خان ـ اعتماد الدولة»، إلى بريطانيا سفيراً لإيرانَ. ولدى وصوله إلى العاصمة البريطانيّة لندن، استدرجه «سِير كوراوزلي» للانتماء إلى جمعيّة «الماسونيّة»، ففعل!

وكان «ميرزا أبو الحسن» قد التجأ إلى الإنكليز بعد مقتل «ميرزا إبراهيم خان ـ ـ اعتماد الدَّولة»؛ فعاش في الهند فترة، ثمّ انتقل إلى بريطانيا، ليعَيَّن سفيراً (كما أورَدنا آنفاً). وتقدّم في العمل السياسيّ حتّى صار وزيراً للخارجيّة الإيرانيّة يتقاضى راتبَه من الحكومة البريطانيّة.

5 ـ **المعاهَدة الجامعة**: أبرِمت بين بريطانيا وإيرانَ سنةَ 1812م؛ وتحوي مَوَادَّ هي:

- تلغى المعاهدات التي أبرمتها إيرانُ مع جميع الدول الأوروبية المعادية لبريطانيا، ولا يحقّ لهذه الدول استخدام أراضي أو مياه إيران للوصول إلى شبه القارّة الهنديّة.
- تتعهّد إيرانُ بصدّ الهجمات التي تتعرّض لها بريطانيا، عن طريق «خوارزم» و«بخارى» و«سمرقند» وغيرها من قطعاتِها الموجودة في الهند.
- تلتزم بريطانيا الحيادَ تجاه أيّ اختلاف إيرانيّ ـ أفغانيّ؛ لكنَّ إيرانَ ملزَمة بصدّ أيّ هجوم أفغانيّ على الهند، عسكريّاً.
- لا يحقّ لإيرانَ استدعاء أيّ خبير أو مستشار من الدوَل المناوئة لبريطانيا.
- تلتزم بريطانيا الحيادَ في أيّ اختلافات بين أفراد الأسرة الإيرانيّة المالِكة، أو الأمراء وقادة القوّات المسلّحة وكبار

الساسة؛ كما على بريطانيا رفضُ أيّ عرض يتعلق بالأراضي الإيرانية وتتعهد بأن لا تتدخّل في شؤون إيرانَ الداخليّة.

وجاء في مادّتَينِ أخرَيَينِ من هذه المعاهَدة: على بريطانيا بذل كلّ الجهد لإصلاح العلاقة بين إيران وأيّ دولة أوروبيّة تتحل أراضيها؛ وإلّا فعليها التدخّل عسكريّاً، أو أن تدفع مساعدةً ماليّةً قدرُها 200 ألف تومان سنويّاً لإيرانَ. وإن احتاجت الموانئ الإيرانيّة إلى مساعدة بريطانيّة، فإن استطاعت بريطانيا ذلك، يجب على إيرانَ تسديد نفقات البوارج والبواخر والسُّفن البريطانيّة التي ساعدَتْهَا وفق ما يرضي الطرَفَينِ؛ ولا يحقّ لهذه السفن استخدام الموانئ الإيرانيّة إلّا بعد قبول إيران.

كما يجب على «سِير كوراوزلي» و«ميرزا أبي الحسن خان ايلجي» استدراجُ مؤيّدي «فتح علي شاه» إلى التنظيم الماسونيّ وتشكيل حلقة وفيّة للسياسة البريطانيّة في إيرانَ؛ في وقتٍ كانت روسيا تهاجم إيرانَ على الجبهاتِ كافّة، هجوماً واسعاً كاسحاً (سنةَ 1224هـ).

وكانت المؤامرات التي حِيكَت ضدّ إيران، دَوليّاً، قد أفقدت إيرانَ كِبرياءَها السياسيَّة. كما أنَّ عوامل المقاومة الشعبيّة قد اختفت من على مسرح الحياة الاجتماعيّة؛ بل حتّى إنّ علماءَ النجف وإيرانَ كانوا على يقين من خسارة إيرانَ الحربَ. وقد أجاب العلماءُ عن استفتاءات «عبّاس ميرزا» على نحو:

- الحرب ضدّ الرُّوس جهادٌ.
- الدفاعُ عن آذربيجان والقفقاز واجب شرعيٌّ.
- مَن قُتل في الحرب مات شهيداً.

وكانت هذه أهمّ أسباب رفع معنويّات جنود «عبّاس ميرزا»، في زمن أبرِمت فيه معاهدة سرّيّة، هي معاهدة «بوخارست»، بين روسيا

والعثمانيّين، وتقضي بفتح جميع أراضي الإمبراطوريّة العثمانية أمام الجنود الرُّوس لإيصال العتاد العسكريّ لهم في حربهم ضدّ الإيرانيّين. وتُعتبر هذه المعاهدة أكبر الخيانات من كيان مُسلم تجاه كيان آخرَ مُسلِم، بنُصرة جيوش غير مؤمنة لاستحلال أراضي بلد إسلاميّ آخر!

لقد أمن العثمانيّون شرّ الرُّوس إذ ناصروهم في حربهم على الإيرانيّين؛ فيما خذل كذلك البريطانيّون إيرانَ بالتخلّي عنها أمام الدبّ الروسيّ. وأدّت الجهود البريطانيّة، التي أثمرت معاهدة «بوخارست» بين الرُّوس والعثمانيّين، ونشر أخبار انتصار الرُّوس على إيران؛ إلى إجبار «فتح علي شاه» على الاشتراك في مفاوضات السلام مع روسيا، التي لاقت فشلاً ذريعاً. واستمرّت الخسائر الكبيرة لإيران (في منطقة «اصلان دوز» مثلاً) أمام الرُّوس. لكنَّ فرنسا بدأت تعيد النظر في علاقاتها مع إيرانَ، في ذلك الزمان، فقرّرت أن تعتني مجدّداً بإيرانَ شعباً وحكومةً.

وعندما شعر البريطانيّون بالتقارب الجديد بين إيرانَ وفرنسا، وانعكاس ذلك إقليميّاً ودَوليّاً؛ سَعَوْا لإقناع «فتح علي شاه» بتوقيع معاهدة صلح مع روسيا. وبفعل جهل «فتح علي خان» بما تحيكه، وما تتوجّس منه بريطانيا، قبل بشروط الصلح (المترافقة مع تهديد بريطانيّ بقطع الإمدادت الماليّة عن إيرانَ!). وفرض «سير كوراوزلي» نفسه، إلى جانب «ميرزا أبي الحسن خان ايلجي»، ممثِّلاً لإيرانَ في محادثات السلام؛ وكتب إلى وزير خارجيّة بريطانيا مفتخِراً:

وُفِّقنا في مساعدة حليفتنا روسيا. لقد منحتني إيران قبولَها هدنة بينها وبين روسيا لفترة سنةٍ كاملة. لذا سيتمكّن الرُّوس من سحب قوّاتهم في القفقاز واستخدامِها في جبهات القتال ضدّ العدوّ المشتَرَك فرنسا. فكانت معاهدة «كلستان»، برعاية بريطانيا (سنةَ 1228هـ) بين إيران وروسيا؛ وخلاصتُها:

- تتنازل إيران عن مُدُنِ جورجيا ومحافظاتها كاملةً لصالح روسيا، وكذلك داغستان وباكو ودربند وشيروان، وقره باغ، وشكي، وكنجه، وسوقان، وطالش العُليا لصالح روسيا.
- تُمنع إيرانُ من حقِّ الملاحة في بحر قزوين منعاً باتّاً؛ وعلى إيران السماحُ للاقتصاد الروسيّ باستغلال أسواق إيران.
- تتعهّد روسيا بتقديم كلّ المساعدات اللازمة لأيّ من أبناء «فتح علي شاه» لدى تولّيه «ولاية العهد»، حفظاً لمصالح روسيا.

وكان في ذلك الزمان «عبّاس ميرزا» وليّاً للعهد، وهذا منح روسيا حقّ التدخّل الكامل في أمور إيرانَ كافّة، وعلى كلّ المستويات. وبعد معاهدة «كلستان»، اشتعلت الحرب بين الرُّوس والعثمانيّين، فطلب الرُّوس مساعدةَ الإيرانيّين الذين رفضوا الطلب الروسيّ (رغم خيانة العثمانيّين لإيرانَ).

وفي الفترة التي أبرِمت فيها معاهدة «كلستان» وبدأت الحرب الروسيّة ـ الإيرانيّة الثانية؛ ثمّة أمور يجدر بحثُها؛ أهمّها:

- فشلت المساعي كافّة، خلال الحربَينِ بين روسيا وإيران، في إعادة أرض القفقاز إلى وطنها الأمّ إيران.
- تكبّدت إيرانُ خسائر فادحة:

ـ ما يقارِب 200،000 قتيل.

ـ انهيار اقتصاد المناطق التي طالتها الحرب.

ـ إفلاس خزينة المملَكة.

ـ ضعف القدرة على إعادة إعمار البلد.

ـ الإخفاق المُفجِع في إسكان منكوبي الحرب وإطعامهم.

أدّى هذا إلى عصيان واضطرابات في «خراسان» ومُدُنِ «شمال إيران»؛ ثمّ كانت «فتنة الإسماعيليّة» في مدينة «يزد»، و«فتنة الأفغانيّين»، وهجوم أمير «خوارزم» على مدينة «خراسان». ولقد عملت بريطانيا على إذكاء الفوضى في شمال إيران وإشغال الناس بالمشاكل الداخليّة. كذلك؛ أراد البريطانيّون خلق منطقة فاصلة بين إيران والهند (تكون حائلاً بين البلدَينِ)، فبدأوا تدريجيّاً بقطع مناطق من شرق إيران وتقسيمِ أفغانستان. أدّى هذا إلى سقوط الموازنة التجاريّة الإيرانيّة وتعطيلِ السوق التجاريّة بين إيران والصين.

عندما سقط نابوليون سنةَ 1815م، تشكّل الاتّحاد المقدَّس بين إنكلترا وروسيا وبروسيا. وفي سنة 1821م؛ ونتيجة لرغبة «عبّاس ميرزا» في تعويض خسارة إيران أمام أيّام الحروب الروسيّة، قامت حرب ضروس بين الإمبراطوريّة العثمانيّة وإيران، واستولى الإيرانيّون على مناطق واسعة خلف الحدود الغربيّة، حتّى حاصروا مدينةَ «بغداد». وتوفِّي قائد القوّات الإيرانيّة ـ «عبّاس ميرزا»، وتفشّى مرض «الكوليرا» بين جنودِه ففُكَّ ذلك الحصار.

وفي سنة 1823م أبرمَت إيران والإمبراطوريّة العثمانيّة معاهدة «أرزنة الروم» الأولى. حدِّدت بمُوجبِها الثغور الإيرانيّة والعثمانيّة حتّى أصبحت على الشكل الذي كانت عليه في زمن «نادر شاه» (وهو ما يقارب حدود إيران في يومنا هذا تقريباً). مثّل إيران في هذه المحادثات رئيسُ الوزراء «أمير كبير».

تحليل الحرب الإيرانية ـ الروسيّة الثانية

تتلخّص أسبابها في ما يأتي:

1 ـ الالتباسات والمُبهَمات الواردة في معاهَدة «كلستان»، لجهة

الخطّ الحدوديّ (واحتلال بعض المناطق أثناء توقيع المعاهدة).

2 ـ ثورة الشيخ شامل الداغستانيّ في «داغستان» (داخل الحدود الروسيّة).

3 ـ خانات العشائر المحليّة في المناطق المحتلّة؛ مثل «حسين خان بيكلر بيكى» حاكم منطقة «إيروان» من إيران.

4 ـ رسائل الاستغاثة التي بعث بها المضطهَدونَ إلى علماء الدِّين؛ وشكواهم المستمرّة مِن ظُلم الرُّوس.

5 ـ الاستعداد العسكريّ لـ«عبّاس ميرزا»؛ ولا سيّما بعد انتصاره على العثمانيّين وحصاره «بغداد».

6 ـ الاعتداءات الروسيّة المتكرّرة على ثغور إيران؛ أيّام الحرب الإيرانيّة ـ العثمانيّة، وانشغال القوّات الإيرانيّة في تلك الجبهة.

وقد عارض سياسيّان من رجالات الدولة، بشدّة، محاربة روسيا مرّةً أخرى؛ هما:

- أبو الحسن خان إيلجي.
- معتمد الدَّولة النائيني.

... في وقت أصدر فيه علماءُ فتاوًى تدعو إلى «الجهاد» ضدّ الرُّوس، مثل فتوى السيّد محمّد المجاهد[1].

(1) وللفتاوى التي أصدرها علماء الإسلام صدًى عظيم بين الإيرانيّينَ؛ لاحتوائها مَعانيَ سياسيّة وثقافيّة ـ جهاديّة، واستنادِها إلى مصطلحات مذهبيّة شيعيّة عميقة تتناسب مع الاعتقادية الروحيّة للأمّة؛ ومنها هذان النموذجان:

- فتوى الشيخ محمّد جعفر كاشف الغطاء النجفيّ (استند المؤلّف في تدوين هذه =

تفاصيل هذه الحرب

اندلعت الحرب الإيرانيّة ـ الروسيّة الثانية بعد 13 سنةً من توقُّف الأُولى. ولبيان تفاصيل القتال، قسّمنا وقائع الحرب إلى ثلاثة أقسام:

= الفتوى إلى النصّ الفارسيّ المذكور في كتاب جهاديّة ـ بالفارسيّة؛ نقلاً عن المرحوم قائم مقام؛ فسنحاول إعادته إلى العربيّة. لذا؛ فالنص العربيّ، التالي، هو بكلمات المترجِم ولا علاقة للألفاظ بالشيخ كاشف الغطاء):

«إلى أهل إيران والعراق وفارِس وآذربيجان وخراسان كافّة؛ استعدّوا لجهاد الكفّار اللئام، سلّوا السيوف لحفظ نواة الإسلام، وجاهدوا بدفع الكفّار عن شريعة سيّد الأنام (ص)، وطريقة أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين (ع). اليوم لكم الحُور العِين، وخدمة الغلمان المُطيعِينَ، فإذن قدّموا النفوس الرخيصة بغالي الثمن، لتكن لكم ذخراً في الجنان العالية: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾. (سورة الغاشية: الآية 16).

انهضوا لمساندة المؤمنين لتحصلوا على جنات النعيم، ألم تطلبوا في شهر رمضانَ من الله الشهادة وهي منتهى آمالكم؟ «وقتلاً في سبيلك فوفّق لنا»، ألم تقولوا لشهداء كربلاءَ مراراً وتكراراً «يا ليتنا كنّا معكم فنفوزَ فوزاً عظيماً؟». أترضَون بأن تخالفَ أفعالُكم أقوالَكم؟ اعلموا أنَّ قتيل ثغور آذربيجان دفاعاً عن نواة الإسلام هو كشهداء كربلاء، ورضي عنه ربُّ السموات والأرض.

قَسَماً بالله إنَّ الحُسَينَ (ع) حاضر معكم في هذا المكان، ويطلب «هل مَن ناصر ينصرني»، وكذلك جده المصطفى، وأبوه المرتضى، والأئمّة مِن بَنِيهِ، لا سيّما صاحب العصر والزّمان (عج).

أيُّها الشيعة السامعون لأقوالنا والمقلّدون لأفعالنا؛ سمعتم خطابنا وندعوكم إلى تنفيذ مضمونه، فنادوا بأعلى الأصوات: «أين ذهبت غيرة الإسلام؟...»؛ وقد ورد في الحديث: «أكثر شيعتِنا العَجَم».

«إذا لم يُثِركُم هذا الكلام، وإذا لم تنهضوا وتتركوا المَقام والمُقام فلا شفاعةَ لكم عندنا يَومَ القيام والسلام».

(وقد اختصر محرِّر نصّ المترجِم ما أوردَه المترجِم في «الهامش» هذا، واكتفى بإيراد ما يخدِم الغَرَضَ المُرادَ في هذا المَقام).

القِسم الأوّل: يبدأ من هجوم «عباس ميرزا» الخاطف على روسيا؛ إذ تمكّن من استرجاع المناطق كافّة التي احتلّها الرُّوس، ودفع الجنود الرُّوس خلف مدينة «تفليس». وقد اعتمدت خطّته الناجحة هذه على:

- استغلال وفاة إمبراطور روسيا السابق، وعدم استعداد الجيش الروسي، كما ينبغي، لحرب خاطفة.
- فتوى آية الله السيّد علي الأصفهانيّ (قده): (أصل هذه الخطبة باللغة العربيّة، ولم أعثُر عليها في إيران؛ وهي تتضمّن مضمون ما ذكره الشيخ كاشف الغطاء. فنستميح القارئ العزيز عذراً، وشكراً).
- الفتاوى الشرعيّة التي أصدرها العلماء المسلِمون (الشيعة)، التي حمّست المقاتِلِينَ الإيرانيّين للاندفاع إلى المعركة.
- إصدار قائد القِوى الروسيّة في تلك الجبهة، «الجنرال يرملوف»، أمراً بالانسحاب أمام الهجمة المباغِتة.

لكن لمْ يستَولِ الإيرانيّون على قلعة «شوشي»، بسبب مقتل قائد الحملة «أكبر خان سردار» أثناءَ الهجوم؛ فأصدر خلَفُه «محمّد ميرزا» أمرَ فكّ الحصار والانسحاب من المعركة.

وبناءً على ما جرى، قرّر «نظر علي خان» أن تبقى مدينة «كنجه» بِيَدِ الرُّوس. فاستطاع الرُّوس تعزيز قطعاتهم وترسيخ استيلائهم على الأرض والمنطقة.

القِسم الثاني: عندما عُزل الجنرال يرملوف، سنةَ 1827م، وعُيّن «الجنرال باسكوفيتشن» مكانَه؛ استقدَم «باسكوفيتشن» قوّات غير التي كانت في تلك المنطقة، وتمكّن مع القوّات الجديدة من إعادة مدينتَي «عبّاس آباد» و«أوج كليسا» وضمِّهما إلى روسيا (وكانت إيران قد تخلّت عنهما لروسيا وفق معاهدة «كلستان»).

القِسم الثالث: سيطر الرُّوس على مناطق كثيرة من إيران، بعبور نهر «أرس» والاستيلاء على مدينة «خوي» ومدينة «أرومية» ونصف منطقة «جيلان». وبعد استقرار الرُّوس في المُدُنِ التي احتلوها؛ خاف البريطانيّون العواقِبَ، فتدخّل «ماكدونالد» وسيطاً بين روسيا وإيرانَ، وأقنعَهما بإبرام معاهَدة صُلحِ «تركمن جاي»، تنصّ على أن تدفع إيرانُ غرامة لروسيا قدرُها 5 ملايين تومان.

أسباب خسارة إيران حربَها الثانية ضدّ روسيا:

- التقدّم التكنولوجيّ للأسلحة العسكريّة الروسيّة.
- ضعف الإمدادت إلى جبهات القتال الإيرانيّة.
- ضعف القدرة القياديّة لبعض قادة الجبهات، وخيانة بعضها الآخر.
- خيانة بعض رجالات السياسة، مثل أبي الحسن خان الإيلجي، وعدم كفاءة آخرين.
- لم يكن في المنطقة بلد له جرأة مواجهة الدول الأوروبيّة، ما أفقد إيرانَ عامل المناورة؛ كما لم يُستَفَدْ من الجيش الشعبيّ كما ينبغي أثناء الحرب.

معاهدة «تركمن جاي»

وقّعَها ممثِّل إيرانَ «عبّاس ميرزا» وممثِّل روسيا «الجنرال باسكوفيتشن»؛ وتنصّ على:

1 ـ إقرار السلام والمحبّة والوئام.

2 ـ تعطى خانات (نُزُل القوافل) مدينتَي «إيروان» و«نخجوان»

لروسيا، وتُخرَج القطعات العسكريّة الإيرانيّة كافّة من منطقة «طالش».

3 ـ تُعطَى مناطق الضفّة الشماليّة لنهر «أرس» كافّة لروسيا.

4 ـ تدفع إيرانُ غرامة حربيّة إلى روسيا؛ قدرُها 5 ملايين تومان.

5 ـ تُمنَحُ روسيا حقّ المِلاحة في بحر قزوين.

6 ـ حماية روسيا لولاية عهد «عبّاس ميرزا» وأولادِهِ.

7 ـ لا يحقّ لإيران إدخال أي سفينة حربيّة أو بارجة في مياه بحر قزوين.

8 ـ توطيد العلاقات السياسيّة بين البلدَينِ، وفتح السفارات في العاصمتَينِ الروسيّة والإيرانية.

9 ـ تُمنَحُ ثلاث سنوات لأبناء البلدَينِ للعودة إلى الوطن مع أموالهم كافّة.

10ـ إطلاق سراح الأَسرى كافّة.

11ـ إعادة اللّاجئين كافّة؛ من روسيا إلى إيران، والعكس.

12ـ إصدار عفوٍ عامٍّ عمَّن ساعد روسيا أثناءَ الحرب، ومنحُهم حقَّ مغادرة البلاد خلال مدّةٍ أقصاها عامٌ واحد.

13ـ لا يحقّ محاكمةُ أيِّ روسيّ في المَحاكم الإيرانيّة، أو إصدارُ الأحكام وفقَ القوانين الإيرانيّة؛ بل يُسلَّم الروسيّ إلى روسيا فتحاكِمُه كما تشاءُ في محاكمِها. («كابيتولاسيون»).

نتائج معاهدة تركمن جاي

امّحى كبرياءُ إيران؛ وقد عوّضت إيرانُ من ذلك بثلاث وقائع تاريخيّة مهمّة خلال العقود التي أعقبَت المعاهدة؛ هي:

1 ـ اغتيال «كريبايدوف» سنةَ 1243هـ.

2 ـ نهضة تحريم التبغ والتنباك (حسب الفتوى التي أصدرها آية الله ميرزا الشيرازي، سنةَ 1309ه، فحطّم اقتصادَ الاستعمار والمستعمرِينَ).

3 ـ الثورة الدستوريّة سنةَ 1324هـ.

كان الناس في طهران قد ضاقوا بسياسة «كريبايدوف» ممثّلِ الاستكبار الروسيّ؛ فنهضوا في وجه الغطرسة الروسيّة وتذلُّلِ سياسيّي إيران أمام روسيّا.

عِبرة الحربَينِ ونتائجهما

1 ـ توقّف الاعتماد على الأوروبيّين الذين ثبتَ نكثُهُم وخيانتُهم لحلفائهم (ومنهم كانت إيران).

2 ـ لا اعتمادَ على الأجانب في حربٍ ضدّ الدوَل الأجنبيّة.

3 ـ هجَم الغزو الثقافيّ على إيران، بتوافُد الهيئات التبشيرية وجماعة المستشرِقينَ؛ نتيجةَ الهزيمة الحربيّة والانهيار الاقتصاديّ والفوضى السياسيّة.

4 ـ تبيَّن أنَّ كلّ المباحثات مع إيرانَ، خلال الحربَين؛ كانت تهدفُ، أوروبياً، إلى كسب الوقت لصالح المخطّطات الروسيّة والبريطانيّة.

5 ـ تبيَّن أنَّ الشعب الإيرانيّ، بخلاف الحكومة، لم يخضع للاستكبار الغربيّ، بل رفض وقاوم.

6 ـ يُعتبر العلماء القوّةَ الدافعة وراء صدّ كيد الاستعمار، بفتاواهم التي تحرّض المؤمنين على القتال في سبيل الله («الجهاد»).

7 ـ تبدّى ضعف القاجاريّين.

8 ـ كشفت الحَربَانِ الإيرانيّة ـ الروسيّة عن تخلّف العثمانيّين عن نصرة إخوانهم المسلمِينَ الإيرانيّين ضدّ قِوى الكفر من الأوروبيّين.

9 ـ سيطرت الخيبة على إيران مدّةَ قرن كامل.

أهمّ حوادث عهد «فتح علي شاه»

لم يستطع القاجاريّون (لا سيّما في عصر «فتح علي شاه») استغلال الأحداث العالميّة لصالح إيرانَ. فقد تخلّوا عن كثير من الأراضي الإيرانيّة لصالح روسيا، بموجب معاهدتَي «تركمن جاي» و«كلستان». كما انهار الاقتصاد الإيرانيّ ومعه معنويّات الإيرانيّين، بفعل سياسات الحُكم القاجاريّ المفلِس.

ولقد كان «عبّاس ميرزا» رجلاً شجاعاً مقداماً، اعتمدَ في حكومته رجالاً أكفاءَ. كذلك تفوّق عسكريّاً؛ لكن نقاطَه السلبيّة تتلخّص في أنه:

- اعتمد على خبراءَ ومستشارِينَ بريطانيِّينَ؛ ووضعَهم في مناصب مميّزة في البلاط المَلَكي الإيرانيّ. ثمّ خانه هؤلاء في ما بعدُ.
- جَعَلَ دولةً أجنبيّة (هي روسيا) تتدخّل في شؤون إيرانَ الداخليّة؛ فَوفقَ معاهدة «تركمن جاي» تتعهّد روسيا بحماية وليّ العهد (وهو «عبّاس ميرزا») وأولادِه، وإبقائهم في السُّلطة.
- أفسح المجالَ أمام ممثِّل الحكومة البريطانيّة لانتقاء طلّاب إيرانيّين للدراسة في أوروبّا، سنةَ 1226 و1230هـ. ق (والسنوات التي تَبِعَتها)؛ وهذا ممّا لا يُغفَرُ!

لكن يبقى أنَّ «عبّاس ميرزا» برزَ ذا وجه إيجابيّ، خصوصاً إذ أصدر العلماءُ فتوى الجهاد ضدّ الكفّار باسمه قائداً إيرانيّاً.

محمّد شاه القاجاريّ

توفّي «عبّاس ميرزا» قبلَ أن يعتلي عرش إيران (سنةَ 1249هـ). ولأنَّ «فتح علي خان» كان يودُّ «عبّاس ميرزا» كثيراً، فقد عمد إلى جعل نجله، «محمّد ميرزا»، وليّاً للعهد. وعندما توفّي «فتح علي شاه»، سنةَ 1250هـ، أصبح «محمّد ميرزا» شاه إيرانَ. واجهته المشاكل الاقتصاديّة والسياسيّة، والرجالات التي تدّعي السَّلطنة (أمثال «جهانگير ميرزا» و«خسرو ميرزا» ورؤساء القبائل والعشائر...).

وكان «قائم مقام فراهاني» قد ساعد «محمّد ميرزا» على تثبيت حقّه في اعتلاء العَرش؛ وقد أصبح «فراهاني» رئيساً للوزراء (صدر أعظم). لكنْ غضِب عليه «محمّد ميرزا» فَقَتَلَهُ؛ وعيَّن مكانَه «الحاج ميرزا آغاسي» (وهو من أهل «ايروان»).

لقد صار «ميرزا آغاسي»، لمدّة عشر سنوات، الآمرَ الناهي في المملكة المترامية الأطراف! وكانت مشكلة قطع أراضي مدينة «هراة» الإيرانيّة قد حصلت في زمن «محمّد شاه»، نتيجة ضعف الدولة بِحُكم معاهَدة «تركمن جاي». كذلك؛ طَمِعَ العثمانيّون في المناطق الغربيّة من إيرانَ، فيما ثابر الرُّوس على تثبيت وجودهم في المدن والمحافَظات الإيرانية التي اقتطعوها وهيمنوا عليها. أمّا البريطانيّون، في شرق إيرانَ، فعملوا على فصل «أفغانستان» عن كيان الإمبراطوريّة الإيرانية، كي تكونَ درعاً واقيةً لشبه القارّة الهنديّة وحكّامِها البريطانيّين. وحاول الرُّوس احتلال مناطق نفوذ إيران، شرقَ بحر قزوين (بحر الخزر)؛ كما طمحوا إلى احتلال «أفغانستان» ثمّ الهجوم على شِبه القارّة الهنديّة.

لهذا؛ يجدر الثّناء على حفظ استقلال إيرانَ، في عهد «محمّد ميرزا» ومعه «ميرزا آغاسي»؛ رغم كلّ المحاولات الدؤوبة، للبلدان المذكورة، للسيطرة على مناطقَ من إيرانَ، أو تلك التي لإيران نفوذ فيها.

بداية مشكلة مدينة «هراة»

أنزلت بريطانيا قوّاتها في جنوب إيران، وأذاعَت تهديداتِها؛ ما أجبر إيرانَ على إخلاء مدينة «هراة» من القوّات الإيرانيّة المسلّحة. وفي الرسالة التي وجّهها «محمّد شاه» إلى القوّات الإيرانيّة ما يستحقّ التمعّن:

«يا رجال المدفعيّة المخلصينَ... يا جنود الوطن الفدائيّين... يا رجال قطعات الخيّالة الجرّارة... إعلموا أنَّ الموت بعزّة وشرف ورجولة، قسماً بالله الواحد الأحد، أفضل من العيش ألفَ سنةٍ بقلق وخنوع... وأعلم أنَّكم أشدّ من جنود الدوَل الأجنبيّة، وأنّكم عمادُ الوطن... وأرفع يديَّ تضرّعاً إلى الله ليُبعد عنّا جيراننا الأزبك والتركمان، وقد وصلوا إلى «خُراسان»، ويعينَني على التصدّي لظُلمِهم».

وقد استخلصت بعض كُتُبِ التاريخ انتقادات من حوادث عهد سلطنة «محمّد شاه القاجاريّ»، منها:

1 ـ الانزواء والاعتزال والوَحدة التي فرضها على نفسه.

2 ـ عدم معرفة كفاءة الرجال.

3 ـ اغتيال رئيس الوزراء «قائم مقام فراهاني».

4 ـ قصوره عن فهم فتنة «الباب» (مؤسس البابية).

5 ـ عدم استيعاب التطوّرات السياسيّة العالميّة كما يجب.

وفي هذا المضمار؛ يُشار إلى أنَّ بريطانيا كانت تسعى إلى عزل

«أفغانستان» عن إيران، لتكون حائلاً بين إيران وشبه القارّة الهنديّة. وتمّت محاصرة «هراة» في عهد «محمّد شاه»، وهذا يُعتبر منطلقاً لفصل «هراة» و«أفغانستان» عن إيران. وكان البريطانيّون يحرّضون حاكم «هراة» على القيام ضدّ القوّات الإيرانيّة في تلك المدينة، ويهدّدونه بالعزل والقتل!

وبعد أن قتل «محمّد شاه» رئيسَ وزرائه «قائم مقام فراهاني»، وتولّى منصبَه «ميرزا آغاسي» الغليظُ الأخلاق؛ لم تحصل الدوَل الأوروبيّة على أيّ امتياز خاصّ في إيران.

معاهَدة «أرض روم»

تأثّرت العلاقات الإيرانيّة ـ العثمانيّة، في العصر القاجاريّ، ببعض بنود هذه المعاهَدة المهمّة؛ فكانت العلاقات على نحو:

- طمع السياسيّين العثمانيّين بأراضي «آذربيجان» و«كردستان» و«خوزستان» الإيرانيّة.
- وضع العراقيل أمام زوّار ضريح الإمام عليّ، والإمام الحسين (عليهما السلام)؛ وبقيّة العتبات المقدّسة.
- المشاكل الناشئة عن إقامة ورحيل العشائر والقبائل بين مناطق البلدَينِ.

كانت المعاهدة الأولى بين إيران والعثمانيين قد أنهت هذه الخلافات نسبيّاً. وفي سنة 1255هـ، أثناء مواجهة إيران لمشكلة «هراة»؛ هاجمت القوّات المسلّحة العثمانيّة مدينةَ «خرمشهر» بتحريض من الإنكليز الذين كانوا يتنازعون «هراة» مع إيرانَ. كذلك؛ هجم العثمانيون على مدينتَي «قطور» و«خوي» الإيرانيّتَينِ، وحرّضوا العشائر والقبائل المحليّة لافتعال المشاكل أمام الحُكم الإيرانيّ.

وبعد أن هدأت مشكلة «هراة»؛ ارتكب العثمانيّون مجزرةً في كربلاء راح ضحيَّتَها عددٌ كبير من الشيعة. قرّر «محمّد شاه» الحربَ على العثمانيّين الذين لم يكونوا مستعدّين لها؛ فعمد الإنكليز إلى جمع الدولتَينِ على طاولة حوار تحت إشراف روسيا وبريطانيا، في «أرزنة الروم». دامت المباحَثات ثلاثَ سنوات، مَكَرَ خلالَها الرُّوس والبريطانيّون؛ حتّى أبرِمت معاهدة «أرزنة الروم» بين إيرانَ (ممثَّلةً برئيس الوزراء «أمير كبير» ـ الذي تصرّف بأسلوب غاية في المهارة السياسيّة) والعثمانيّين.

نصّت المعاهدة على حلّ جميع الاختلافات على الأراضي بين الدولتَينِ، كما تطرّقت إلى المِلاحة في شطّ «اورند رود»، واللّاجئِينَ السياسيّين، والضرائب الجمركيّة لزوّار العتبات المقدَّسة في العراق، والحدّ من تعدّيات وجنايات القبائل والعشائر الرحّالة.

تأسيس الفِرَقِ والطوائف خدعة استعماريّة

بدأت فتنة «الباب» في عهد «محمّد شاه»؛ استند فيها البريطانيّون إلى الرُّوس (والعكس صحيح)، لإضعاف إيران والإيرانيّين. فعمدوا إلى ضرب الوَتَدِ الراسخ في المجتمع الإيرانيّ ـ الدِّين! فأسَّسوا الفِرَقَ والمذاهبَ المختلِفة ليكون التناحُر بينها الفاصلَ والمقسِّمَ لوحدة الشعب الإيرانيّ.

فأنشاوا مسلك «البابيّة»، بعد معاهدة «تركمن جاي» (وكانت حكومة إيران ضعيفة والأمّة مستاءة). ثمّ ابتدعوا مسلك «البهائيّة» في زمن «ناصر الدين شاه». إلّا أنَّ الأفكار المصاحبة للمذاهب التي أنشأها البريطانيون والرُّوس في المجتمع الإيرانيّ، لم تجد لها طريقاً إلى أذهان الإيرانيّين الذين ظلّوا ثابتِينَ على مذهب الإماميّة (الشيعة). وقد ساعد الاستكبارُ بعض أفراد تلك المسالك المبتدَعة على الوصول إلى مراكزَ حكوميّة، أثناء عهد بهلويّ.

الفصل الثالث

إيران ونصف قرن من الحُكم الناصريّ

نظرة إلى الحياة السياسيّة لناصرالدين شاه

ارتقى ناصر الدين شاه عرش المملَكة سنةَ 1848م، وكان عمرُه 16 سنةً. حَكَمَ إيرانَ نصف قرن (حتّى سنةِ 1898م). وكان لـ«أمير كبير» الدورُ الفعّال في اعتلاء ناصر الدين العرش؛ فكان «أمير كبير» رئيسَ وزرائه[1].

منح «ناصر الدين شاه» امتيازات كبيرة للأجانب؛ لكن لم يكن استبدادُه بالغَ حدّ إثارة الامتعاض. أثقل مالية الدولة الإيرانيّة بسفراته الثلاث إلى أوروبّا. واختلف بوضوح مع رجال الدين الذين وقفوا في وجه سياسة المتفرنِجِينَ والغزو الثقافيّ الاستعماريّ.

ومن العلماء الكبار الذين اقتحموا ميدان السياسة في هذا العصر:

---

(1) وقد قتل «ناصر الدين شاه» أمير كبير؛ كما فعل والدُه «محمّد شاه» برئيس وزرائه هو كذلك مِن قبلُ.

- ميرزا الشيرازي.
- الحاج ملّا علي كني.
- آغا نجفي الأصفهاني.
- ميرزا محمّد حسن آشتياني.
- محمّد صالح عرب.
- ميرزا جواد مجتهد التبريزي.
- سيّد علي أكبر فال أسيري؛ وآخرينَ...

«أمير كبير» وأهمّ أحداث حكومته

استلم منصب رئيس الوزراء (صدر أعظم) ما بين 1264هـ و1267هـ. كان من عظماء أعلام إيران والعصر القاجاريّ. واجهت رئاستُه تيّارَيْن هما:

- السياسة الخارجيّة ومشاكل العلاقات الدولية (مثل العلاقات الإيرانية ـ الروسية، والإيرانية ـ البريطانيّة).
- المشاكل الداخليّة (تدخّل والدة الشاه في شؤون الدولة)؛ والفساد الإداريّ والسياسيّ والاجتماعيّ لرجال البلاط المَلَكيّ.

1 ـ فتنة «الباب»

عندما لاحظت قوى الاستعمار الأوروبيّة أنَّ التشيّع بات مركز الوحدة الثقافيّة والسياسيّة في إيرانَ؛ عمدت إلى خلق مناخ التفرقة والحساسيّات المذهبيّة، لتشتيت الصفّ الداخليّ. فأنشأت (كما ذكرنا مِن قبلُ) الفِرَقَ المذهبيّة ذات الأفكار الإلغائيّة، لا سيّما تلك التي تُحارب الاعتقادَ بظهور الإمام المهديّ (عج). فتولّى أمر هذه

«الحرب» المذهبُ «البابيّ» الذي أريدَ منه بثُّ الأفكار الاستعماريّة في المجتمع الإيرانيّ.

وكان في الحوزة العلميّة في العراق رجلٌ صوفيُّ الطريقةِ اسمُه الشيخ «أحمد الإحسائي»، والسيد كاظم الرشتي رجلُ الضوضاء والفتنة. أسّس هذان معاً فرقةَ «الشيخيّة» التي تَعتَقِدُ بما عُرِف بـ«الركن الرابع»؛ ومهّد هذا الاعتقاد للفكرة الـ«بابيّة».

وكان للسيّد كاظم الرشتي تلميذان؛ الأوّل الحاج «محمد كريم خان الكرماني» (اهتمّ بأصول الفكرة «الشيخيّة» ونشرها في بَلَدِهِ، مدينةِ «كرمان»). والثاني «محمّد علي باب» الذي غرس مبادئ «البابيّة» وبالغ في طرح فكرة «الركن الرابع». وكان الدعم الاستعماريّ الأوروبيّ، إلى جانب ضعف معنويّات الشعب الإيرانيّ (بعد معاهدة «تركمن جاي»)؛ عاملاً مؤثّراً في نشر فكرة «البابيّة». وقد ألّف «محمّد علي باب» كتابَ «البيان». أمّا الشيخيّة فقد ترأسّها، بعد وفاة مؤسِّسها «السيد كاظم الرشتي»، تلميذُه «الحاج محمّد كريم الكرماني». كانت المبادئ «الشيخيّة» تضمّ أفكاراً منحرفة.

وبدأت فكرة البابيّة سنة 1269هـ (في عهد «محمّد شاه») ووصلت إلى أوجِها زمنَ رئاسة وزراء «أمير كبير». فأصدر العلماء فتوًى بقتل «محمّد علي باب»، وأصدر «أمير كبير» أمراً بإعدامِه فأعدِم[1]؛ فانقسم أنصارُه إلى:

- الفرقة «الأزليّة»؛ يرأسها «يحيى صبح أزل» (واحتضنه الرُّوس).

---

(1) يعتقِد بعضٌ أنَّ قتل «أمير كبير» في ما بعدُ لا يخلو من مَكيدة «بابيّة» (عن الأصل الفارسيّ للمؤلّف؛ ص 119).

- الفرقة «البهائيّة»؛ يرأسُها «ميرزا حسين علي بهاء»، شقيق صاحب الفرقة الأزليّة المذكور (واحتضنه البريطانيّون).

وقد التزم نَفَرٌ من المؤرّخين الأوروبيّين أفكارَ هذه الفِرَقِ المنحرفة؛ فألّف المؤرّخ البريطانيّ «أدور براوند» كتاباً سمّاه «سنة في المجتمع الإيرانيّ»، دافع فيه عن أفكار هذه الفِرَقِ المنحرفة وعقائدها.

2 ـ فتنة سالار

لقد عاث البابيّون (البهائيّون والأزليّون منهُم) الفساد في المجتمع الإيرانيّ، بالشغَب الذي مارسوه مستنِدِينَ إلى قوى الاستعمار الأوروبيّة؛ لكنّ التزامَ الشعْب الإيرانيّ بالعقيدة الإماميّة (الشيعيّة) الراسخة حال دون الانجرار وراء تلك الفِرَقِ وما تبثّه.

وكانت فتنة «سالار»، في الجبهة السياسيّة ـ العسكريّة؛ وقصّتها:

استطاع «محمّد خان سالار» (آصف الدولة) حاكم «خُراسان»، السيطرة على مدينة «سِبزوار» بمساعدة أكراد مدينة «قوجان». وتهيّأ للسيطرة على طهران. فأرسل رئيس الوزراء «أمير كبير»، جيشاً بقيادة «حشمة الدولة» إلى خراسان (وعيّنه حاكماً عليها)؛ فتحارب جيش «سالار» وجيش «حشمة الدولة» قرب مدينة «نيسابور»، وخسر «سالار» فسيطر «حشمة» على مدينة «مشهد».

لكنَّ «حشمة» أساء مُعامَلَةَ أهل «مشهد» فتضجّروا منه، وطلبوا إلى «سالار» المجيءَ إلى «مشهد» فلبَّى دعوتهم، وبمساعدة قبائل «التركمن» سيطر على «مشهد»، فاندحر منها «حشمة الدولة».

بعدها أرسِل «سلطان مراد ميرزا» مِن قِبل «أمير كبير» إلى «خراسان» ليقضي على فتنة «سالار» بشكل كامل؛ فتدخّل السفير البريطانيّ ونظيرُه الرّوسيّ لإرساء هدنة بين «سالار» وسلطان ميرزا»؛

فرفض «أمير كبير» الأمر عارفاً بما يُضمره السفيران. فتمّ فعلاً إنهاء فتنة «سالار».

الإجراءاتُ الإصلاحيّة لـ«أمير كبير»

شملت الإصلاحاتُ المجالاتِ الاقتصاديّةَ والثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة؛ وتتلخّص بالآتي:

- تنظيم جباية الضرائب.
- تشجيع الصناعات المحلّيّة والوطنيّة.
- استدعاء الخبراء إلى إيرانَ.
- تخفيض رواتب العائلة المالِكة والشاه.
- إنشاء السدود على الأنهار الكبيرة.
- استثمار الأموال التي دخلت خزينة الدولة.

وكانت نتيجة هذه الإصلاحات

- تأسيس ثلّاجات ضخمة لحفظ المحاصيل الزراعية.
- إيجاد معسكرات حديثة للقطعات العسكريّة.
- تشجيع الأساتذة والمتخصِّصينَ على المساهمة في صناعة الأسلحة المتطوِّرة.
- إيجاد مخافر حدوديّة حديثة.

كما أصدر أوّل صحيفة رسميّة في البلاد، بعنوان «وقائع اتّفاقيّة»، تنشر الأخبار الداخليّة والخارجيّة بحرّيّة كاملة. وأمر باستيراد المطابع وطبع الكُتُب؛ فبدأت الطباعة فكان أوّلَ الكُتُبِ التي تصدر عن مطبعة إيرانيّة، كتابُ:

- «حوادث اليونان ومسألة الشرق».
- «الجغرافيا العامّة وخارطة إيرانَ».
- الوقاء مِن مرض الجدريّ والهيضة.

كذلك؛ عيَّن «أمير كبير» سفراءَ إيرانيّينَ جُدُداً في روسيا وبريطانيا والدولة العثمانيّة؛ وطلب منهم تقديم تقارير متواصلة عن أحوال عواصم سفاراتِهم. كما جعلَ عَيناً تراقِب تحرّكات السفير الروسيّ والبريطانيّ.

واقترح «أمير كبير» سياسةَ «المعادلة السلبيّة» التي تقضي بألّا تُقدّم إيرانُ أيَّ امتياز في إيران لأي دولة، إلّا إذا خصّصت الدولةُ الأخرى امتيازاً يُناظِره لإيرانَ فيها. ولم تخرَق هذه «المعادَلة» إلّا عندما طلب الرُّوس عزل حاكم «مازندران»؛ لدى هجوم «التركمن» على الرُّوس في «آشوراده» ـ في بحر قزوين/الخزر؛ وقتلوا عدداً من الجنود الرُّوس).

واستغلّ البريطانيّون هذا الامتياز «المجانيّ» للرُّوس؛ فحصلوا على امتياز الإشراف على السُّفن في مياه جنوب إيران (بذريعة مكافحة تجارة العبيد). لكنَّ «أمير كبير» اشترط، في هذا، أن تكونَ عمليات التفتيشِ ومداهمةِ السُّفن، كافّة، تحت إشراف مراقِب أو ممثل لحكومة إيرانَ.

كما كان للإيرانيّين سياسة «القوّة الثالثة»؛ التي تعتقد بضرورة اللّجوء إلى طَرَفٍ (دولة) ثالثٍ، لدى التعرّض للضغط البريطانيّ أو الروسيّ. وقد كانت «فرنسا» ذلك «الطَّرَفَ الثالثَ» لفترة، وفي فترة أخرى «ألمانيا».

ولقد كان السياسيّ ورجل الإصلاح المعروف «سيّد جمال الدِّين

أسد آبادي»[1] كان مِن محبِّذي سياسة «القوّة الثالثة»؛ فاستند إلى فرنسا في تنفيذ إصلاحاته في بعض الدول الإسلاميّة أحياناً. ولانتخاب «القوّة الثالثة»، ثمّة ثلاث خصال يجب مراعاتُها في الدولة/ «القوّة الثالثة»:

- ألّا تكون مِن دول الجوار لتلك الدول الضعيفة.
- أن تمتاز بقوّة عسكريّة ـ اقتصاديّة.
- ألّا تكون من الدول المستغِلّة لمَوارد الدوَل الضعيفة تاريخيّاً.

ولإضعاف التسلّط الروسيّ ـ البريطانيّ؛ حاول «أمير كبير» جذب عناية فرنسا والولايات المتّحدة نحو إيرانَ[2]؛ لذا أقام قنصليّةً في طهران، ومعاهَدة أخرى في مجال المِلاحة البحريّة.

لم يكُن «أمير كبير» يحبِّذ الخنوعَ والخضوعَ، ويرغب في إيجاد مراكز للقضاء القانونيّ. وكانت علاقته برجال الدِّين قويّةً؛ فقد عيَّن «الشيخ عبد الحسين الطهراني» قاضياً للعاصمة طهران.

حرّضت القوى الاستعماريّة الشاهَ الإيرانيَّ على «أمير كبير»، فعزلَه وحكم عليه بإقامة جبريّة في مدينة «كاشان»؛ ثمّ قتله «حاجبُ الدولة»، بعدَ أربعينَ يوماً، في حمّام المدينة، المُسمَّى «حمّام فين».

الاعتراضات والانتقادات التي وجهت إلى «أمير كبير»

- السيطرة على الشؤون كافّة وحدَه؛ فلا نجد مَن أتمَّ مسيرتَه السياسيّة والإداريّة. (ومن المحتمَل أنَّه لم تكن له فرصة سانحة بإعداد رجال أكفاءَ للقيام بتلك المسؤوليّات).

---

(1) ذكرته المصادر العربيّة كافّة «جمال الدِّين الأفغانيّ» خطأً.

(2) كانت تشتمل سياسة «أمير كبير» على: المُوازَنة السلبيّة؛ واستقدام قوّة ثالثة إلى ميدان الصراع السياسيّ.

- تعاطيه مع بعض الحكومات العاجزة وغير الجديرة، والظالِمَة أحياناً. (وقد يُقال ردّاً، في هذا المجال، إنَّ الظروف آنذاك كانت تعجُّ بالضعف والانحطاط، فما كان في الإمكان أكثر ممّا كان؛ وهذا ما قدر عليه «أمير كبير»!).

ولقد كان لتركيز الحدود الشرقيّة والغربيّة للبلاد، وَفقَ النُّظُم العسكريّة، وقعٌ كبير إيجابيّ في نفوس الإيرانيّين؛ فقد عَمَدَ «أمير كبير» إلى إقامة مخفر حدوديّ في «هراة»، كما أحكم سيطرتَه عليها، وراسلَ مهراجات الهند وطلب منهم الانتفاضة في وجه المستعمِرينَ البريطانيّين. فبهذا شغل بعضَهم ببعض، وبقِيَت حدودُ إيرانَ الشرقيّة آمنةً مطمَئِنّة.

وبعد مقتل «أمير كبير» احتلّ البريطانيّون جزائر جنوب إيرانَ؛ وقد قاومتهُم العشائر المحليّة في «تنگستان». لكن كانت الأرجحيّة للتفوّق العسكريّ البريطانيّ. وستبقى قِيَمُ تلك المقاوَمة خالدةً في وجدان الإيرانيّين.

تعيين الحدود الإيرانيّة وفق المعاهدات المختلفة

رُسمت الحدود الإيرانية وفق المعاهدات التالية:

1 ـ الحدود الشمالية تمّ تعيينها وفق معاهدة «تركمن جاي».

2 ـ الحدود الغربيّة تمّ تعيينها وفق معاهدة «أرزنة الروم الثانية». استغرقت المباحثات حول الحدود بين روسيا وبريطانيا وإيرانَ والدولة العثمانيّة أربع سنوات؛ وكانت تبغي روسيا وبريطانيا مصلحتَهما، أمّا ممثِّل إيرانَ فكان «أمير كبير» الذي ضمن بحِنكته عدم تقديم إيران أي خسائر جسِيمة، وتمكّن من تعيين الحدود الغربيّة للبلاد. أمّا قائد الجيش العثمانيّ فقد استحلّ

المنطقة المخصّصة لإيرانَ وعسكرَت جيوشُه فيها، ما أثار جدالات واسعة، إذ لم تَسكُتْ إيرانُ عن الأمر.

وتمكّن «أمير كبير» من أن يحلّ معضلة منطقة «سر بُل ذهاب»، وأرسل قطعات إيرانية سيطرت على جزيرة «عبادان»، ما أثار غضب الرُّوس والبريطانيّين؛ لكنّه اعتبر المسألة شأناً داخليّاً إيرانيّاً لم يسمحْ لأيّ طرف بأن يتدخّل فيه.

وكانت المعاهدة اعتبرت شرق «بُل ذهاب» للعثمانيّين، وغربَها للإيرانيّين. وتنازلت إيران عن مطالبتها بمدينة «السمانيّة». ووفق المادّة الخامسة من هذه المعاهدة؛ وافق العثمانيون على رفع حمايتهم عن الأمراء الهاربِينَ، كما تعهّدوا، وفق المادّة الثامنة، برفع الأذى عن زائري العتبات المقدَّسة في العراق. وجاء في آخر هذه المعاهَدة إلغاءُ معاهدة «أرزنة الروم الأولى».

3 ـ الحدود الشرقيّة لإيرانَ وفق معاهَدة باريس الأولى والثانية: في سنة 1290هـ، اعتبر «غولدسميث» أنَّ سيطرة وحاكميّة إيرانَ على «سيستان» غير قانونيّة؛ فخسرت إيرانُ نواحيَ من شرق سيستان، كما فُصِلَت «أفغانستان» عن إيران.

وفي المعاهدة الثانية؛ فُصِلَت أماكِن من «بلوشستان» عن الوطن الأمّ إيران. وكان هذا في زمن رئاسة وزراء «سپه سالار».

4 ـ الحدود الشمالية الشرقيّة لإيرانَ وفق معاهدة «آخال»: في سنة 1881م؛ أبرِمت هذه المعاهدة بين إيرانَ وروسيا (وتحوي مقدّمةً وثلاثةَ فصول). تنازلت بمُوجبها إيرانُ عن «قلعة كرماب» ومنطقة «قلقلات»، فكانتا من نصيب روسيا. وفي سنة 1884م أصبحت منطقة «مَرو» والمناطق المحيطة بها تحت سلطة النفوذ الرُّوسي بشكل كامل.

5 ـ معاهَدة صلح باريس: أبرِمت سنةَ 1857م، تنازلت بمُوجب فَصلِهَا السادس، إيرانُ عن «هراة» و«أفغانستان»؛ فما عاد لِزاماً على حكّام «أفغانستان» افتتاح خِطاباتهم باسم شاه إيران.

مسألة «هراة»

حدثت في آخر عهد «فتح علي شاه» وعصر «محمّد شاه». فعندما انتهت الحرب الإيرانية ـ الروسيّة، سنةَ 1228هـ، أمر «فتح علي شاه» بإعادة الأمن إلى مناطق «كرمان» و«يزد» و«خراسان»، وأن يتولّى ذلك «عبّاس ميرزا». ومن الطبيعيّ أنَّ الدولة، في حال الاستقرار، أرادت أن تُحكِم سيطرتها على منطقة «هراة» الشرقيّة؛ ما أخاف البريطانيّين على مصالحهم في شبه القارّة الهنديّة.

وعندما أصبح «كامران ميرزا» حاكماً على «هراة»، وثار على الحكومة المركزيّة؛ وجّه «عباس ميرزا» حملة عسكرية على «هراة» بقيادة ابنه «محمّد ميرزا»، فانتصر على «كامران» الذي فرّ طالباً مساعدة البريطانيّين.

وتوفّي «عباس ميرزا» والسيطرةُ على «هراة» لم تكتمل بعد؛ وأبرَم «كامران ميرزا» معاهَدة تعهّد بمُوجبِها بأن يكونَ (و«هراة») تابعاً للحكومة المركزيّة بطهران. لكن عندما اعتلى «محمّد شاه» العرشَ؛ ثار «كامران» مرّةً أخرى، وأخذ بإيذاء الشيعة وبيع الإيرانيّين في سوق «مَرو» ومعاونة الهاربين والمخالِفِينَ سياسيّاً. فَهَجَمَ «محمّد شاه» على «هراة» (والرُّوس متحمِّسون لذلك). كان الرُّوس يأنسُون بانشغال الحكومة في الحرب الحدوديّة (عند «هراة») عن الاعتناء بمكافحة الفِرَقِ الضالّة في الداخل الإيرانيّ (التي تريد الفتكَ بالمجتمع)، ومنها:

- حركة «آغا خان محلّاتي» (سنةَ 1255هـ) التي أشغلت الحكومة 14 شهراً.

- حركة «النقشبندية» في خُراسان.
- فتنة «علي محمّد شيرازي» الملقّب بـ«باب شيراز» في جنوب البلاد.

وأرادت بريطانيا إنهاكَ الحكومة الإيرانيّة بِفِتَنٍ داخليّةٍ تُوهن قدرتَها على الحُكم وتستنزِف طاقاتِها! وكان أن تُركت معالَجةُ موضوعِ «أفغانستان» إلى وقت لاحق، حينَها، بفعل البلبلات الداخليّة. لكن سرعانَ ما استطاعت إيران أن تبسط سيطرتَها على «أفغانستان» بمساعدة من البريطانيّين!

وكان الحائل دون استحكام سيطرة إيران على «أفغانستان»، هو السيطرة البريطانيّة عليها خلال السنوات 1267هـ ـ 1272هـ، وثباتُهم فيها. وفي سنة 1272هـ، أرسلت إيران حكومة «محمّد خان»، بإسناد من البريطانيّين، قوّاتها إلى «هراة». كما قام أحد أبناء «محمّد خان» بالهجوم على الأراضي الإيرانيّة عبر «سيستان»؛ فأرسل «ناصر الدين شاه» جيشاً بقيادة «مراد ميرزا ـ حسام السَّلطنة» لتحرير «هراة»، فَفَعَلَ (وكان ذلك سنةَ 1273هـ).

وعندما انتصر البريطانيّون على روسيا في معركة «كريمه»؛ أعلنوا الحرب على إيرانَ، ونزلت القوّات البريطانيّة في جزيرة «خارك» ثمّ تقدّمت نحو «بوشهر» ومنها إلى «خرمشهر». ولقيت القوّات البريطانيّة، في معارك «خرمشهر»، ما لم يكن في الحسبان، فتكبّدت خسائر فادحة.

وقَبِلَ «ناصر الدين شاه» دخول المفاوضات مع البريطانيّين؛ فأرسل وفداً برئاسة «فرخ خان ـ أمين الدولة» إلى باريس للتداول مع البريطانيّين. وكان معظم أعضاء الوفد البريطانيّ من الحركة «الماسونيّة». وانتهت المفاوضات في باريس سنةَ 1275هـ؛ واستقّلت «أفغانستان» عن إيران.

ففي سنتَين؛ استطاع البريطانيّون فرض معاهدة «كريم» على روسيا، ومعاهدة «باريس» على إيران.

انتزاع سيستان وبلوجستان

بعد انفصال أفغانستان عن إيران؛ أراد البريطانيّون فرض طوق أمنيّ يفصل «الهند» عن «إيران» فصلاً تاماً. وبناءً عليه؛ كتب سفير بريطانيا في طهران، «تشارلز موي»، مذكّرة رسميّة إلى الحكومة الإيرانيّة، في 20 رمضان 1273ه، يعلن فيها أنَّ «سيستان» تابعة لِ «أفغانستان». وبتحريضٍ من البريطانيّين؛ قام حكّام أفغانستان، «دوست محمّد خان» ثمَّ «أمير شير»، بتجاوزات وتطاولات وتعدّيات في مناطق من «سيستان» و«بلوجستان» الإيرانيّتَينِ.

طلبت إيرانُ تحكيمَ بريطانيا لحلّ هذه الخلافات، وفقاً لمعاهدة «باريس». وحاولت بريطانيا كسبَ الوقت بإحالة أمر حلِّ الخلاف إلى الطرَفَينِ عَينِهِمَا. وعندما استتبّت الأمور لإمارة «أمير شير علي» في أفغانستان، وأعلن الولاء للبريطانيّين (إذ انسالت عليه المساعدات العسكريّة والماليّة)؛ جدّد مضايقاته للحكومة الإيرانيّة في تلك المنطقَة. وطلب سنةَ 1869م من بريطانيا التدخّلَ لحلّ الخلاف، فقَبِلَت هذه المرّةَ بالـ«تحكيم»؛ وأرسلَت «الجنرال غولد سميث» ممثِّلاً لها. فكان بحُكم التحكيم أن انفصلت مناطقُ شاسعة من «سيستان» (الإيرانيّة) وضُمّت إلى أفغَانستان.

ثـمَ افتعل البريطانيّون الأمر عينَه، لكن بتحريض «ناصر الدين خان» حاكم منطقة «كلات» هذه المرّة؛ فاحتُكِم إلى التحكيم كذلك؛ ففصل «غولد سميث» مساحات من أرض «بلوشستان» (الإيرانيّة) عن إيران، وضمّها إلى إمارة «كلات». (وتقع «كلات» في عصرنا الحاضر ضمن أراضي باكستان).

انتزاع «بخارى» و«خيوة»

بعد أن خسرت روسيا حربها مع «كريم» وفقدت سيطرتها على «البلقان»؛ وجّهت نظرها نحو «تركستان» (وهي تحت نفوذ إيران). وعند نهضة «سالار»، ثار الخانات (السلاطين) التُّرك، فخرج إليهم الجنود الإيرانيّون فمحقوا ثورتهم. واستغلّ الرُّوس مسألة «هراة» التي شغلت الإيرانيين، للاستيلاء على معظم أراضي «تركمنستان» (بين 1860م و1864م). وفي العامِ 1866م استولى الرُّوس على منطقة «طشقند» وقِسم من مناطقَ «بُخارى» (وفي سنة 1870م أتمّوا استيلاءَهم على ما تبقّى منها)؛ وبدأوا هجمات على منطقة «خيوة»، بل وعلى «مَرو» كذلك.

وفي سنة 1873م؛ تذرّع الرُّوس بانتفاضة التُّرك للاستيلاء على «كوك تبه» (شمال «نهر أترك») ـ وهي آخر مَوقِع للتُّركمان؛ كما استَولوا على حدود شمال شرق خُراسان كاملةً بشكل رسميّ (بناءً على معاهدة مفروضة)، كما سيطرت روسيا على منابع المياه والأنهار والمرتفعات الاستراتيجيّة بشكل كامل. وبعد 11 سنةً استحلّت روسيا قريةَ «فيروزه» الإيرانيّة وضمّتها إليها.

نظرة سياسيّة إلى رؤساء وزراء العصر الناصريّ

غير «أمير كبير»، فرؤساء وزراء إيران هم:

1 ـ «ميرزا آغا خان نوري».

2 ـ «ميرزا حسين خان سبه سالار».

3 ـ ميرزا علي أصغر خان أتابك؛

وكان هؤلاء الثلاثة مقرَّبِينَ من الاستعمار فمنحوه امتيازاتٍ كثيرة.

ميرزا آغا خان نوري

شغل رئاسة الوزراء من سنة 1268هـ إلى 1275هـ؛ بعد تآمره على «أمير كبير» (الذي عزِل ثمّ قُتل). دارت سياسته الداخليّة والخارجيّة في فلك المصالح البريطانيّة؛ ففقدت إيران منطقة «هراة» في عهد حكومته. وكانت سياسته في إدارة البلاد تستند إلى «الموازنة الإيجابيّة»؛ بل أسوأ من هذا، كانت تستند إلى «انكلوفيل»[1]. وقد ساد الانحطاطُ عهدَه (في العصر القاجاريّ).

«ميرزا حسين خان سبه سالار»

بعد عزل «ميرزا آغا خان نوري»، لم يُنتخَب رئيسٌ للوزراء لمدّة 13 عاماً! فكانت الوزارات تعمل على حِدَةٍ. ثمّ ارتأى الشاه تعيينَ «ميرزا حسين خان سبه سالار» رئيساً للوزراء، سنةَ 1288هـ. ويمكن تقسيم عهدِه إلى فترتَينِ:

- فترة اتِّباع السياسة البريطانيّة.
- فترة اتِّباع السياسة الروسيّة.

وكان يرغب في تقدّم البلاد، لكن كان مغروراً متكبِّراً أنانيّاً، يقرِّب مَن يطيعُه طاعةً عمياءَ، كما كان ميّالاً إلى الغَرْبِ. هذا طبعاً أثار الكُرهَ في مَن حولَه تجاهَه؛ ما كان العاملَ الرئيسَ في قتلِه. وقد اشتُهِر بإلمامه بما يحصل خلف الكواليس السياسيّة.

وقد عُقدت في عهده معاهدات عدّة تخدِمِ الاستعمار. ومِن أكبرِ خياناته «منح امتياز رويتر»[2]. كذلك؛ يؤخذ عليه إرسالُ الشاه إلى

---

(1) سياسة «انكلوفيل» تعني سياسة الالتزام التّام بالسياسة البريطانيّة (أي الإنكليزيّة).

(2) منح رويتر امتيازاً لمدّة 70 عاماً، لمدّ سكك الحديد للقطارات؛ وامتيازاً حصريّاً =

أوروبّا مرَّتَينِ (ما كلّف خزينةَ الدَّولة 40،000 ليرة استقرضَتها إيرانُ من أوروبّا).

وفي فترته السياسيّة الثانية؛ استَقدَم شرطةَ الدَّرَكِ الروسيّةَ إلى إيران، ومنح امتياز صيد السمك للشركات الروسيّة. كما يؤخَذ عليه احتكامُه إلى الجنرال «فريدريك غولدسميث» (الأجنبيّ) في مشاكل وطنيّة داخليّة؛ إذ منح بعضَ أراضي محافظة «سيستان» (الإيرانيّة) لِ «أفغانستان» (الحاليّة).

كما حَكَمَ بقطع مساحاتٍ شاسعةً مِن أراضي إيرانَ، فاطمأنَّ بذلك البريطانيّون على مستقبَل حكومتهم الاستعماريّة في شبه القارّة الهنديّة. وكان ثمّةَ سياستان تجاه «إيران» و«أفغانستان»؛ الأولى تقضي بفصل أفغانستان عن إيران، ودعمِها ماليّاً وعسكريّاً (كي تكون حائلاً بين إيرانَ والهند). والثانية تقضي بوجوب حماية إيرانَ ودعمها سياسيّاً لتواجه الأطماع الروسيّة. إلّا أنَّ الكفّة رَجَحَتْ «للسياسة الأولى»، وحدث ما كان يجب ألّا يحدث!

واجه العقد الذي وقّعه «رويتر» مع «سبه سالار» معارضةً شديدةً من قبل الحوزة ورجال الدين؛ حتّى إنّ الرُّوس عارَضوا منافسةً للبريطانيّين. وأعلن آية الله الحاجّ ملّا علي كني، وآية الله السيّد صالح حُرمَةَ هذا العقد شرعاً؛ وأرسلَ الأوّل رسالةً إلى «ناصر الدين شاه» حول خطورة هذا العقد وعمالة «الماسونيّة». فألغِيَ العقد وأبعِد «سبه سالار» عن رئاسة الوزراء[1]؛ ثمّ عيِّن محافِظاً لـ«خُراسان»، وما لبث أن فارق الحياة.

= لاستخراج المَعادن، وتأسيس مصرف في إيرانَ... وكان ذلك كلُّه بمساعدة السفير البريطانيّ في طهران.

(1) ذكر آية الله الحاجّ ملّا علي في رسالة وجّهها إلى ناصر الدِّين شاه بالفارسيّة: =

وتجدر الإشارة إلى أنَّ إمبراطور روسيّا الجديد كان قد منح «سبه سالار» أرفعَ وسام روسيّ، لدى زيارته روسيّا لتهنئة الإمبراطور باعتلاء العرش؛ كما كانت سياسة «سبه سالار» الثقافيّة ـ المعنويّة إيجابيّةً ومنطقيّة، جعلته يمتاز من أقرانه... إلى أن أبعِد عن رئاسة الوزراء.

= «بسم الله الرحمن الرحيم؛ (...) أرغب في أن أحيطَكم علماً بأنَّ ميرزا ملكم خان يُعتبر من أعداء الدولة والدِّين، وليس له صلاحيّة وكالة الدولة والسَّلطنة، بأيّ شكل من الأشكال، ولا يستحقّ لقب «ناظم الملك»... لم يَمضِ زمن طويل حتّى رأينا دار الخلافة بيَد المشعوذينَ... فإذا تهيّأت الأسباب وسنحت الفرصة وتجمّعت شروط النهضة سيخرج الشعب إلى الشوارع كالسيل العارم وسيسيطرونَ على كلّ ما يرغبون وسيَسحقون كلَّ مانع... مَن منح الدولةَ حقَّ غصب الناس أملاكهم وأشجارهم وأراضيهم ومياه قنواتهم؟!! أنا لا أعتقد بهذا الأمر شرعاً... إنَّ شركة «الهند الشرقية» تسلّطت على شبه القارّة الهنديّة على عظم وسعتها، ولم تأخذ منها إلّا مساحة صغيرة لإسكان موظّفيها؛ أمّا الشركة التي تعمل في إيرانَ فلها الحقّ في غصب الأراضي التي ترغب فيها كافّةً، وحقّ الاستفادة من معادن وطُرُق وأراضي ومياه إيرانَ كافّة، كما لها الحقّ في إجبار جميع الموظّفين الإيرانيّين على أيّة خدمة يريدونها!! فكيف اكتسحوا إيرانَ، ولمَ هذه السيطرة؟!! لقد أصبح الشعب الإيرانيّ بأسره عاملاً لهم، وعلى دولة إيرانَ دفعُ رَواتبَ شهريّة لكلّ هؤلاءِ على كثرة عددِهم. فمن أين ستأتي الدولة بكلّ هذا المال؟ لا مجال لتأمين المال لتسديد هذه الرواتب!! أليس هذا ما فرضته المعاهَدة؟! وإذا اعتُدي على بلدنا، فبأيّ مال وبأيّ رجال سنداقع عن أرضنا؟!! أيّ عالِم دِين سيبقى في البلاد بعد أن سيطر الأجانب عليها؟!... الوقت المتبقّي أقلّ من القليل.

أمّا صاحب الجلالة الشاهنشاه فقد أقسم بإمام العصر والزمان، وهو خادمه في هذا العصر والأوان، أن يهتمّ بحفظ الدولة والمملكة والدِّين، وقطع دابر مَن باع الوطنَ وظلم الشعبَ، من الخائنينَ، وخصوصاً مَن عقد معاهَدة «سكك الحديد» ووقّعها لحفظ مَصالح الاستعمار والمجرمينَ...

ميرزا علي أصغر أتابك أعظم (أمين السلطان)

من رؤساء الوزراء المشهورِينَ، دَمِثُ الأخلاق، ذكيٌّ شديد العَزم، حاسمٌ انتهازيٌّ؛ وحديث الناس في البلاد. دامت رئاستُه 16 عاماً؛ حصل خلالها على وسام «الحمام» ـ وهو أعلى وسام مَلَكِيٍّ بريطانيّ يُمنَحُ لكبار شخصيّات العالَم.

فقد كان مؤيِّداً ونصيراً للبريطانيّين حتّى نهضة فتوى تحريم التنباك؛ ثمّ انحاز إلى روسيّا. وتولّى رئاسة الحكومة مرّتَين، الأولى في عهد «ناصر الدِّين شاه»، والثانية في زمن «مظفر الدِّين شاه». وعند نهضة النظام الدستوريّ، سنةَ 1325هـ، أصدر «محمّد علي شاه» مرسوماً بتعيينه رئيساً للوزراء، لكنّه اغتيل في الأيام الأولى مِن تولّيه هذا المنصب. وقد كان «ميرزا علي أصغر» ضمن الوفد الذي زار أوروبّا بِرِفقة الشاه، حيث طُرحت صفقة امتياز «التنباك».

أهمّ الامتيازات التي مُنحت للأجانب في زمنِه

1 ـ امتياز التنباك، وقد أدّى هذا الامتياز إلى ثورة شعبيّة عارمة ضدّ الاستعمار.

2 ـ منح حرّية الملاحة في نهر «كارون» للبريطانيّين (سنةَ 1306هـ)[1].

3 ـ امتياز المصرف الشاهنشاهيّ؛ وهو أعظم امتياز مِنِح للقوى الاستعماريّة الأجنبيّة. فقد مِنِحت «شركة رويتر» امتيازاً حصريّاً بإصدار العملة الوطنيّة الإيرانيّة لمدّة 60 سنة. وكان هذا

---

(1) كانت بريطانيا في تلك الفترة صاحبة أقوى أسطول بحريّ في الخليج الفارسيّ، وأقوى قوّة بحريّة في العالَم.

المصرف يقوم بعمليّات المُصارَفة والتدخّل في الأعمال والصفقات التجاريّة كافّة، وكان له حقّ استخراج المعادن (وعلى رأسها الذَّهَبُ والفضّة). وأشرَكَت «شركة رويتر» المصارفَ البريطانيّة في صفقات هذا الامتياز كافّة. وكان على المصرف الشاهنشاهيّ آنذاك أن يطبعَ 800 ألف ليرة بريطانيّة[1].

4 ـ امتياز «اللوتاري» (سنةَ 1306هـ)؛ ويعود إلى «ميرزا ملكم خان»، ويقضي بِنَشرِ وَبَيعِ بطاقات «اليانصيب». وقد نال «ميرزا ملكم خان» هذا الامتياز من الدولة الشاهنشاهيّة، ثمّ باعه إلى شركتَينِ بريطانيَّتَينِ. ولدى عودة الشاه مِن سَفَرِهِ، أراد أن يُلغي هذا الامتياز، لكن «ملكم خان» ادّعى أنه باع الامتياز وقبض الثَّمَنَ؛ فأحيلت هذه القضيّة إلى المَحاكم الإيرانيّة التي اتَّهمَت «ميرزا ملكم خان» بالغشّ والاحتيال والاختلاس والتدليس. فعزلته دولة إيرانَ عن المناصب والمسؤوليّات كافّة، وجرّدته من كلّ الألقاب.

ثمّ أصدر صحيفةَ «القانون». ويُعتَبر «ميرزا ملكم خان» رائدَ حركة التغريب ونشر الأفكار الغربيّة.

5 ـ منح امتياز شقّ طريق «طهران ـ سواحل الخليج الفارسيّ» للشركات البريطانيّة.

6 ـ معاهَدة «آخال» سنةَ 1881م، أبرِمت بينَ روسيا وإيرانَ كي يسود الأمنُ هذين البلدَين؛ وكانت إيرانُ مهدَّدة من قِبل

---

(1) أصبحت العملة البريطانيّة متداوَلةً في إيرانَ منذ سنةِ 1307هـ؛ وبقي هذا المصرف قائماً حتّى ثورة د. محمّد مصدِّق سنةَ 1953م، إذ تبدّل اسمُه إلى: «المصرف الإنكليزيّ في إيرانَ والشرق الأوسط».

التركمان وحملاتهم. توجّب على إيران، بفِعلِها، ألّا تُقيم القُرى جنب نهر «فيروزه» كي يبقى الماءُ جارياً ليصبّ في روسيا، وألّا تسترجع الأراضي التي استولت عليها روسيا وضمّتها إليها. وتعهّد الطرفان بعدم السماح للتركمان الإيرانيّين بحيازة الأسلحة بتاتاً.

لكن ما لبث هؤلاء أن حازوا السلاحَ وتطاولوا به على الزوّار الإيرانيّينَ؛ ولم تَسْعَ روسيا لدرء خطرهم عن الإيرانيّين. كما أنَّ المعاهدة أخرَجت بعض الأراضي من سلطة إيران، مثل: «مدينة عشق آباد»، و«مدينة مرو»، و«قلعة گرم آب»، و«قلعة قلقلات».

الامتيازات التي حصل عليها الرُّوس فحسْبُ في عهد ميرزا علي أصغر

- تأسيس مصرف للتسليف.
- شق الطرق وتعبيدها.
- استخراج المعادن وإنشاء المناجم والاستفادة من الغابات.
- استلاف مبالغ روسيّة بفوائد مرتفعة؛ وتسخير إدارة جمارك إيران للاستعمار (معاهدة الجمارك سنةَ 1319هـ)[1].

نتائج سلطنة «ناصر الدين شاه» في تلك الفترة

1 - الاستيلاء على محافظة «هرات»، وفصل منطقة «مرو» و«سرخس» و«مناطق أخرى مختلفة حتّى جنوب نهر جيحون»،

(1) وكان بعض هذه الامتيازات منِح أثناء ترأسه الحكومة في عهد الشاه «مظفر الدين القاجاريّ».

وفصل «أفغانستان» عن إيران (وقد كان يتعامل فيها بالنقود الإيرانية، وتقرأ فيها الخُطب باسم الشاه الإيرانيّ).

2 ـ فصل القسم الأعظم من منطقة «سيستان» و«بلوجستان» عن كيان إيران.

3 ـ ازدياد التنافس بين بريطانيا وروسيا لاستغلال مصادر الثروة الوطنية الإيرانية.

4 ـ إرسال طلاب للدراسة في الدول المتقدّمة. وكانت الاستراتيجيّة الغربيّة تجاه إيران، في هذا المجال، تحديد وجهة الطلاب الإيرانيين إلى بريطانيا وروسيا حصراً؛ ليعودوا إلى إيرانَ حاملين معهم ثقافة دُوَل الاستعمار وناشرين ذهنيّة أهل بلاد الاستعمار (ما تسبّب بأزمات اجتماعيّة وثقافيّة، وضرب للهويّة الوطنيّة).

5 ـ انتشار الفقر والفساد الإداريّ والرُّشى.

6 ـ ظهور النهضات والانتفاضات الفكرية والاجتماعيّة والعقيدية؛ فمنها الخطير والمفسِد (كالمذهب «البابيّ» و«البهائيّ»)، ومنها إيجابيّ وطنيّ (كنهضة تحريم التنباك»).

7 ـ تثبيت النفوذ الاستعماريّ (بمنح الامتيازات المتنوّعة).

8 ـ هدر أموال خزينة الدولة على رحلات غير هادفة إلى البلاد الأوروبيّة.

9 ـ الخنوع والخضوع لبعض الدول الأوروبيّة الاستعماريّة.

الفصل الرابع

تحليل تاريخي لنهضة تحريم التنباك[1]

غَلِيَ الشَّعبُ وثُلِّجت النارجيلة

إنَّ أقوى نهضة شعبيّة إسلاميّة أصيلة من حيث التنفيذ والنضال والتأييد الجماهيريّ لفتوى قائد المرجعية الشيعية، هي نهضة تحريم التدخين (حتّى إنّها ليست أقلّ تأثيراً من انتفاضة الجماهير إثر الخطبة النارية للإمام الخمينيّ ضدّ حكومة الشاه سنة 1342هـ/ 1953م، في غرس شجرة الثورة الإسلامية).

الثورة الإسلاميّة السائدة في إيران حاليّاً

نهضة تحريم التدخين بدأت من فتوى «ميرزا حسن شيرازي»، ومن قلب مجتمَع رجال الدين الشيعة، وعمّت أرجاء إيران كافّة. وقد وصلت إلى درجة من الشمول حتّى وصفها أكثر المؤرّخين

(1) التنباكو: التبغ ـ التتن؛ وفي بعض الدول العربيّة يقال: «التنباك» أو «التنبك».

المعاصرين بأنها أول نهضة في التاريخ المعاصر. وقد أذعن لمدى تأثيرها ألدّ المعادين لها.

ذكر أحمد كسروى[1] في كتابه «تاريخ مشروطيَّت= تاريخ الحركة الدستورية» ما ترجمتُه: «يمكن اعتبار هذه الصحوة أوّل نهضة هزّت كيان الأمة في إيرانَ... وعلى الرغم من أنها انطلقت من أوساط رجال الدين، فإنَّ هذا العمل الجريء سياسيّاً ينبغي أنَّ يخلَّد في تاريخ إيرانَ على مرّ العصور»[2].

كما أشار المستشرق «إدوارد براون» في كتابه «انقلاب إيران» إلى أنه: «تعتبَر حادثة التنباك مبدأ الصحوة الشعبيّة تاريخيّاً، ومنطلق عهد اجتماعيّ جديد...»[3].

وقال ناظم الكرمانيّ في كتابه «تاريخ بيداري ايرانيان= تاريخ صحوة الإيرانيّين»: «لقد دبّت الصحوة في أبناء الشعب الإيرانيّ، وفي فترة قصيرة عمّت النهضة طبقات الأمّة كافّة؛ والسبب منحُ شركة «ريجي»[4] امتياز حقّ تجارة وزراعة التنباك. وهنا عرف الشعب كيف يحصل على حقوقه المشروعة»[5]. وذكر مهدي ملك زاده في كتابه «تاريخ مشروطيت»: «كانت نهضة شاملة ذات صبغة دينيّة، وكانت

---

(1) كان من أشدّ المخالفينَ للغة العربيّة والمصطلحات العربية، علمانيّاً، قتله أنصار «جمعية فدائيي الإسلام» في طهران سنةَ 1945م. (المترجِم).

(2) أحمد كسروى، **تاريخ مشروطة إيران**، المجلَّد الأوّل.

(3) إدوارد براون، **انقلاب إيران**، ترجمه إلى الفارسيّة أحمد پزوه.

(4) شركة بريطانيّة منحها «ناصر الدين شاه» امتياز حقّ تجارة وزراعة «التنباكو» بشكل حصريّ؛ فكان الردّ الشعبيّ بانتفاضة تستجيب لفتوى تحريم التبغ، وتراجع الحكومة أمام الغضب الشعبيّ.

(5) ناظم الإسلام الكرمانيّ، **تاريخ بيدارى ايرانيان**، باهتمام علي أكبر سعيدي سيرجاني، المجلَّد الأوّل، طهران، مطبوعات آگاه. 1362هـ.

حجر الأساس (لصورت مشروطيت= لثورة النظام الدستوريّ)»[1].

وإذا تمعّنّا في هذه الانتفاضة؛ وجدناها الحدّ الحاسم الذي قطع دابر «النفوذ الاقتصاديّ الأجنبيّ»؛ وطردَ الاستعمارَ ومحا آثار تسلّطه على الأمّة الإسلاميّة.

شيخ نحيف بأفكار سامية

ميرزا حسن شيرازيّ الأصل، سامرّائيّ المسكن، نَجَفِيُّ المدفن، عرفته الأوساط السياسيّة بأنه مؤسّس النضال الثوريّ في القرن المنصرم. لقد تمكّن، بحكمته، من توحيد الصفّ الإيرانيّ، في الفترة الاستثنائيّة تلك، وتوجيه ضربة قاسية للاستعمار؛ ورغم ضعف وسائل الاتصال. فقد تردّد صدى نهضته في مناطق ودول الشرق الأوسط، وباتت محطّ فخر وعزّ للأمّة في تاريخ النضال الإيرانيّ (الإسلاميّ).

نعم؛ إننا نعتقد بأنَّ هيكلية جمعيّة «المؤمنين والمتّقين» قد ارتبطت بآية الله الشيرازيّ عن طريق تلميذَيه؛ آية الله النوريّ الذي طالب بـ«الحقوق الدستوريّة» حتّى استشهاده على يد الاستعمار، وآية الله الحاجّ الشيخ «محمّد تقي النجفيّ» شعاع وجهاء الحوزة العلميّة الأصفهانيّة (وكانت في تلك الفترة من أكبر الحوزات العلميّة)، الذي عمل الاستعمار على تشويه سمعتِهِ وضرب مكانته الاجتماعيّة والسياسيّة.

ومن هنا نصل إلى الدور النضاليّ لزعماء المدن والمحافظات؛ أمثال السيّد علي أكبر مجتهد مال أسيري (في محافظة فارس)، والحاجّ ميرزا جواد آغا المجتهد التبريزيّ النيّر الضمير، النشيط ضدّ الاستعمار، ومن أبناء آذربيجان (إيران).

---

(1) مهدي ملك زاده، تاريخ **مشروطيت ايران**، المجلّد الأوّل، طهران، مطبوعات مكتبة ابن سينا، 1331هـ.

لقد كان آية الله الشيرازيّ على معرفة تامّة بحالة الغربة التي يعيشها الإسلام في أرض الإسلام، والمآسي التي كانت تكابدها المجتمعات الإسلاميّة. وكان يشعر بخطورة الجهل المتفشّي بين أبناء المجتمَع، والغفلة التي سادت في البلاد نتيجة سياسة كتمان ما يجري على الشعب! كلّ ذلك في ظلّ الخضوع السياسيّ الإيرانيّ للاستعمار الغربيّ، الذي منح «الكافرين» (الأنكلوساكسونيّين) امتيازات، وأبرمَ معهم المعاهدات التي قصمت ظهر الشعب المسلِم، ووضع البلادَ في قبضة الاستعمار.

كان «ميرزا الشيرازيّ» يتحيّن فرصة الثورة، ودفع التنظيمات الشعبيّة إلى داخل ساحة النضال السياسيّ، فتساندها جهود العلماء والحوزات العلمية وأبناء الأمّة. وإننا إذا اعتبرنا «ثورة تحريم التنباكو» حالةً محدودةً عارِضةً سريعةَ الزوال، لا ارتباط لها بالفقه والفقهاء والأحكام الإلٰهيّة، وأنّها مجرّد عصيان في وجه معاهدة «بيع التنباكو» أتى نتيجة حثّ إمبراطور الصقالبة[1]؛ نكون قد سحقنا حقائق التاريخ، وظلمنا الحقَّ والحقيقة.

لقد أرسل الوزير المفوَّض البريطانيّ «سير در مندولف» رسالةً إلى «أمين السلطان» الذي رفعها إلى «ناصر الدين شاه». وكان فيها:

«تحيّة... إنه لا يخفى على جلالتكم وجوبُ الوقوف في وجه ما تعانيه مدينة أصفهان نتيجة فتنة ووشاية المدعوّ (؟). وقد أعلِمتُم أنَّ

---

(1) الصقالبة Slaves! هم عند مؤرّخي العرب الشعوب السلافية القاطنة بين جبال أورال والبحر الأدرياتيكي، في أوروبّا الشرقيّة والوسطى. وهم فرعان: صقالبة الشمال (الروس والروس البيض والبولومنون)، وصقالبة الجنوب أو اليوغوسلافيّون (الصرب والكرواتيون والسلوقاكيون والبلغاريون). أطلق العرب اسم الصقالبة على جماعة من العبيد المجنّدين في الخدمة العسكرية، وهم إمّا من الصقالبة الأصليِّين، وإمّا من غيرهم من العبيد الآتينَ من الغرب.

التجارة للدول الأجنبية آخذة في الازدهار. لكنَّ المؤسِف ما حدث وجعل الخوف يتسلّل إلى قلوب الأوروبيّين المقيمينَ هناك»[1]. (كتب في 12 ذي القعدة 1307هـ).

لكن؛ من هو هذا الرجل المشار إليه بـ«المدعوّ (؟)»... إنه الساعد الأيمن لآية الله «الميرزا الشيرازيّ» في الحوزة العلميّة (في أصفهان)، آية الله الشيخ محمّد تقي النجفيّ الأصفهانيّ. ونحاول فَهمَ مسألة «زيادة ونموّ التجارة الأجنبيّة»، والقلق الذي اعترى السفير الكبير للإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. فقد أراد السفير البريطانيّ ضمان ألّا تتكرّرَ أحداثٌ تُخيف الجالية الأجنبيّة المقيمةَ في إيرانَ. وكانت حادثة أصفهان قد وقعت قبل نهضة «تحريم التنباك» بسنتَينِ.

نعم نعم للنهضة!

لقد استطاع «ميرزا الشيرازيّ»، مع تلاميذه ومناصريه، محاصرة التجارة الأجنبية، بمقاطعة البضائع الغربية، ومكافحة السلطة الاقتصاديّة الاستعمارية؛ بل حتّى استطاعوا تقويض نشاط الاستعمار بعينه (وأعوانِه).

وقد كانت كذلك رسالةٌ من السفير البريطانيّ ترتبط بآية الله الشيخ النوريّ، ذي السلطة الروحيّة الواسعة؛ والذي عمل على «تنظيم المجتمع العلمائيّ» و«تنوير أفكار العوامّ» لتشييد القاعدة الشعبيّة. وقد كان الشيخ النوريّ حريصاً على تبيين شأن نظريّات أساتذته وأهميَّتها.

---

(1) النصّ الفارسيّ لهذه الرسالة في كتاب «**اسناد سياسى دوره قاجاريه**»، إبراهيم صفايى، طبعة بابك، طهران 1357 هـ.

وفي سنة 1306هـ (قبل نهضة «تحريم التنباك» بثلاث سنوات)؛ توجّه الشيخ النوري إلى جماهير الشعب الإيراني، سائلاً عن موقفهم من الواجب العقيديّ تجاه الاستعمار الأجنبيّ (ونفوذه الاقتصاديّ). وكان هذا السؤال منه مقدّمة لمسيرة النضال الشعبيّ ضدّ هيمنة الاستعمار. وفي هذا السياق؛ بعث الشيخ النوري برسالة إلى «ميرزا الشيرازيّ» حول موقف المرجع من المجريات السياسيّة/الاجتماعيّة/الاقتصاديّة في تلك الفترة. فكان ردُّ المرجع «ميرزا الشيرازيّ» على النحو الآتي:

نصّ الرسالة[1]

«إنَّ جلب البضاعة من بلاد الكفر إلى إيرانَ يؤدّي إلى الفساد. ولقد انشغلتُ بهذه الأمور التي أراها تهدم أركان الدِّين. وإنه ينبغي أن يكون دافعكم في ردّ هذه البلوى صادراً عن خالص الغيرة الدينيّة وخير المسلمينَ. لقد كانت التكاليف الشرعيّة والسياسيّة مفوَّضة إلى النبيّ الأعظم (ص)؛ والآن قد انفصلت السياسة عن الديانة، وإنَّ المنتدَبينَ عنهما يتساعدان على حفظ شؤون الدِّين وأمور الناس، وبذرة الإسلام في زمن الغيبة الكبرى للإمام صاحب العصر والزمان (عج).

فإذا تقاعس أحدُهما تدهورت الأمور، ونزل البلاء على الرعيّة في الأرجاء كافّة. ومن الطبيعيّ أن تُرفعَ المَفاسد والمَظالم بأيّ طريقة كانت. ولأنَّ الشعوب لا حولَ لها سوى المطالبة والتهديد، يجب أن يقوم مسؤولو الدولة بواجباتهم استجابةً لمتطلَّبات الناس. وقد أوصى

---

(1) الأسئلة والأجوبة على رسائل الفتاوى كافّة قد نقِلت من الفارسيّة إلى العربيّة من قِبل المترجِم.

صاحب العصر والزمان بصون الدِّين وحفظ حال الرعايا؛ وينبغي على المسؤولينَ بذلُ قصارى جهودهم للحفظ على مكتسَبات الأمّة. وهذا يُعتبَر تكليفاً واجباً على الجميع، إلّا «الأحكامَ الكلّيّة»، فهي مِن واجبات العلماء فحسبُ...

العَجَبُ هو في تناوُل الأطعمة الواردة من تلك البلدان، كالسكر، رغم كثرة الأخبار الواردة التي ما إن ترامت إلى مَسمَعِي حتّى اجتنبتُ أكل ما بتُّ أعلم أنه وارد من الغَرب. وإنَّ أمور السياسة والمصلحة العامّة والتكليف، تخصُّ أولي الأمر من المسلمينَ، فيجب عليهم تأمينُ ما يحتاج إليه الناس من هذه المادّة داخليّاً، وبدون مماطَلة أو تسويف.

وأرجو رجالات الدولة الامتناع عن استعمال هذه المادّة (السكر) والأمر بعدم استعمالها ومقاطعة وارداتِها إلى هذا البلد. ونحبّذ، إن شاء الله تعالى، العملَ على هذا الأمر وفق التكليف الشرعيّ، وعدمَ التقاعس في نشر هذا الأمر والإعلام به. ونسأل الله تعالى إعزازَ الدِّين ونصرة المسلمينَ، وقطع دابر المعاندينَ.

أدام الله توفيقَكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقد استجاب الشيخ النوريّ لطلب آية الله «ميرزا الشيرازيّ» نشر هذه الرسالة، ليعمّ الأمر بالتكليف الشرعيّ (ولا تزال الرسالة محفوظةً في أرشيف أهمّ المكتبات الإيرانية). وإنَّ نموذج الرسالة هذه يبيّن مدى وثاقة الارتباط بين المقلِّد والمقلَّد في الوسط الإسلاميّ (الشيعيّ)، الذي أدّى، في مثل هذا الحالة إلى استجابة المؤمنين لأمر العالِم المَرجِع بمناهضة كيد الاستعمار في بلاد الإسلام، والذَّودِ عن حُرمة الدِّين في وجه المتغطرسينَ.

ولقد كان الشيخ النوريّ، في تلك المرحلة، في متوسّط عمره وأَوج نشاطه، فلمع اسمُه في طليعة العلماء الأفذاذ؛ وأضحى الذراع الأقوى لأستاذه «ميرزا الشيرازيّ» في طهران. كذلك؛ إنّا إذا دقّقنا في القرائن «الحاليّة» و«المَقاميّة» و«المَقاليّة»، ظهرت لنا متابعةُ «ميرزا الشيرازيّ» لِواجب «قطع يد الاستعمار ونفوذِه» و«القضاء على السلطة الأجنبيّة». وإنَّ جملتَه المأثورة، لدى فَتوَاهُ، «وعلى هذا المقدَّر والمقسوم، إن شاء الله سنعمل بتكليفنا بياناً وإعلاناً، وما يستوجبُه الموقف. ولن نتراجع بِعَونِ الله تعالى وقوّته...»[1]؛ دليلٌ على إقدام «ميرزا الشيرازيّ» وعدم جزعه حيال مجابهة قوى الاستكبار وأعداء الدِّين والإنسانيّة.

ويذكَر أنَّ مادّة «السكر»، التي اتّخذ «ميرزا الشيرازيّ» اجتنابَ استيرادها من دوَل الاستعمار رايةً لرفض الخضوع للمستكبرِينَ، في فتواه؛ هي من الموادّ التي يستعملها الناس بشكل شبه إلزاميٍّ حتّى يومنا هذا. فكان أمر اجتناب تناول الآتي من دوَل الاستعمار، نُتوءاً سياسيّاً لافتاً على الصعيد الاجتماعيّ (آتياً من الوَسَطِ العُلَمَائيّ الدِّينيّ)؛ إذ امتثل المؤمنون أمر «ميرزا الشيرازيّ» وكَفّوا عن مادّة كثيرةِ الاستعمال بغيةَ حفظ أركان الدِّين وصيانة أمور المسلمينَ!

ولقد كان شاه إيران في ذلك الزمان مستبدّاً مُترَفاً يتظاهر بالإيمان والتقوى. وقد كتب «اعتماد السَّلطنة» عن مزاج الشاه وتصرفاته في محفل «سراي حريم الشاه» ما ترجمتُه:

«دخل موضوع تحريم التنباك سراي حريم الشاه، فقرّرَتِ النساءُ فيه الامتناعَ عن التدخين؛ فأمر الشاه اللواتي الْتزمنَ الامتناعَ ومنعَ

(1) عرّبه المترجِم عن النص الفارسيّ المذكور في التاريخ (يعني أصل الكتاب، ص 177).

إدخال النارجيلة، بأن يعُدنَ عن مَوقفهنَّ، فردّت إحداهنَّ قائلةً: لقد حرّم التنباك مَن جعلَنا حلالاً لكَ (!) فقال الشاه: أنا سأدخّن وأنتُنَّ كذلك!... فقامت أخرى وقالت: إذا تزوَّجتَ أختَينِ فهَل على الناس أن يقلِّدوك؟!(1)».

وفي الواقع، لقد كان رجالات البلاط المَلَكيّ على نحو أسلوب الشاه، من الاضطراب والفساد والفوضى. كما رهن هؤلاء أنفسهم ووطنَهم للغرب. ولقد كانت بريطانيا تتربّص بإيرانَ لاغتنام اللحظة التي فيها تحقّق مآربَها؛ على نحو وصف القرآن الكريم: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً﴾(2). ولقد بدّل الشيرازيّ الغفلة التاريخيّة إلى حادثة خلّدها التاريخ!

ويجب الالتفات إلى أنَّ عمومَ مفهوم التصدير والاستيراد للبضائع والسِّلع من الدول الأخرى لم يكن مذموماً في نظر «ميرزا الشيرازيّ»؛ لكنَّ المذموم هو عَينُ نمط التعاطي الخاضع، من الطرَف الإيرانيّ، للاستكبار الاقتصاديّ الغربيّ، على النحو الذي تجلّى في تلك الفترة. فقد استند «ميرزا الشيرازيّ» في فتواهُ ضدّ الخضوع للهيمنة الاستكباريّة الأوروبيّة، إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾(3).

ولقد تحوّلت فتوى «ميرزا الشيرازيّ» ونشاطات تلميذه الشيخ

---

(1) محمّد حسن خان اعتمادُ السلطنة، **كتاب چهل سال تاريخ إيرانَ در دورة پادشاهى ناصر الدين شاه**، ج1 ـ المآثر والآثار، باعتناء ايرج أفشار طهران، مطبوعة أساطير، 1363هـ.

(2) سورة النساء: الآية 102.

(3) سورة النساء: الآية 141.

«فضل الله النوريّ» إلى دعامة القاعدة الشعبيّة التي شملت طبقات المجتمَع كافّة، الثائرة على خنوع الطبقة الحاكمة. وإنَّ الفتوى هذه استندت إلى منهجَين؛ هما:

- المحور الأول: إيجاد زعامة ولائيّة للشيعة (وهذا ما اعتمده الإمام الخمينيّ لاحقاً في طرحه لمفهوم «ولاية الفقيه»)، وهذه حالة طبيعيّة للإسلام تكون فيها الدولة والشعب وَحدة مندمِجة لا انفصامَ لها، وتكون الأمّة الإسلاميّة أساس السلطان ومركز اتّخاذ القرار، ويكونُ مقامٌ دينيٌّ ذو مميِّزات خاصّة. ولقد كانت حكومة النبيّ الأعظم محمّد (ص) أسمى نموذج عن هذا الطَّرح (فكانت الدولة والأمّة تَمْتَثِلَانِ أوامرَ مصدر واحد مسؤولٍ عن سياسة الحكومة وأمور السلمينَ ـ هو الرسولُ عينُه)[1].

- اعتماد «ميرزا الشيرازيّ» أسلوباً حاسماً صارماً في طرح فَتوَاهُ لجمهور المقلِّدينَ الذي ينفِّذ أوامرَه طاعةً لله وصَوناً للدِّين. فما قام به هذا المرجع هو محاولة ضمان مصالح العامّة والخاصّة من المسلمينَ.

إنَّ «ميرزا الشيرازيّ» وصفَ في فتواه كيف أنَّ الشعبَ لا يملك إلّا أن يطالب بتغيير الأوضاع القائمة، ويسخَطَ في الشارع على مُجرَيات الأمور؛ ويحدِّد «ميرزا الشيرازيّ» أنَّ مسؤوليّة سوء حال البلاد والفوضى والفساد تقع على عاتق رجالات الدولة الغافلينَ عن واجباتهم. فنستنبط من هذا:

---

(1) والمثَل المعاصَر لهذا النموذج هو ذلك المُتمثِّل بسؤال الشيخ النوريّ وجواب (فتوى) «ميرزا الشيرازيّ».

أوّلاً: أنَّ «ميرزا الشيرازيّ» يبيِّن مَن المسؤول عن نهب ثروات الشعب، والمتواني في واجباته، حتّى عمّت البَلوى أكثر طبقات المجتمَع.

ثانياً: يحتوي هذا البيانُ تهديداً مُضمَراً مبطَّناً موجَّهاً إلى مسؤولي الدولة؛ إذ قال «الشيرازي» في فتواه: «ومِن الطبيعيّ أن تُرفعَ المفاسد والمَظالم بأيّ طريقة كانت». ولقد تبيَّن أنَّ زعامةَ الأمّة كانت بيَده؛ إذ كان التحوّل في المجتمَع الإيرانيّ، شعبيّاً، ضدّ الحكومة الخانعة، وكانت معه نهضةُ أمّة خلّد نضالُها الرائد اقتصاديّاً وسياسيّاً.

وإنَّ أقوال «ميرزا الشيرازيّ» تَشي بوجود واقع يتمثّل في أنَّ قيادة الأمّة، في تلك الفترة، كانت في أوامره وفَتاواهُ؛ وفي أنَّه يصعب إحداث تغيير سياسيّ عظيم بدون الإطاحة بالحاكم وافتعال حَوادثَ تاريخيّةٍ كبيرة تأتي مباغِتة ومفاجئة، كحادثة تحريم التنباك، التي استندَت إلى مقدِّمات ومرّت في مراحل ثلاث، هي:

المرحلة الأولى: مقارعة الأعداء ومناضلة الاستعمار:

كانت فتوى الشيخ «ميرزا الشيرازيّ» في مواجهة فكرة جعل إيرانَ سوقاً لبضائع دول الاستعمار الغربية، ومصدراً للموادّ الأوّليّة التي تحتاج إليها للإنتاج. ولقد كان لفتوى الشيخ «ميرزا الشيرازيّ» السابقة لفتوى تحريم التنباكو، دورٌ فاعل في تزايد الوعي الوطنيّ ونضج الإدراك والإحساس العقيديّ، وتنبيه الناس على تسخير البلاد وأملاك العباد، ومنطلقاً لإيقاظ «الرأي العامّ» وتنبيه الشعب حيالَ ما يُحيط به من المخاطر الاستعماريّة.

وقد أصبحت حيثيّات الفتوى هذه متداوَلةً أكاديميّاً، في مجالس الباحثينَ؛ حتّى انتقلَت إلى المنازل والمساجد والمنابر، وأصبحت مواضيعَ خطابة الوُعّاظ والعلماء.

وثمّة رسالتان بخطّ «ناصر الدين شاه»، بعث بإحداهما إلى نائب سلطنته «كامران ميرزا» يقول له فيها:

«هذا الحاجّ ملّا فيض الله الدربندى لا يجدي نفعاً، لا عملَ له سوى بثّ الكلام الرديء الرخيص، ولا يتعدّى وعظُهُ انتقادَ الدولة... يُخرَجُ مِن طهرانَ فَوراً ويُبعَدُ إلى دربند القفقاز»[1].

وفي الثانية (إلى «كامران ميرزا» كذلك) ملأى بالكلمات النابية تعكس اضطرابَ الشاه وانفعالَه، حول رجل دِين واعظ آخرَ، اسمُه «ملّا باقر الواعظ»، يقول:

«قل له: يا حمار!! أنت واعظ... فاقرأ العزاءَ ولا تتطرّق إلى السياسة والدولة والحكومة وأعمالِها... وإذا عرفناكَ تتكلّم ثانيةً على إدارة الحكومة لشؤون البلاد، سأسوقُك وأباك إلى جهنّم، وسأطردك من إيرانَ!!»[2].

وقد بعث رجل بريطانيٌّ إلى زميله في «ساليزبوري» (سنةَ 1891م)، قبل فتوى «تحريم التنباكو»، يقول:

«رجال الدِّين المتزمّتون يقولون إنَّ سُراة الدولة قد باعوا الثروة الوطنية، من تجارة ومعادن وشؤون مصرفيّة وطُرُقٍ وتبغ، إلى المستعمِر الأجنبيّ... فقد سيطر الأجنبيّ على البساتين والمزارع والثمار؛ حتّى وصلت الأمور إلى استعباد النساء»[3].

لقد كانت هذه الرسالة بين البريطاني وزميله قبل ثمانية أشهر من «انفجار الثورة»! فما قام به علماء الدين (أثناء هذه الشهور المديدة)

---

(1) إبراهيم صفائى، **كتاب اسناد سياسى دوره قاجارية**.

(2) المصدر نفسه.

(3) علي دوانى، **نهضت روحانيون إيران**، ج1، طهران، بُنياد فرهنگى امام رضا (ع)، ص 106.

من حشد الرأي العامّ الإيرانيّ ضدّ التعسّف الحكوميّ الداخليّ، ساعد على تدعيم صلابة القاعدة الشعبيّة الحاضنة لحركة النهضة ضدّ الخضوع الرسميّ الإيرانيّ للهيمنة الاستعماريّة الأجنبيّة. وهذا كلّه جعل رجالات الدولة في حال اضطراب وجزع أمام السيل الشعبيّ المستنكِر لسياسات الحكومة، مدعوماً وموجَّهاً من قبل علماء الدِّين.

المرحلة الثانية: مزيد من البراءة:

تحتاج كل ثورة إلى تجييش العواطف وأسر القلوب؛ لذلك، فإنَّ تنظيم («طبخ») الأخبار ونشرها بأسلوب يحدِث ضجّةً ولهيباً واستنهاضاً ومظاهرات ومسيرات احتجاجيّة، يساعدان على تَمتِينِ القضيّة وترسيخها في وجدان أفراد الشعوب، فتصبح من صميم فِكر الأفراد ودوافع نشاطهم السياسيّ والاجتماعيّ.

نحن نعتبر أنّه إذا تقاعسنا في أمر «البراءة والولاية» فسنبقى نراوح في مكاننا فلا نتقدّم ولا نتطوّر أبداً. فيجب نبذ الأعداء وتقريب الأحباب والأصدقاء كي نضع الخطوات الأولى على طريق الحركة الاجتماعيّة. وإنَّ علماء الشيعة قد رسّخوا «مفاهيم أسُس التشيُّع» في وجدانهم. فالشيخ «ميرزا الشيرازيّ» وضع الناسَ، بفتواه الشهيرة (التي بيَّن للناس فيها وَجهَ المَظلَمة والاستضعاف)، أمامَ معرفة الحقائق وإدامةِ مسيرة الشعب الإصلاحيّة (معزِّزاً بذلك التقوى السياسيّة)؛ كذلك غرس في قلوب الإيرانيّين بذرةَ كراهية المستعمِر الأجنبيّ. وأنبتت هذه البذرةُ نهضةَ «تحريم التنباك» التي كانت المحور الرئيس للعواطف الوطنيّة.

فخلال قرن من الزمان؛ استطاع علماء الدِّين إثارةَ عواطف وجوانح الجماهير الإيرانيّة على السّاسَةِ الذين يريدون استغلال

عواطف الشعب لمآربهم الخاضعة للاستعمار الأجنبيّ. فظهرت المصانع الوطنيّة (لا سيّما في مدينة أصفهان) التي تنتج للإيرانيّين سِلَعاً تزيل القلقَ من أذهانهم حيال حليّة وحُرمة ما يستهلكونَه، عملاً بفتوى «ميرزا الشيرازيّ»؛ حتّى إنّ بعض الشعب الإيرانيّ قرّر ألّا يلبسَ إلّا الأقمشة والملابس المصنوعة في إيران.

المرحلة الثالثة: الدخول إلى حلبة الصراع:

وقّع «ناصر الدين شاه القاجاريّ» معاهدة «ريجي» بموادِّها الخمسَ عشرةَ، في أوروبّا سنةَ 1889م؛ فسارع المستعمرون إلى الاستيلاء على خيرات إيران. فدخل العلماء الشيعة ميدان النضال العمليّ، كلٌّ حسْب مكانته في التنظيم الثوري المتمركز في مدينة العسكريّين (ع) سامرّاء المقدَّسة.

واستناداً إلى كتاب «تحريم دخانية» (بالفارسيّة ـ تأليف الشيخ حسن الكربلائيّ)، وكتاب «تحريم تنباكو» (بالفارسيّة ـ تأليف إبراهيم تيمورى)، ووثائق عدّة أخرى؛ كانت أصفهان أوّلَ مدينة حرِّم فيها بَيعُ وشراء التنباك.

وقد أرسِلت برقيّةٌ من دائرة بريد أصفهان، بشكل تقرير، إلى طهران: «البارحة (السبت) ألصق «آغا نجفى» (الشيخ محمّد تقي النجفيّ الأصفهانيّ ـ تلميذ «ميرزا الشيرازيّ») والشيخ محمّد على (شقيقُه) منشورات عدّة على أبواب المساجد وحيطان الشوارع والمعابر؛ وجاء فيها: التنباك حرام! ـ كما وصفوا حُماةَ التنباك والأجانب والمرتدّين ومن يعمل في هذا الحقل بـ«النَّجِسِ»، وتشير إلى أنّه مَن يساعد الأجانب في هذه التجارة يجب منعه من دخول حمّام المسلمينَ، وعدم السماح له بدخول المساجد... كما تَمنَعُ المنشوراتُ النارجيلة في المقاهي والمَجالس والحمّامات ومجالس

العلماء والتجّار... وعلى طلّاب المدارس الدينيّة تحطيم النارجيلات أينما وجِدَت، وحتّى نارجيلات مقهى «ظلّ السلطان»[1]...».

وقد رفع لواء هذه النهضة في شيراز آية الله السيّد علي أكبر فال أسيري؛ الذي كان يسلّ سيفاً من تحت عباءته، بعد كلّ خطبة له، ويقول: «الجهاد أيها المؤمنون... كلّ أجنبيّ يأتي إلى شيراز ممثِّلاً لشركة التبغ سأقطع رأسه بهذا السيف»[2].

كذلك؛ أيّد علماء تبريز هذه الثورة، لا سيّما الحاجّ ميرزا جواد آغا المجتهِد الكبير وصاحب الكلمة النافذة؛ وقالوا: «إنَّ خير الشعب والدولة الوقوف في وجه هذه الإجراءات». ووقفوا في وجه العملاء[3].

وكتب آية الله «الحاجّ ميرزا جواد آغا» إلى «ناصر الدين شاه» يقول: «لقد حكمتَ إيرانَ مدّةَ 42 عاماً طمعاً، مزّقتَ البلاد وبعتَ الوطن رخيصاً للأجانب، وأنت أعلم بما تعمل؛ أمّا نحن الآذربيجيّينَ فلا نبيعُ أنفسنا لأجنبيّ، وسنناضل ضدّ الاستعمار وأدواتِه ما دام لنا قلبٌ ينبض»[4].

وثارت وحشيّة النظام الغاشم، وبدأ قمعَ المناضلين ضدّ الامتيازات الاقتصاديّة الممنوحة لقوى الاستعمار الغربيّ؛ وسعى لإبعاد علماء الدِّين عن ساحة النضال. وقد بعث «ناصر الدِّين شاه»

---

(1) كان وليّ عهد «ناصر الدين شاه» حاكماً لمدينة أصفهان ويلقَّب بـ«ظلّ السلطان». (إبراهيم صفايى، **اسناد سياسى دوره قاجارية**، ص 41).

(2) الشيخ حسن الكربلائيّ، رسالة «تاريخ دخانيات»، كتاب «**سدّة تحريم تنباكو**» الدفتر الثاني.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

إلى نجلِه حاكم مدينة أصفهان، يقول: «لماذا يعتبر العلماء وأهل البلد فتح المصارف عملاً رديئاً؟! نعم؛ إنَّ الدوَل الأجنبيّة لها كلّ الحقّ في أن تقوم بأيّ عمل تجاريّ في هذا البلد، استناداً إلى المعاهدة مع إيران منذ عهد «آغا محمّد خان» و«فتح علي شاه» و«محمّد شاه». وإنَّ المصارف تعمل بانتظام وفق قواعدَ وأصول... وماذا يعرف أبناء الشعب عن المصارف أصلاً؟!! أنا لا أعرف مَن الذي يضلّل أفراد الشعب! وإذا لم يكفّوا عن بثّ الشائعات المُضِلّة، فسنتعامل مع الأمر سياسيّاً بمعزل عن التكليف الشرعيّ». كما كتَب إليه يقول: «اطلب ما تحتاج إليه من العساكر، من صنف الخيّالة والمُشاة والمدفعيّة لتقمعَ هؤلاء الأشرار (يعني علماءَ الدِّين والمؤمنينَ)[1]، وسوف تأتيك الجحافل فَوراً، ولا ترحَمْ هؤلاء الأراذلَ، حتّى تكونَ هذه ذكرى أليمةً لهُم لسنوات آتية»[2].

ثمّ بعث ابنه إليه يقول: «هؤلاء المشايخ السفهاء حيّرونا بحركاتهم... من أين نزل هذا الاطمئنانُ في قلوبهم؟! مَن يساندُهم، وعلى أيّ قوّة يعتمدونَ؟»[3].

ومن وثائقَ وردت في كتاب «تحريم التنباكو في إيرانَ» تأليف «نيكى ر. كدى»، عمّا حدث في أصفهان:

«تكرّرت المظاهرات الكبيرة بقيادة علماء الدِّين الكبار، على رأسهم «آغا النجفيّ» وشقيقه «الشيخ محمّد علي» اللذَينِ أصدرا فتوًى بنجاسة التنباك؛ فأقسمَ المتظاهرون جميعاً على ألّا يدخّنوا منه، وهجموا على الأسواق وحطّموا النارجيلات. فأمر «ظلُّ السلطان»

(1) إبراهيم صفايى، **اسناد سياسى دوره قاجاريه**، ص 25.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

الجنودَ والخيّالة بالقضاء على النهضة؛ لكن استمرّت المظاهرات، وطلَب «الشيخ محمّد على» من المتظاهرينَ مقاطعة المَتاجر والمؤسّسات البريطانيّة كافّة»[1].

فعمد نجل «ناصر الدين شاه» إلى أمر التجّار البائعينَ للتنباكو بألّا يستجيبوا لطلَب رجال الدِّين والمتظاهرينَ. ثمَّ قال للمناضلينَ: «إنَّ صاحب الجلالة «الشاه» مالك أمور وشؤون وأموال الشعب الإيرانيّ، وهو أعرف بمصالح الرعيّة، ولا حقّ لكم في الاعتراض على أوامر جلالته. فلا تتجاسَروا، واشتغِلوا بعلومكم وواجباتكُمُ ولا شأنَ لكم في الحكومة وعمّالها وما يصدر عنها»[2].

إلّا أنَّ الشعب الإيرانيَّ ظلَّ مثابراً على هدفه، فانتشرت الجداريّات والمنشورات في أغلب الشوارع والأحياء؛ وكانت بإمضاء «آغا النجفيّ». ويشير مضمون المنشورات إلى منع دخول الأوروبيّين إلى الأماكن العامّة.

وبعد أصفهان؛ استجابت مدينتا «شيراز» و«تبريز» لفتوى تحريم «التنباك»، بفعل النشاط العلمائيّ المحرّض ضدّ الاستعمار. ثمّ توسّعت هذه النهضةُ. ولم تقدِر الحكومةُ على ردع المظاهرات، رغم شدّة العنف الذي مُورِسَ ضدّ الشعب الإيرانيّ.

وقد أرسل «آغا النجفيّ» أحدَ علماء أصفهان، «الحاجّ منير الدِّين البروجردى»، إلى العراق لإيصال آراء العلماء حول النهضة وتحريم التنباكو؛ وطلب تأييد فتاوى علماء أصفهان وشيراز وتبريز... والجدير

(1) كتاب «**تحريم التنباكو في ايران**»، الترجمة الفارسيّة بِقَلَمِ شاهُرخ قائم مقامي، طهران 1326هـ.

(2) المصدر نفسه.

بالذكر هو أنَّ الانتفاضات المحليّة في ذلك الزمان لم تستطع أن تتوحّدَ إلّا بفتوى «ميرزا الشيرازيّ» العالِم الثائر الكبير، لتصبح ثورة عامّةً جميعَ إيرانَ.

لقد تمّ اندحار المستعمِرينَ على مرحلتَينِ:

المرحلة الأولى: انتشار فتوى «ميرزا الشيرازي» واستجابة الناس لها؛ ثمّ استبداد الحكومة خلال شهر، وتعسّف الاستعمار خلال قرن لتشويه أصالة وعظمة هذه الفتوى التاريخيّة.

المرحلة الثانية: بلوغ الثورة في إيرانَ ذروتَها ومجدَها، وتراجع الاستعمار أمام الصحوة الوطنيّة والنفوذ العلمائيّ في الأوساط الشعبيّة المستجيبة.

مقاطعة التنباك المنجَّس ووصول فتوى «الشيرازي» وما آلت إليه الأمور

أتت فتوى «ميرزا الشيرازيّ» مُوجَزةً حاسمةً؛ على النحو الآتي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اليوم استعمال التنباك والتبغ بأيّ نحو كان، هو بمثابة كفاح ضدّ إمام الزمان (ص). حرّره الأقلُّ محمّد حسن الحسينيّ.

فيها عَبَرَ «ميرزا الشيرازيّ» عِلَلَ الحلال والحرام، عيَّن عَينَ المطلوب صَوناً لمكوِّنات كيان الأمّة (الإسلام)؛ مستثيراً عواطف المسلمينَ بالقول: «بمثابة كفاح ضدّ إمام الزمان». وقد بلغت هذه الفتوى مدًى من التأثير تجلّى في الْتزام غير المسلمينَ حتّى بالامتناع عن التدخين. وقد جاء في كتاب «تاريخ دخانيه = تاريخ التدخين»:

«حتّى اليهود والنصارى في إيرانَ سايروا المسلمينَ وامتنعوا عن التدخين»[1].

وصلت الفتوى إلى طهران (من العراق، حيث «ميرزا الشيرازيّ») يومَ الخميس الأول من «جمادى الأولى»، سنةَ 1309هـ، وسلِّمَت إلى المجتهِد الأكبر «ميرزا آشتياني». سارعَ الناس إلى استنساخ 100 ألف نسخة، ووزّعوها على مختلِف طبقات المجتمَع داخل طهران (مع حلول منتصَف اليوم الأوّل). ثمّ عملوا، بالطُّرُقِ كافّةً، على إيصال الفتوى إلى نواحي إيرانَ قاطبةً. ومنذ عصر يوم الجمعة؛ لم يشاهَد في إيرانَ كلِّها شخصٌ يدخِّنُ السيجارة أو النارجيلة أو قصبة التدخين. ومُنع كذلك بَيعُ واشتراء الدُّخان في كلّ أنحاء البلاد.

إزاءَ هذا، عَمَدَ «أمين السُّلطان» و«كامران ميرزا ـ نائب السَّلطنة»، على رأس قوّة من رجال الأمن والجنود، إلى تمزيق منشورات هذه الفتوى كافّة. فردَّ المثقَّفون بمعاودة طباعتها، لينشرها الأمّيّونَ في كلّ ناحية. واللطيف الجذّاب أنَّ كلَّ مَن اعتلى منبراً، من الوعّاظ والخطباء، في المساجد والمُنتدَيات، بدأ كلامه بقراءة نصّ الفَتوى (الثوريّة الحاسِمَة). وقد وصلت الفتوى إلى قصور الطبقة الحاكمة، ومَجالسِها. وجاء في جريدة «مذكَّرات اعتماد السَّلطنة»: «وصلت فتوى «ميرزا الشيرازيّ» أعلم وأكبر المجتهدينَ، المُقيم في «سامرّاء»، تنصّ على مَنعِ وتحريم استعمال التبغ والتنباك. وقُرِئَت في المسجد المسمّى «مسجد الشاه»، ثمّ في المساجد والتكايا الأخرى؛ فحطّم الناسُ زجاجات النارجيلات وقصبات التدخين».

كما كتب «اعتمادُ السلطنة» حول الأيّام التي تلَت، يقول واصفاً

---

(1) انظر: رسالة الشيخ حسن الكربلائي المسمّاة: «تاريخ دخانيه= تاريخ التدخين»، القِسم الثاني.

ذلّة وتصاغر كبار رجال الحكومة ومستبِدّي البَلَاطِ الشاهنشاهيّ: «صباحَ يوم الجمعة، 9 جمادى الأولى 1309هـ، حضر «أمين الدولة» مكتبي زائراً، وقال إنه أحضر لزوجته نارجيلةً، وتوجَّهَ نحو عمّال البناء الذين كانوا يرمِّمُونَ ناحيةً من منزله؛ فرآهم قد تركوا شغلَهم ويهمّون بالخروج، ليعرف بعدها أنّهم يَعتبرون البيت الذي لا يلتزم بالدِّين ويتعاطى النارجيلة ليس أهلاً للترميم» (!)

وحتّى في البلاط الشاهنشاهيّ؛ كسَّر الخِصيان والغِلمان زجاجات النارجيلة ورؤوسَها، واصطفَّ الجميع أمام قاعات مَنامهم لعَرضِ ما حصل على الشاه. فدخل الشاه غاضباً غرفةَ زوجتِه وسألَها: «يا هانم لِمَ تُخرجينَ النارجيلات من الخزائن؟»؛ فقالت: «إنها أصبحت من المحرَّمات». فردَّ هو ساخطاً: «مَن حرَّمها؟!!»... فأجابتهُ بالخشونة عَينِها: «حرَّمها مَن جعلني حلالاً لَكَ». فارتدَّ صامتاً، ولم يُجِبْ[1].

وظلَّ الاستعمار يبذل قصارى جهده، قرناً من الزَّمن، لكبح هذه النهضة الإيرانيّة. فحاول ثلاثة أساليبَ للقضاء على تأثير الفتوى النافذة:

1 ـ تكذيب خبر صدور الفتوى.

2 ـ خلق شِقاق بين رجال الدِّين.

3 ـ إيجاد مصالحة حُكوميّة ـ حَوزويّة.

---

(1) ابراهيم تيمورى، **أوّلين مقاومت منفى**، طهران، جيبى، 1361هـ، ص 107 ـ 108.

أوّلاً: تكذيب الخبر:

لم يَدُمْ هذا الأسلوب أكثرَ من 20 يوماً. فقد أرادت بريطانيا الحصول على النسخة الأصليّة من الفتوى وتمزيقَها؛ فلا يبقى منها ما يستند إليه العلماء في ثورتهم. وفي منتصف ليلة اليوم الثالث من جمادى الأولى سنةَ 1309هـ، ألقيَ القبض على «ميرزا كاظم ملك التجار»، ونقِل إلى مدينة «قزوين».

وفي اليوم التالي؛ خرج عملاء السلطان وأعوانه إلى الشوارع والأسواق والمقاهي والمجتمعات، وبثّوا شائعةَ أنَّ فتوى «ميرزا الشيرازيّ» مزوَّرة ولا أساسَ لها من الصحّة. وكان مروِّج هذه «الشائعة» هو «ملك التجّار» الذي هدِّدت مَصالحُه بفعل امتناع الشعب عن التدخين. انتشرت هذه الشائعة بين الناس؛ فبادر علماء الدِّين إلى جمع الناس حول دائرة البريد والبرقيّات والهاتف (التابعة للحكومة)، إلّا أنَّ مسؤولي الدولة منعوا إرسال أي رسالة إلى آية الله «ميرزا الشيرازيّ». فكشف هذا كذب ادّعاء أعوان الملك (الشاه) وعملائه. لكنَّ الاستعمار ظلّ مداوماً على بثّ الشائعة التي، أخيراً، قُضِيَ عليها، على مرحلتَينِ:

المرحلة الأولى:

الاعتقاد الراسخ لدى رجال الدين بأنَّ «ميرزا الشيرازي» اتصل بالشاه القاجاريّ وطلب منه إلغاء امتياز التنباك حقناً للدماء. فاجتمعت الحكومة الإيرانية في طهران للبتّ في موضوع «عقود التنباك» مع الشركات الأجنبيّة؛ وقد حضر الاجتماعَ بعض رجال الدِّين المشهورينَ، منهم «الشيخ فضل الله النوري» والحاجّ «ميرزا الآشتياني». فكان في الاجتماع طرحُ أمر حقيقة صدور الفتوى؛ فبادر رجال الدِّين إلى إعلان نصّ برقيّة آية الله الشيرازيّ التي أرسلها رأساً

إلى «ناصر الدِّين شاه» (التي طلب منه فيها إلغاء الامتياز)، فسدّوا الطريقَ بهذا فوراً أمامَ محاولات التشكيك بصدور الفتوى. وبيَّن العلماءُ بهذا، كذلك، أنّهم على دراية بما يجري خلف الكواليس الشاهنشاهيّة، وأنَّ «ميرزا الشيرازيّ» ثابتٌ على موقفه ولمْ يتراجع. ثمّ عاد «ميرزا الشيرازيّ» ليكتب وثيقةً تثبيتيّة تؤكّد أنّه فعلاً أصدر الفتوى وأنه ماضٍ بموقفه الصادر فيها هذا.

وكان «ميرزا الشيرازيّ» بعث إلى الشاه برقيّة يقول فيها:

«إنَّ التدخّل الأجنبيّ في شؤون البلاد، واختلاط الأجانب بالمسلمينَ، ومنحهم امتيازاً حصريّاً في أمور واستثمار المصرف الوطنيّ (البنك المركزيّ)، وتسليم أمور السكك الحديدية والقطارات كافّة، وغيرهما من الامتيازات؛ ينافي نصّ آيات القرآن المجيد والنواميس الإلٰهيّة، ويُعتبر إهانةً لاستقلال الوطن والدولة ويُخلّ بالنظام والدستور الوطنيّ ويُثير اضطراب المواطنين وقلقهم وبلبلة أفكارهم. وكذلك واقعة شيراز وقتل جماعة من المسلمينَ وهتك حرمة»حضرة أحمد بن الإمام موسى الكاظم (ع) المبارَكة، وإبعاد سماحة الحاج سيّد على أكبر شريعتمدار بشكل مُزْرٍ، وكلّ هذا نتائج هذه الأمور»[1].

وأمّا الوثيقة التي كتبها «ميرزا الشيرازيّ» تأكيداً لإصداره الفتوى، فكان فيها:

«استفسرتم عن الفتوى التي أصدرتها حول تحريم التدخين. نعم أصدرتُ هذه الفتوى ولا يزال التدخينُ حراماً إن لم يثبُت قطع يد الأجانب (الإفرنج) بشكلٍ تامٍّ عن تجارة هذه السلعة تصديراً

(1) رسالة «تاريخ دخانيه»، مصدر سابق.

واستيراداً. وإذا لم أصدِرْ فتوًى أخرى تنسخ الفتوى السابقة فسيبقى التحريم مستمرّاً والامتناع عن التدخين ساري المفعول.

(محمّد حسن الحسينيّ).

وقد أجاب الشيرازيّ عن رسائل مماثلة أتته من علماء مدينة «يزد» و«كرمنشاه» و«سبزوار»، بالأسلوب عينِه[1].

المرحلة الثانية:

ذكر المؤرّخون أنَّ رسالة «ميرزا الشيرازيّ» إلى الشاه أغضبتِ الشاهَ، فبعثَ بـ«محمود خان ـ مشير الوزارة» لملاقاة الشيرازيّ لعلّه يغيّر مَوقفَه. لكنَّ «ميرزا الشيرازيّ» أجابَ: «إذا عجزت الحكومة عن حلّ هذه المشكلة، فالشعبُ غير عاجزٍ عن التصدّي لها»[2].

كان الشيخ فضل الله النوري في ذلك الزمان من أنشط علماء طهران، وتربطه بالمحدّث الشيخ حسين النوري صلة قرابة (ابنُ شقيقته وصهره على ابنته). وكان المحدّث الحاجّ حسين النوري كاتباً ومحرِّراً خاصّاً ومِن أقرب مقرَّبي وأنصار «ميرزا الشيرازيّ»، وكان «ميرزا الشيرازيّ» قد أعلن أنَّ مدينة سامرّاء قاعدة الثورة الدينيّة ومعقل العلماء.

وقد قال الإمام الخمينيّ في هذا كلِّه:

«لقد قرأتُ في صحفهم اتّهامَهم آية الله ميرزا الشيرازيّ بالكذب والافتراء، ونزلوا على الشيخ فضل الله النوري سبّاً وشتماً وتكالبوا

---

(1) انظر: الكتب عن تحريم التنباك، كافّة، خاصّةً رسالة «تحريم دخانيه»، مصدر سابق وكتاب: **تاريخ بيدارى ايرانيان** ص 45 ـ 46.

(2) رسالة «تاريخ دخانيه»، مصدر سابق.

عليه ببذاءة وامتهان وتقبيح، ماذا فعل الشيخ فضل الله المظلوم؟ إنَّ جريمتَه التي لا تُغتفَر هي مطالبته بتطبيق الدِّين الإسلاميّ»[1].

ثانياً: خَلقُ الشِّقاق بين علماء الدِّين:

حاول الشاه القاجاري وسراة البلاط المَلَكي إيجادَ وقيعة بين الفقهاء حول موضوع «فتوى تحريم التنباك»؛ بالضغط على علماء طهران (خاصّةً) لاستخراج فتوًى منهم تُحِلُّ التدخين، ولم يفلحوا في ذلك.

وقد توجّه «ميرزا آشتياني» إلى ساسة المملكة قائلاً: «لا إصلاحَ في ما تقومونَ به، يجب أن تقفوا عند حدّكم، يجب أن تلغى الامتيازات التي منِحت للأجانب، كافّة؛ وإذا لم تُلغَ هذه الامتيازات فلا سكوتَ بعد اليوم أبداً».

كذلك، حاولت الشركات صاحبة الامتيازات الممنوحة، أن تُوجِد الشِّقاقَ بين العلماء، بعد أن لاحت بوادر الإفلاس التجاريّ لمَصالحِها. فبعثت إلى كربلاء استفتاءً تريد من آية الله «الشيخ زين العابدين المازندراني» الجوابَ عنه؛ ونصّهُ: «نحن من المقلّدِين لسماحتكم، فما واجبُنا حيال فتوى ميرزا الشيرازيّ؟»...

فكان جوابُ الشيخ المازندراني أنْ «يجب طاعة فتوى ميرزا الشيرازي»؛ قاطعاً أمل هذه الشركات، ومعها آمال الحكومة القاجاريّة، في إحداث فتنة بين علماء الشيعة.

---

(1) الإمام روح الله الخميني، «**پيامها وسخنرانيها**، مطبوعات نور، ص 241.

ثالثاً: محاولة المصالَحة الحُكوميّة ـ الحَوزويّة:

في طهران؛ كان منزل «ميرزا الآشتيانيّ» مِن أعظم مَعاقل المقاومة الشعبيّة ومركزاً مهمّاً من مراكز الثورة. وكانت الحكومة تتأرجح بين خطب وِدّ الثّوار والاستمرار في التهديد والوعيد! مثال ذلك اجتماعٌ بين بعض رجال الدولة وبعض علماء الدِّين (لكن مِن غَيْرِ أُولي الطليعة). فقد طلب علماء الدِّين عدم إدخال النرجيلة إلى قاعة الاجتماع. فقال أحد رجال الدولة: «أليس الشاه فعّالاً لما يريد؟... فليقْذِفْ هؤلاءِ (العلماء) بالمدفعيّة، وأمرُه مُطاعٌ وواجب التنفيذ»؛ فردَّ عليه «نائب السَّلطنة» بهدوءٍ خاصٍّ ولهجة ناعمة: «هذا المجلس مجلس سلام لا مجلس حرب وقتال»[1]. لقد كان رجال الدولة يعتزمون إيجادَ صلح كاذب (خادع) مع رجال الدِّين، لكن رجال الدِّين ثبتوا على مَوقِفهم ولم ينجرّوا إلى الخديعة.

ولقد كان اجتماع بين ممثلين للدولة، وممثلين لعلماء الدِّين؛ طلب فيه رجال الدولة من رجال الدِّين الإنصاتَ إلى حرفيّة نصّ عقد الامتياز الممنوح للأجانب، والإشارة إلى مَوَاضِعِ مُخالَفة الشريعة الإسلاميّة فيه، إن كان ثمّة منها، ثمّ يغيِّرونه (ليصير موافقاً للشريعة). وقد اعترضَ علماءُ الدِّين على الكثير ممّا وردَ في النصِّ، اعتراضاً مُضنياً؛ حتّى إنّهم أشكلوا، لدى أوّل النصّ، على كلمة أجنبيّة تعني «صاحب الامتياز الممنوح»، معتبِرينَ إيّاها كلمةً مخالِفةً لأصول الشريعة وقَواعدِ حقوق الأمّة[2]. ولمّا رأى «أمين السلطان» فظاعةَ مأزق انتقادات العلماء للنصّ، قال: «إنَّ صاحب الجلالة الشاهنشاه

---

(1) محمّد حسن خان (اعتماد الدَّولة)، **چهل سال تاريخ إيران در دوره پادشاهى ناصر الدين شاه.**

(2) ناظم الإسلام كرماني، **تاريخ بيدارى ايرانيان**، ص 49 ـ 50.

يقول إنَّ تبديل هذا العقد (الامتياز) أمرٌ مستحيل لا تتمكّن الدولة من تنفيذه، ففكّروا بحلّ هذا الموضوع بطريقة أخرى»[1]. فردَّ علماء الدِّين بألّا حلَّ لأزمة هذا العقد على أيّ نحو ترتأيه الحكومة (فلا بدَّ من أن يستمرَّ تحريم التنباك إذاً!). وقد قال «السيّد محمّد رضا الطباطبايي» وهو في الاجتماع: «إذا مَنحت الدولةُ هذا الامتيازَ للأجانب فيجب أن يكون بموافقة الشعب، وإذا منح الشاه شخصيّاً هذا الامتيازَ فلا ولن ولم يكُن له أيُّ حقٍّ في ذلك». ولقد كانت مُجرَيات هذا الاجتماعِ بشرى اندلاع الثورة الدستوريّة في العقد التالي.

وبعد أن قدّمت شركة «ريجي» البريطانيّة شكوًى للشاه على استمرار خسائرها الاقتصاديّة بفعل سريان مضمون الفتوى بين الناس؛ بعث الشاهُ إلى «ميرزا الآشتياني» يقول له فيها: «أطلب منك أن تدخِّنَ النارجيلةَ أمام الناس أو تتركَ الأراضي الإيرانيّة» (!) فأجابه «ميرزا الآشتياني» بِحَزم وَحَسم: «أنا لا أخالف فتوى حجّة الإسلام أبداً فسأترك طهران، فأمهِلني هذا اليومَ لتهيئة وساطة نقل، وسأغادر غداً»[2].

القِيَمُ الدينيّة والذريعة السياسيّة

انتشر خبر إبعاد أكبر علماء طهران كالبرق الخاطف في أرجاء العاصمة طهران؛ فهاج وماج الناس كالسَّيلِ العَرِمِ. نعم! لقد تهيّأ الناس للثورة الشاملة، وكان يومُ الإثنين 3 جمادى الثانية 1309هـ أعظم أيّام ثورة التنباك. وقد كتب مؤلّف كتاب «تاريخ دخانيه ـ

---

(1) المصدر نفسه، ص 50.

(2) ابراهيم تيموری، **تحريم تنباكو**، ص 150.

بالفارسيّة» يقول: «في صباح يوم الاثنين، تحرّكَت كراديسُ بشريّة من أنحاء طهران كافّة نحو محلّة «سنكلج» التي يَسكُنُهَا ميرزا الآشتياني...». وكتب الأستاذ حسن إعظام الوزراء في كتابه «خاطرات مَن= مذكَّراتي»: «أوّل مَن حضر إلى منزل «ميرزا الآشتياني» في ذلك اليوم واتّحد معه كان الحاجّ الشيخ فضل الله النوري»[1].

أمّا النساء، حسْب ما ذكر صاحب «رسالة دخانية»، فقد توجَّهنَ بأعداد لا تحصى إلى منزل «ميرزا الآشتياني»، وأجبرنَ الدكاكينَ جميعَها على الإغلاق، ووضعنَ الطين على رُؤوسهنَّ مِن فَوقِ الحجاب وتوجَّهنَ نحو البلاط المَلَكِيّ وسَط الصراخ والبكاء والعويل والصياح؛ والرجال يندبون «وا إسلاماه... وا شريعتاه».

واحتشدوا جميعاً عند قصر الشاه (ميدان أرك)؛ ولم يكن أمر الإضراب العامّ هذا في الحسبان[2]. ولم تتورّع النساء عن شتم الشاه وذمّه... ثمَّ تعالت الأصوات ب: «يا عليُّ... يا حُسَينُ»! وعمّ الخوف والذعر أرجاء الحكومة ورجالات الدولة وسُراة البلاط، وحتّى حريمَ الشاه!

أمام هذا فَقَدَ «معتمَد الدولة» صوابَه، ووجّه كلماتٍ جارحةً إلى المتظاهرينَ. لكنَّ النساءَ المتظاهِرات أبرحنَه ضرباً بالأيدي وركلاً بالأقدام حتّى سقط مغشيّاً عليه. كما حاول البعض ضربَ رأس «نائب السَّلطنة» بالسيف، ففرّ هارباً نحو باب البلاط؛ فاستطاع أحد خُدّامه (اسمه «نائب محمود») صدَّ السيف بِعَصَاهُ، ثمّ أركِبَ «نائب

---

(1) حسن إعظام الوزراء، **خاطرات مَن**، طهران، مطبوعات أبى ريحان، 1343هـ.

(2) رسالة «تاريخ دخانية»، مصدر سابق.

السَّلطنة» فرساً وهرِب به إلى إحدى عمارات البلاط، فدخل البلاطَ مغشيّاً عليه[1].

ومع نهاية ذلك اليوم؛ أمر «معيّن نظام» الحَرَسَ الخاصّ لنائب السَّلطنة (وقد اشتهر الحَرَسُ بخُبثِه وقسْوَته) بإطلاق النار على النساء، والرجال والكبير والصغير، فأردى منهم عدداً كبيراً قتلى وجرحى. وقد أراد المتظاهِرون الموتَ شهداءَ فداءً للعقيدة والوفاء[2].

لقد كان ذلك يومَ القضاء على الاستعمار الاقتصاديّ والسياسيّ. وقد قالت وكالة «رويتر» البريطانيّة: «لقد عرف العالَم أنَّ اتفاقيّة شركة ريجي تحتوي على بنود تنص على تسليم المصادر الصناعية الإيرانية كافّةً (في ظلّ حكومة مَلَكِيَّةٍ) إلى شركة أجنبيّة؛ ولا يحدث مثل هذا الأمر حتّى في عالَم الخيال»[3]. وقال الوزير المفوَّض لدولة فرنسا في طهران «مسيو دوبالو»: «كان ذلك اليومُ يومَ ثَورةٍ عارمة لا يومَ اعتراض عابر»[4].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) نيكى كدى، **تحريم التنباك**، ص 6.

(4) ابراهيم تيمورى، **أولين مقاومت منفى در ايران**، ص 88».

الفصل الخامس

مسيرة الحركة الدستورية (المشروطة)

تُعَدُّ هذه النهضة حركة انتقالية في تاريخ إيرانَ، شملَت الأبعادَ السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والفكريّة والاجتماعيّة للمجتمَع الإيرانيّ. وإنّنا نرغب في أن نتطرّق إلى ما لنهضة الحُكم الدستوريّ فِكريّاً، وسببِ الانشقاق بين قادة هذه النهضة.

تجلّت هذه النهضة في جمادى الثانية سنةَ 1324هـ؛ وفوراً طُرِح موضوع النظام السياسيّ وتأسيس مجلس الشورى الوطنيّ. فكان هذا سببا لظهور التوجّهات غير الدينيّة، لبعض الذين اشتركوا في النهضة، ما خلق الانشقاقَ في صفوفها.

الحوادث الاعتقاديّة والسياسيّة وتدوين الدستور

دوِّن الدستورُ في 14 ذي القعدة 1324هـ، في 51 مادّة؛ وصادق عليه مجلس الشورى الوطنيّ، ووقّعه مظفر الدِّين شاه إيران (وكان يُطلَق عليه: «القانون الأساسيّ»). وحوى الدستورُ موادَّ تشمل واجباتِ مجلس الشورى والأعمالَ المُنوطة به، وحدودَها، وعلاقاتِه

بالدوائر والمؤسّسات الحكوميّة. أمّا القوانين، كانتخاب مسؤولي الدَّولة والأعمال التي تحتاج إلى قوانين مدوَّنة ومصدَّقة مِن مجلس الشورى فظلَّت عالقةً، ما أوجَب تدوينَ متمِّم للدستور.

ظهرت آراء كثيرة لدى استئناف تدوين الدستور. فبعض المتأثِّرينَ بالغَرْبِ أرادوا ترجمة قوانين الغرْب حرفيّاً والعمل بمُوجِبِها بدون اعتراض! وتشكّلت اللجنة المكلَّفة بتدوين «متمم الدستور» من جناح واحد ومَذهَب سياسيٍّ موحَّد؛ أعضاؤُه هم:

- سعد الدولة (ميرزا جواد خان).
- حسن تقي زاده.
- مشاور الملك.
- الحاجّ أمين الضرب.
- الحاجّ السيّد نصرالله تقوي.
- مستشار الدولة.

أغلب هؤلاء من جمعية «باغ سليمان خان ميكده» (المواليَن للدوَل والسياسات الغربيّة)؛ لذا فهُم عصبة واحدة متكاتِفة علمانيّة (تقريباً) أضاعوا وهجَ نهضة الحُكم الدستوريّ. وبعد شهرَينِ من العمل في استئناف تدوين موادّ الدستور؛ قدَّموا «نصًّا» مقتبَساً من «دستور فرنسا» و«دستور بلجيكا».

وفي هذا السياق؛ كتب «مخبر السَّلطنة» مهدي قلي هدايت في كتابه «خاطرات وخطرات»[1]: «إنَّ الفرنسيين أنفسهم لم يلتزموا بدستورهم أبداً، وأزالوا مجلسهم النيابيّ السابق من أساسه، وسيطر

(1) طبع في طهران سنةَ 1330هـ، في 648 صفحةً.

الأوباش على الأمور كافّة، وعاثوا الفسادَ في الأرض. ونحن اتَّخذنا هذا المسلك أساساً لدستورنا!! بل كان الأجدر أن نجعل الدستور البريطانيّ أساساً نقتدي به؛ لأنه الْتَزَمَ بالأصول القديمة؛ على الرغم من أنَّ دستورنا يجب أن يُبنى على عقائدنا، لكنَّ المتطرِّفينَ أبعدونا عن الغاية المنشودة».

وكان قد أسِّس، منذ البدءِ، مجلس طوارئ يضمّ عدداً من علماء الدِّين، على رأسهم آية الله «الشيخ فضل الله النوري» الذي أرسل إلى وَلَدِهِ ضياء الدين (المُقيم في النجف) في 24 ربيع الأوّل رسالة يشكو فيها أمرَه: «أنا ذاهبٌ لإصلاح ما أفسدوه، أنا منهمِكٌ منهوكُ القِوى، أرجو من الله تعالى ألّا يصل الهدّامون إلى ما يبغونَه». وكتب الشيخ النوري حول المجلس الطوارئ: «مماشاةً مع الأمر الواقع، وبمعاضدة ومشاورة مجموعة من علماء الدين تمكّنّا، بحسْبِ ما تيسَّر لنا، من أن نقرِّبَ النصَّ من أحكام الشريعة ولو بمقدار بسيط».

أمّا النهضة عينُها؛ فقد بدأت مستندةً إلى موضوع تأسيس محاكم قانونية لنشر العدل والقسط والإنصاف (فقيل إنها «نهضة المحاكم القانونيّة»). ولدى بلوغها ذروتَها؛ ظهرت مَطالبُ جديدة تدعو إلى إيجاد مجلس شورى، والحدّ من السلطات الممنوحة للشاه والبلاط المَلَكِيّ.

وبعد انتصار النهضة، ونتيجةً للغلوّ في «التجدّد» ومحاكاة الغربيّين (من قِبل علمانيّي إيرانَ)؛ بدأ بعض قادة النهضة المتفرنِجينَ (ومعهم عملاء) بإهانة المقدَّسات الدينيّة وانتهاك الحرمات المذهبيّة والشعائر. وتمادَوا حتّى أهانوا علماء الدِّين وكبار المجتهِدينَ؛ لإبقاء الحُكم الشاهنشاهيّ (توطيد حُكم محمّد علي شاه).

وفي سنة 1327هـ، احتلَّ الثوريون طهران وأحكموا القبضةَ

عليها. ثمّ استغلَّ الاستعمار ذلك لإعدام الشيخ النوري!... وسيطر العلمانيون على شؤون البلاد، ثمّ أبعدوا وهمّشوا المؤمنين والأحرار وكلّ الذين عادَوا المستعمِرينَ؛ وجعلوا لنهضة الحكم الدستوريّ صبغةَ العلمَنة والاستبداد البهلويّ.

لقد جرّدوا إيرانَ من هويّتها وشخصيّتها الوطنيّة تحت شعار التجديد والعصرنة والعلمانيّة والأفضليّة القوميّة؛ ووجَّهوا البلاد والعباد نحو الغرْب وسياسته الاستعماريّة.

أهمّ أسباب هيمنة تلك الحالة:

أ ـ إضعاف القيادة الدينيّة:

قامت النهضة أساساً على جهد رجال الدِّين (من النجف الأشرف وإيرانَ)، الذين ساهموا بفتاويهم في استمرار تصاعد الحركة الشعبيّة حتّى إتمام النهضة. فحاول الانتهازيّون إبعاد هؤلاء القادة الحقيقيّينَ، والاستيلاء على منجزاتهم.

ب ـ اختراق الانتهازيّين صفوف ثوّار النهضة:

استغلّ الانتهازيّون نجاح جهود علماء الدين في إتمام النهضة؛ فانتحلوا «صفة الثّورة» لنَيل المراكز والمقامات والرتب العالية والسيطرة على شؤون الدولة والوزارات فيها. كما اتَّهموا زوراً بعضَ رجالات الزهد والتقوى بإقامة العلاقات مع السفارات الأجنبيّة وعملاء الاستعمار؛ من خلال بثّ الشائعات. وأثاروا الفوضى والاضطرابات في البلاد لنَيل مآربهم.

ج ـ الدور الهدّام للجمعيّات السرية وزبانية السفارات الأجنبيّة:

عندما تصدّرت الأحزاب والجمعيّات والتنظيمات مسؤوليّات النهضّة، بعد الجماهير الشعبيّة، حوّل الانتهازيّون مسيرة النهضة نحو

الوجهة غير الوطنيّة (مثال ذلك الاختلافاتُ التي حصلت بين حزب الاعتدال والحزب الديمقراطيّ). كذلك؛ فعلت منتديات الماسونية والجمعيات الهدّامة وعملاء السفارات الأجنبيّة، فِعلاً يقوّض نجاح النهضة على النحو الذي رمى إليه علماء الدين والمواطنين المؤمنين الأحرار.

ومن جهة أخرى؛ كانت بساطة بعض قادة النهضة، وقلّة تجربتهم في السياسة؛ سبباً في إصدار لوائح وقوانين ومسيرة ثقافيّة وإعلامية لا تتّفق مع النهضة الرامية إلى صحوة إسلاميّة كبرى تؤدّي إلى مجتمع دينيّ توحيديّ[1].

د - ضآلة الفكرة الدينيّة في الدستور:

مع أنه دوِّن في الدستور موادّ وفصول وقوانين تصرّ على المشاركة الجماهيرية في إدارة شؤون البلاد وازدهار الحياة الاجتماعيّة؛ كان شكل الضمان الدينيّ لتنفيذ هذه القواعد باهتاً خافتاً، ولم يجعلوا للدين ديناميّة تحرّك المجتمَع. وقد أجبر الشيخ فضل الله النوري المعنيّين على اعتماد مادّة تنصّ على تعيين خمسة من كبار العلماء المجتهدِينَ واجبهم الإشراف على إصدار القوانين (وهو ما لم يُنفَّذ عمليّاً).

---

(1) لآية الله العظمى الإمام الخمينيّ في هذا الأمر تحليل يستحقّ العناية؛ إذ قال: «بدأت ثورة الحكم الدستوري على يد علماء النجف وإيرانَ، وساندهم الناس، وأطاحوا بحكم الاستبداد. لكنّهم لم يتمكّنوا من أن يجعلوا الحكم الدستوريّ كما يجب أن يكون؛ وظلّ الحال كما كان عليه». 30 - 4 - 1358هـ. ش.
«عندما أرسوا الحكم الدستوري، خدع الشياطينُ علماء الدين والمؤمنين، وقبلوا بمكمّل الدستور. فعند التطبيق لم يعملوا بالنصّ المصادَق عليه، ولم يسمحوا للمجتهدين الخمسة بالإشراف على إصدار القوانين أو حضور جلسات المجلس...». 18 - 8 - 1357هـ.

هـ - التباين بين الرؤى الدينيّة واللادينية

انقسم رجال نهضة الحكم الدستوري إلى فئتَينِ؛ الأولى ترى الإسلام والأحكام الدينيّة خلاصَ البلاد من الاستعمار، والثانية سياسةَ الغرْب اللادينية الطابع طريقاً للحلّ. وبعد إنجاز الدستور كاملاً، انتشرت آراء أتباع العقيدتَينِ السياسيّتَينِ الجديدتَينِ في وسائل الإعلام كافّة، فانقسمت الجماهير إلى أحزاب وتنظيمات وجمعيّات، كلٌّ منها يشرح علل النهضة حسْب اعتقادها ورؤيتها. وامتدّ الخلاف كذلك إلى موضوع الأحكام الشرعيّة (تنفيذ القصاص، والدّيات، والقوانين الحقوقيّة)، وشمل الأمور الوطنية المهمّة والأزمات السياسيّة (مثل الإنذار الروسيّ والاعتصام في السفارات الأجنبيّة...).

لكنَّ الجماهير ظلّت متمسّكة بالنهج العقيديّ الدينيّ، بفعل عوامل كثيرة؛ أهمّها:

أوّلاً: الدولة الإيرانيّة إسلاميّة شيعيّة المذهب؛ فإذا طُرحت القضايا الوطنيّة بمعزل عن المظلّة الدينيّة، خَفَتَ الإقبال الجماهيريّ عليها، وقلّت الحماسة الوطنيّة لها.

ثانياً: كانت خطابات العلمانيّين (المتفرنجِينَ) ومقالاتهم غير مألوفة وغريبة عن العادات الشعبية المأثورة؛ فلم تعتبَر ناطقةً باسم الجماهير، أو ممثِّلةً لطموحاتهم، أو مجسِّدةً لسلوك الأمّة.

ثالثاً: حمل طيش الانتهازيّين وعدم انسجامهم، وسمعتهم الرديئة، أتباعَهُم على عدم الاعتناء والتحمّس للنهضة ومبادئها (المطروحة علمانيّاً).

العوامل الدينيّة للنهضة:

لأنَّ علماء الدين كانوا أوّل من رفع راية نهضة الحكم الدستوريّ، وشعار «تأسيس المحاكم القانونيّة»، والنضال في وجه الاستعمار؛ نراهم، بعد صدور أمر الحكم الدستوريّ وتأسيس المجلس النيابيّ، قد جلبوا الجدال والبحث الحقوقيّ والفكريّ والسياسيّ إلى الحوزات المحليّة، ما جعل كبار العلماء يَتَرَوَّوْنَ في مقاصد ومفاهيم الأمور. فظهرت اجتهادات مختلِفة، على مستويات كافّة؛ منها:

- امتنع بعض العلماء عن الاشتراك مع دعاة النهضة منذ البداية.
- أبى البعض الآخر مسايرةَ النهضة؛ لا سيّما بعد تدخّل الحكومة البريطانيّة في هذا الأمر.
- اختلَف قِسمٌ من العلماء، منذ البداية، مع دعاة القومية.
- ظلّ بعض العلماء على الحِياد، ولزموا الصمتَ؛ فيما تابع علماءُ آخرونَ النهضة ودعَوا الجماهير الوطنيّة إلى اتّخاذ موقف سياسيّ وعقيديٍّ ممّا يحدث.

وقد انقسم هؤلاء العلماء كذلك إلى قسمَين

1 ـ علماء يطالبون بالحكم الشرعيّ الدستوريّ؛ ويترأسهم الشيخ فضل الله النوري، الذي كان يكافح الاستبداد ويطالب بسيادة القانون ووجوب تأسيس المحاكم القانونيّة. كما طالب بإجراء الإصلاحات الدينيّة وفق الشريعة الإسلاميّة، كي تبقى مسيرة النهضة مسيرة إسلاميّة؛ لأنَّ أمرَ «الحرّية والحكم الدستوريّ» وليدُ هذه الفترة ولم يكن له حاضراً مِن قبلُ. وإنَّ تعبير: «المشروطة المشروعة» يحسم التفاسير والتأويلات غير الإسلاميّة التي يحاولون فرضها على الحكم الدستوريّ.

2 ـ علماء يطالبون بالحكم الدستوري؛ وهؤلاء يتمتّعون بشعبيّة واسعة، ويدافعون عن هذه النظريّة بقوّة، وغاية في التفاؤل في تحقيق الأهداف الدينيّة. وفي المرحلة الثانية من نهضة المشروطة، لفتوا إلى خطر النفوذ الأجنبيّ على منجزات هذه النهضة وعلى أهدافها المتوخّاة. ومِن أشهر هؤلاء العلماء:

- آية الله آخوند ملّا محمّد كاظم الخراساني؛ كان زعيم النهضة سياسيّاً ودينيّاً، وكان في النجف الأشرف.
- آية الله الشيخ عبد الله المازندراني، والميرزا حسين الطهراني.
- آية الله الميرزا محمّد حسين النائينيّ (المعروف بـ«العلّامة النائينيّ»)؛ صاحب كتاب «تنبيه الأمّة وتنزيه المِلّة» الذي بحث فيه مفاهيم الحكم الدستوريّ والحرّية وعلاقتهما بأسُس الأحكام الشرعيّة. لهذا أطلِق عليه لقب «صاحب نظريّة النجف الأشرف» في نهضة المشروطة.
- آية الله الحاجّ آغا نور الله الأصفهاني؛ زعيم ثوّار النهضة في منطقتَي «أصفهان» و«بختيار».
- آية الله السيّد عبد الحسين اللاري؛ في مقاطعتَي «فارِس» و«لُرستان».
- آية الله السيّد عبد الله البهبهاني؛ في العاصمة طهران ونواحيها.
- السيد محمّد الطباطبائيّ؛ في طهران كذلك. وكانت آراؤه تشابه آراء العلماء السالفي الذِّكر.
- آية الله السيّد حسن المدرس؛ كان صاحب راية الجهاد ضدّ الاستعمار في الفترة الثانية للنهضة. كما كافح سياسات حكومة رضا خان البهلويّ، وكان همزة وصل أثّرت تأثيراً عميقاً في

العلاقة بين أفكار علماء النجف وبين حوادث ما حصل في ما بعد.

كان علماء النجف يؤكّدون ضرورةَ أن يكون الحكم الدستوريّ مبنيّاً على أُسُس مصدرها الشريعة الإسلاميّة؛ يتجلّى هذا في منشور أصدروه، يقول: «لا قصد لنا سوى تحكيم قواعد الدِّين الإسلاميّ وحفظ وحدة المسلمينَ... لذا يجب تأسيس مجلس نيابيّ يسعى لرفع الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر والدفاع عن الأمّة وحفظ الشريعة...».

وقد أكّد الشيخ فضل الله النوري أنَّ الاختلاف في الرأي بين علماء الدين لا يشكّل خطراً ولا يُحدث تفرقة. وكان يقول: «أيّها الناس؛ أيُّ عالِم يقولُ: إنَّ تأسيس مجلس نيابيّ يطالب برفع الظلم والقضاء على الاستبداد ويأمر بما أمر الله به، عملٌ باطل ويجب ألّا يؤسَّسَ؟!!».

الفصل السادس

نهضة الحركة الدستوريّة (المشروطة)

الجذور التاريخيّة

يجب دراسة عصر ما قبل هذه النهضة وتحليل تطوّراته التي حدثت في إيرانَ؛ بُغيةَ استيعاب طبيعتها وحقيقتِها. وأهمّ هذه التطوُّرات:

أ - نهضة تحريم التنباك (انتصار الإرادة الشعبيّة): قاد علماء الدين جماهيرَ الشعبِ للانتصار على قِوى الاستعمار؛ ما هيّأ الأجواء لنهضات أكبر وانتفاضات أعظمَ.

ب - التصدّي للامتيازات الممنوحة للاستعمار، والمعاهداتِ والعقود المفروضة: شعور بعض رجال الحُكم بالنقص أمام المدنيّة الغربيّة والازدهار الأوروبيّ، دعا إلى نشر الثقافة الغربيّة، ظنّاً أنَّ هذا سيأتي بالازدهار إلى الوطن! لكنَّ الامتيازات التي منِحت للدول الغربية والمعاهدات التي أبرِمت معها لم تؤدِّ إلى أيّ تقدّم اجتماعيّ واقتصاديّ. بل

أصبح وبالاً على الشعب[1] الذي وعى أهميّة مقاومة هذا الواقع.

ت ـ أحدث تشييد معاهد التعليم ودُور الطباعة صحوةً مؤثّرة في المجتمَع الإيرانيّ. فقد ساعد نشر المطبوعات، بأشكالها الإعلاميّة كافّةً، على تعزيز وعي الجماهير، بُغيةَ إحداث نهضة تنقذ البلاد.

ث ـ التخلّف الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ: التميز الطَبَقِيّ وجباية الضرائب الباهظة الثمن والاضطهاد وإهمال شكاوى الناس والفقر والجوع والمرض وغطرسة الحكّام؛ عواملُ غرست روح الثورة في نفوس الجماهير. كما أنَّ أخبار تقهقر القوات الروسية أمام الهجوم الكاسح للقوات اليابانية؛ شجّعت الإيرانيّينَ على اتّخاذ قرار تغيير النظام الحاكم.

بداية النهضة

لقد كان لثورة عاشوراء المجيدة واستشهاد الإمام الحسين (ع)

---

(1) رسالة «شمس وأرض تلك الأيّام» تقول:... كانت إيرانُ قبل العهد القاجاريّ تتمتّع بما تتمتّع به الدول الأخرى. وإن أصاب هذا الوطنَ بعضُ التأخّر في فتراتٍ من تاريخه، نتيجةَ سقوط سلالة وقيام أخرى، أو مشاكل زرعها الأعداء في طريق الوطن؛ فإنَّ همّة الرجال البواسل تزيل العقبات كافّة، وتعيد المجدَ للأمّة. وكان عظماء المناضلين يردّدون:

الموت بين نسائي وأحبابي جميعِهم

خير من العيش بين تهكّم الأعداء

وكانوا يسلّمون بقدر الله، ويرجون الآخرة عوضَ الدنيا، ولا يركعون للسلطان الأجنبيّ، ولا يفضّلون غير الوطن على الوطن. كانت ثروَتُهم خزائنَ عقولهم وتدبيرهم، وجيوشهم غيرتهم، وأسلحتهم العزم والشجاعة. ولأنهم كانوا هكذا؛ حصل ما نحن فيه من الاستقلال والسيادة والسموّ والازدهار.

وأصحابه الخلّص دور فاعل في التحوّلات الاجتماعيّة في إيران؛ خصوصاً في العهد المعاصر. وقد قامت ثورة النظام الدستوري في أيّام عاشوراء (محرَّم الحرام، سنةَ 1323هـ).

قاد ثورة المشروطة عدد من علماء طهران، على رأسهم آية الله السيّد محمّد طباطبائي والسيد عبد الله البهبهاني. وقد وقعت حوادث أخرى أدّت إلى إصدار مرسوم «النظام الدستوريّ» في إيران. أمّا هذه الحوادث فهي:

1 ـ **خدش المشاعر الدينيّة**: استهان حاكم العهد القاجاريّ بقدرات الشعب الإيرانيّ، في مسألة المعضلات الاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة؛ فاستعان بالخبراء الأجانب بدل وسلّمهم زمام أمور البلاد!

فمنحت الحكومة الإيرانية 300 خبير بلجيكي حقّ التصرّف في أمور الجمارك. وعيِّن «مسيو نوز بلجيكى» مديراً عامّاً لمديرية الجمارك الإيرانية، وبعد سنة صار وزير جمارك إيران. أغضبت سياساتُه الشعب وعلماءَ الدين، وعامل المسلمين بطريقة سيّئة. حتّى إنّه تهكّم بالاعتقادات الدينيّة للمسلمينَ.

كان هذا الرجل يضع العمامة على راسه ويقصد نوادي اللهو ليجلسَ بين الراقصات. وتمّ نشر صورته على هذا الحال؛ ما أثار موجة غضب عارمة في أنحاء طهران كافّة تحوّلَت إلى مظاهرات ضدّ الحكومة. وكانت هذه الحادثة الشرارة الأولى للنهضة العظيمة ـ «نهضة النظام الدستوريّ».

2 ـ **هدم مصرف التسليف الروسيّ**: كان في سوق أمير (من كبرى أسواق طهران آنذاك) مقبرة قديمة متروكة ومدرسة قربها

متداعية الجدران. ولإقامة منشأة مفيدة مكانَهما، وافق علماء طهران على بيعهما.

وكان الروس في تلك الأيام يبحثون عن أرض يشترونها يقيمون فيها مصرف التسليف؛ فاشتروا الأرض التي تخلّى عنها علماء طهران، وبدأوا عمليّات البناء فيها. وأثناء الحفر، وجد العمّال جثّة حديثةَ الدفنِ فرمَوها في بئر قريبة!

ردَّ المسلمونَ الغاضبون على هذا الفعل المُسيء، بالهجوم على مبنى المصرف الروسيّ وتهديمه. وقد اعتبر هذا العمل الخطوة الثانية لنهضة المشروطة.

3 ـ **شهر رمضان والنهضة**: حلّ الشهر المبارَك سنةَ 1323هـ مسبوقاً بحوادث كثيرة؛ منها الاعتداء على المجتهِد الكرمانيّ بالهروات، وإلقاء القبض على شعاع الدولة في فارس (شيراز)، وحالة الاستبداد التي أحدثها آصف الدولة في خراسان، وظلّ السلطان في أصفهان.

وفي أواخر الشهر الكريم؛ ارتفع ثمن السكر في طهران نتيجة الحرب اليابانية ـ الروسية[1]. وأصدر حاكم طهران المستبدّ، «علاء الدولة»، عقوباتٍ تنكيليّة بسبعةَ عشرَ تاجراً بدون مراعاة سبب ارتفاع الأسعار! ومن ضمن هؤلاء كان الحاجّ هاشم، وهو من التجار الكبار مالاً وعمراً ومكانةً؛ فسار إضراب عامّ في سوق طهران، وتوجّه المتظاهرون إلى «مسجد شاه» حيث أصدروا بياناً أدانوا فيه أعمال حكومة «القاجار».

4 ـ **واقعة مسجد شاه، والهجرة الصغرى ونهضة «دار العدل»**: ردَّ رجال الحكومة على إضراب التجّار بإرسال الشرطة والدرك

---

(1) كانت إيران في تلك الفترة تستورد السكر من روسيا (المؤلِّف).

لتفريق المتظاهرين؛ فوقعت الاشتباكات مع المتظاهرينَ، وسالت الدماء على أرض المسجد، وباتت طهران على نار بركان هائج! وفي الصباح التالي؛ قرّر علماء طهران الهجرة من المدينة اعتراضاً على السياسة الجائرة للقاجاريّين، وتوجّهوا إلى ضريح السيّد عبد العظيم (ع) في مدينة «الري».

ولم يكن وقع هجرة العلماء بسيطاً؛ ذلك لأهمّيّة دورهم في الحياة اليوميّة للمؤمنين، على صعيد الأحوال الشخصيّة وأمور البلاد العامّة. فباتت مع هجرتهم العاصمةُ كأنها خالية من الناس.

وازدادت الهجرة حتّى باتت أمراً حمل الحكومة على الدخول في حوار مع علماء الدِّين الذينَ حدّدوا مُرادَهُم في ثماني نقاط أرسِلَت إلى «مظفر الدِّين شاه»، وأوضحوا ضرورة الموافقة على جميع النقاط شرطاً لعودتهم إلى طهران (وعُرفت هذه الحركة بـ«نهضة دار العدل»).

أهمّ مَطالب «نهضة دار العدل»

1 ـ تأسيس «بيت العدل» في أنحاء إيرانَ كافّة، للحدّ من ظلم الحكّام.

2 ـ تنفيذ قوانين الإسلام على الإيرانيّين كافّة؛ ولا امتياز لأحد على آخر.

3 ـ عزل «مسيو نوز» (المستهزئ بالعلماء والمؤمنين).

4 ـ عزل «علاء الدولة» حاكم طهران.

أمر الشاه «عَينَ الدولة» بتنفيذ جميع مطالب العلماء المهاجرينَ. فعاد العلماء منتصرينَ، واحتفل الشعب بهم وعمّت البهجة والسرور؛ وسَط توزيع الحَلوى والمرطّبات تحت الأضواء الملوَّنة.

الهجرة الكبرى ومنشور الحقوق الدستوريّة

في يوم الإثنين 23 جمادى الأولى 1324هـ غادر العاصمة طهران كبار علماء الدين يصحبهم نحوٌ من 3 آلاف نسمة من المؤمنين. ساهم هذا في النجاح الذي حصل في ما بعدُ؛ لكنَّ بعضَ المغرضينَ حرّض من بقي في طهران على اللّجوء إلى السفارة البريطانية التي أرادوها أن تحلَّ محلَّ علماء الدِّين، في تسيير أمور الناس وتوجيههم.

وامتدّت الثورة من طهران إلى «تبريز» وَ«رشت» و«أصفهان» و«شيراز» و«كرمانشاه» و«زنجان»؛ أمّا العلماء المهاجرون فقد حطّوا الرحال في مدينة «قُم» المقدَّسة.

دعم علماء النجف الأشرف لنهضة الجماهير الإيرانية

أراد علماء «الهجرة الكبرى» من علماء النجف الأشرف دعم حركة الثورة. فساند علماء النجف المواطنينَ الإيرانيّين برسائلَ تدعو إلى مقاومة الاستكبار حتّى نَيل الحقوق. فأصبحت النجف الأشرف قبلةَ آمال المؤمنينَ في دعم مسيرة الحركة الدستورية (المشهورة بنهضة المشروطة) بزعامة آية الله «آخوند خراساني».

وأمام الضغط العلمائيّ والجماهيريّ؛ استقال رئيس الوزراء «عَين الدولة»، في 7 جمادى الثانية 1324هـ، فكلّف الشاهُ «مشيرَ الدولةَ ميرزا نصر الله خان بتشكيل حكومة جديدة. ثمّ استسلم الشاهُ لجميع المطالب الشعبية.

كان شعار النهضة منذ البدء «تأسيس دار العدل»، لتحكُم بشَرعِ الإسلام. واللاجئون في السفارة البريطانية طلبوا من الشاه:

- عودة العلماء.
- إقالة الأمير عين الدولة.
- فتح مجلس الشورى.
- محاكمة قتلة شهداء الوطن.
- إعادة المحكومينَ بالإقامة الجبرية إلى مُدُنِهِم.

فكان «فرمان» الشاه في 14 جمادى الثانية 1324هـ، وعُرف بفرمان «مشروطيت ايران= الحقوق الدستورية»[1]. وعمّت الأفراح وخرج الناس لاستقبال علماء الدين من «قُم» (بعد عودتِهِم ظافرينَ) إلى طهران.

---

(1) وجاء في هذا الفرمان ـ مترجَماً إلى العربية:
«معالي رئيس الوزراء؛
... من أجل سعادة الشعب الإيراني وأمنه، وتثبيت أساس الدولة، والإصلاحات الواجبة في دوائر الحكومة ارتأينا أن:
يؤسّسَ مجلس شورى وطني، ينتخَب أعضاؤه من الأمراء والعلماء والقاجارية والأعيان والأشراف والملّاكين والتجار وأصحاب الصناعات وحسْب أكثريّة الآراء ومقرّه دار الخلافة (في طهران)؛ يدرس ويبحث في إصدار القوانين حسب مَصالح عامّة الناس، والتدقيق في أمور الحكومة كافّة، فيكونُ عوناً لمجلس الوزراء في الإصلاح لخدمة وسعادة الشعب الإيرانيّ.
وأعضاء مجلس الشورى يعرضون اقتراحاتهم على الشاه من خلال رئيس الوزراء. وسيُصدر مجلس الشورى القوانين وفق الشرع المقدّس، بإذن الله تعالى».
إلّا أنَّ الشعب لم يرتضِ هذا الفرمان؛ فاضطرّ الشاه إلى إصدار مكمِّل له؛ جاء فيه:
«... تنظَّم شروط وأصول وفصول دستور مجلس الشورى الإسلاميّ وفق ما يقرّره المنتخبون وكما هو جدير بالوطن وأصول الدِّين الإسلاميّ والشرع القويم كي يقدَّم إمضاء الشاه، ثمّ يدخل حيِّزَ التنفيذ».

تأسيس أوّل مجلس نيابيّ وطنيّ

في 27 جمادى الثانية 1324؛ افتُتح مجلس الشورى الإسلاميّ، وحضرَه علماء الدِّين وأمراء البلاط وأفراد العائلة المالكة وعدد غفير من الناس. كان الشاه مريضاً، فأناب عنه «عضُد الملك». ومن أجل تدوين مرسوم الانتخابات؛ عيَّن رئيس الوزراء ميرزا نصرالله خان (مشير الدولة) خمسةَ أشخاص، هُم:

1 ـ صنيع الدولة.

2 ـ محتشم السلطنة.

3 ـ مخبر السلطنة (مهدي قُلي خان).

4 ـ ميرزا حسن خان مشير الدولة (نجل ميرزا نصر الله).

5 ـ ميرزا حسين خان مؤتمَن الملك (نجل ميرزا نصر الله).

وكتب مخبر السلطنة، مهدي قُلي خان بن علي قُلي خان، في مذكَّراته: «اجتمعنا في مدينة «رستم آباد» (شمال طهرانَ) لتدوين مرسوم الانتخابات؛ واتفقنا على أن تكون وفق طبقات المجتمَع. قرّرنا:

- 60 نائباً عن مدينة طهران.
- 60 نائباً عن مدن المملكة ويكون نوّاب طهران على النحو الآتي:

أ ـ 30 نائباً من الجمعيات والنقابات.

ب ـ 10 نوّاب من التجار.

ت ـ 20 نائباً من أعيان العاصمة.

وإنَّ الـ 60 نائباً عن طهران كَافُونَ لافتتاح المجلس»[1].

(1) طبقاً للمادة السادسة من قانون الانتخاب يكون عدد النواب المنتخَبين عن مملكة إيرانَ على النحو الآتي:

وفي 19 رجب 1324هـ وقّع الشاه على هذا النظام، وفي 23 رجب أجريت الانتخابات في طهران. وفي عصر يوم الأحد 18 شعبان افتُتح المجلس في عمارة «گلستان»؛ وكان تدوين «دستور البلاد» أوّل موضوع طُرح فيه. وهذا الموضوع استَحدث مسائل كثيرة غيّرت مسيرة نهضة المشروطة.

من تدوين الدستور إلى سقوط المشروطة

في 23 رمضان 1324هـ؛ عارض نوّاب المجلس قسماً من لائحة قدِّمت إلى المجلس النيابيّ، موضوعُها «اقتراض مبلغ 10 ملايين تومان (= 400 ألف ليرة)»، من روسيا وبريطانيا. وكان هذا الاعتراض أوّل خطوة إيجابيّة على طريق تأسيس «المصرف الوطنيّ» الإيرانيّ.

وفي 24 ذي القعدة 1324هـ؛ أصبح «محمّد علي ميرزا» شاه الحكم الدستوريّ، بعد وفاة «مظفر الدين شاه». وفي 4 ذي الحجّة 1324هـ؛ توّج «محمّد علي» شاهاً لإيرانَ.

= 4 نوّاب من أمراء العائلة المالكة؛ و4 نوّاب من قبائل القاجارية؛ و10 نوّاب من التجّار؛ و32 نائباً من الجمعيات والاتّحادات والنقابات (من كلّ تجمّع منهم نائب واحد).

أمّا بقيّة المدن والمحافظات الإيرانية فعلى النحو الآتي:

12 نائباً عن آذربيجان؛ نائبان فقط عن خراسان وسيستان وتربت حيدرية وتبريز وقوجان وبجنورد وشاهرود وبسطام؛ 6 نوّاب عن جيلان وطالش؛ 6 نوّاب عن مازندران وتنكابن واسترآباد وفيروزكوه؛ 6 نوّاب عن قم وقزوين وسمنان ودامغان؛ 6 نوّاب عن كرمان وبلوجستان؛ 12 نائباً عن فارس والبنادر؛ 6 نوّاب عن كرمانشاه وكروس؛ 12 نائباً عن كردستان وهمدان؛ 12 نائباً عن أصفهان ويزد وكاشان وقم وساوه؛ 6 نوّاب عن آراك وملاير وتويسركان ونهاوند وكمره وگلبايگان وخوانسار.

أمست نغمة تدوين الدستور مسيطرة على محيط المجلس النيابي، فانقسم النوّاب إلى زُمَرٍ ينادي كلٌّ منها بآرائه وتوجّهاته؛ وهذا انعكس على الشارع الإيرانيّ. وظلّ زعماء الحركة الدستورية، الشيخ فضل الله النوري والسيد محمد الطباطبائي والسيد عبد الله البهبهاني، يراقبون الأمور عن كثب، بدون أيّ تدخّل.

وقد اعترض عدد من زعماء النهضة على تعيين أمين السلطان رئيساً للحكومة. ولم يكن للمصطلحَين: «الدستور» و«الحركة الدستوريّة»، تعريفٌ معيَّن موحَّد؛ وكان ثمّة أنصار ومخالفون لكِلَيهما[1].

أوجد هذا الوضع هوّة كبيرة في المجتمَع الإيرانيّ؛ ليعود النوّاب ويستندوا في تدون الدستور إلى قوانين بلجيكا وفرنسا وبريطانيا. عارض علماء الدين الأمرَ هذا، على رأسهم الشيخ فضل الله النوري؛ ومعهم زعماء النهضة. وساهمت الجرائد في تأجيج الخلاف وإثارة الفتنة بين أصحاب الرؤى المختلفة.

استغلّ الشاهُ هذا الأمرَ ليثيرَ حملةً ضدّ الحركة الدستوريّة. فقدّم الشيخ النوري اقتراحاً بتعيين خمسة من كبار العلماء المسلمينَ للإشراف على قوانين المجلس النيابيّ؛ فثار غضب مُوالي الغرْب الأوروبّيّ على هذا الاقتراح الذي دوِّن في الدستور مادَّةً ثانيةً من الأصل المتمِّم للدستور.

---

(1) ظهرت آنذاك نظريّتان لتفسير مفهوم «المشروطة= الحُكم الدستوريّ». الحكم الدستوري ابتدعه أبناء دول أخرى بعد كفاح دام سنوات عدّة؛ فمن يأخذ به عليه عدم إغفال أيّ جزء منه. الحكم الدستوريّ وليد بريطانيا. (تقى زاده ـ جريدة المجلس ـ الإثنَين 22 ربيع الثاني 1326؛ العدد 131).

والمجلس مؤيِّد للشورى الإسلاميّة؛ فلا يمكن أن يرتكز على نظريات باريس ولندن. نريد مجلساً تُبنى قواعده وفق الشريعة الإلٰهيّة، ولا نصدّق على أي مشروع قانون يقره القرآن وشريعة خاتم الأنبياء محمّد (ص).

واستمرّ الخلاف الكلاميّ والإعلاميّ بين المؤمنين بالشريعة الإسلاميّة ومُناصري نظريّات الغْرب في الحُكم. فرأى الشاه فرصةً أخرى له لتعطيل المجلس الجديد، إلى جانب فرصة اغتيال رئيس الوزراء من قبل متزمّتي أنصار الحركة الدستوريّة.

وكتب الشاه ليلةَ 17 ذي القعدة 1325هـ قَسَماً بخطّه على الصفحة الأخيرة من نسخة من القرآن الكريم، أنه من أنصار المشروطة، وأرسله إلى مجلس الشورى الوطنيّ. لكنَّ الاضطرابات في الشارع لم تتوقّف، فتعرّض الشاه يومَ الجمعة 25 محرّم 1326هـ لمحاولة اغتيال باءت بالفشل. ومع هذا تزلزلت أوّل تجربة ثوريّة عامّة.

ثمّ اتّخذ الشاه إجراءات عنفيّة؛ إذ أمر بإغلاق باب البرلمان ومنع الوافدين من الدخول إليه، وأمر العساكر بفتح نار المدفعيّة، ما أخاف الناس والنوّاب معاً. فتعارك النوّاب مع عساكر الشاه؛ فألقي القبض على النوّاب وأنصار حركة المشروطة، ولجأ بعضهم إلى السفارة البريطانيّة (منهم تقي زادة) وتركوا إيرانَ بعد فترة قصيرة. وهرب البعضُ الآخر من عساكر الشاه.

وبعد تعنيف السيّد عبد الله البهبهانيّ والسيد محمّد الطباطبائيّ، حُكِمَ عليهما بالإقامة الجبرية خارج طهران. وقتِل عدد من الذين عُذِّبوا في «باغشاه».

الاستبداد الصغير

وبعد القصف المدفعيّ للبرلمان أعلِنت الأحكام العرفية؛ فساد الهدوء المدنَ كافّةً، فظنَّ الشاه أنَّ النهضة قد انتهى أمرُها. وفي آذربيجان، رفع البعض الأعلام البِيضَ فوق أسطح منازلهم تسليماً

منهم بالأمر الواقع. وفي ظلِّ هذا الوضع المُرعِب، نهض عالمانِ كبيران من مراجع النجف الأشرف، هما:

- آية الله الخراسانيّ.
- آية الله المازندراني.

وأوقدا نار الثورة في قلوب رجال النهضة، إذ أعلنا: «أهمّ واجبنا اليومَ تنحية هذا السفّاك الجبّار، والدفاع عن أرواح وأعراض وأموال المسلمينَ...». وعندما سمع «ستارخان» نداءَ علماء النجف الأشرف، ثارت ثائرته وطلب مساندة رفيق السلاح «باقر خان».

نهضة المُدُن الإيرانية

الأعمال البطولية التي قام بها «ستارخان» و«باقرخان»، في بداية الثورة، ضدّ «محمّد علي شاه» أشعلت نار المقاومة الشعبيّة في آذربيجان وهيّجت جماهير مُدن البلاد. وللقضاء على هذه النهضة، حاصرت جيوش السلطة مدينة «تبريز»، بقيادة «عين الدولة»، مدّة أربعة أشهر ونصف، ومنعت عنهم أرزاقَهم. واستمرّت الحرب اقتصاديّاً وعسكريّاً في هذه المنطقة عشرَ سنينَ؛ وظلّ أبناء هذه المدينة مقاومينَ ثابتينَ أولي عزم.

الثورة ضدّ الاستبداد استجابة لدعوة علماء النجف الأشرف

طلب علماء النجف مساعدة عشائر منطقة آذربيجان، وجميع مؤمني إيران، لأهاليهم المضطهَدينَ في تبريز، بسرعة. أمّا «أصفهان» و«رشت»... فقد وجّهت ضربات قاصمة لقوى الاستبداد وأنصار «محمّد علي شاه»، وسيطرت جماهير مدينة رشت على جميع مراكز

ودوائر الحكومة. وفي مدينة أصفهان؛ تمكّن آية الله الحاجّ آغا نور الله من الائتلاف مع القبائل البختيارية، وفرض السيطرة على جميع الدوائر الحكوميّة. كما الْتحقت مدينة مشهد بجماهيرها بالمدن الثائرة كافّة.

كلّ هذا أجبر الشاه على الإعلان رسميّاً عن معاودة فتحه المجلسَ. وكان مشير الدولة رئيسَ الوزراء طيلةَ فترة «الاستبداد الصغير». وتمكّنت القوّات الشعبيّة الآتية من آذربيجان وجيلان، والقبائل البختيارية من فتح طهرانَ والسيطرة على دوائر الدولة. وفرّ الشاه هارباً إلى السفارة الروسية؛ منهياً بذلك عهد «الاستبداد الصغير» (دام سنةً واحدة). فخلع الثوار الشاه وعيّنوا وليّ العهد «أحمد ميرزا» سلطاناً للبلاد. لكن لصغر سنّ السلطان الجديد، عيِّن «علي رضا خان ـ عضد الملك» وصيّاً للسَّلطنة. وكان الروس والبريطانيون يحاولون تنفيذ معاهدة سنة 1907م. كما احتلّت روسيا مناطق مهمّة من «جيلان» و«آذربيجان»؛ والبريطانيّون أمرّوا الدسائسَ بين المجاهدينَ.

وساعد البريطانيون السفارة الروسية على إرسال الشاه المخلوع إلى روسيا، بعد أن خبّأته 57 يوماً في طهران. وفرضوا عليه الإقامة في مدينة «ادساي».

العصر الثاني لنهضة المشروطة

خابت الآمال في استثمار النهضة إيجابيّاً عندما استولى رجال الماسونية والجمعيات السرية على زمام الأمور، بعد فتح طهران. أمّا علماء النجف وطهران و«ستارخان» و«باقرخان»، فقد تهمّشوا فلا أثر لأيّ منهم في هذا الإطار!

وبعد 16 يوماً من فتح طهران ألقي القبض على المناضل المغوار آية الله الحاجّ الشيخ فضل الله النوري (الذي أبى اللّجوء إلى

أي سفارة أجنبية). وفي 13 رجب 1327 أعدِم شنقاً؛ وتعرّضت بعضُ وسائل الإعلام للعلماء الكبار والمقدَّسات الدينيّة بالإساءة.

وكان السيّد عبد الله البهبهانيّ (الذي كان مبعداً عن البلاد فترةَ الاستبداد الصغير)، قد عاد إلى البلاد حاملاً حكماً شرعيّاً من «آية الله الخراسانيّ» بترشيح خمسة من كبار علماء الدين للاشتراك في تشكيلة المجلس النيابيّ. ولقي قدومُه سروراً لدى أنصاره، فيما سَخِطَ مُناوِئوه.

وانقسم الساسة في إيران إلى محافظينَ وديمقراطيّينَ؛ تبادلوا التُّهَمَ وانشغلوا بها عن أحوال الناس. وفي شهر ذي القعدة 1327هـ افتتِحت الدورة الثانية للبرلمان الوطنيّ. وبدأت المنظَّمات السرية أعمالَها وملأت فضاء المجتمع خوفاً. ودأبت الصحف اليومية على الإساءة إلى المقدَّسات الدينيّة الإسلاميّة. وبعد خمسة أشهر من فتح طهران، أصدر علماء النجف منشوراً يدين الأوضاع الراهنة في البلاد.

وفي هذا الخضمّ؛ قدم «ستار خان» و«باقر خان» إلى طهران، ثمّ وجِّهت دعوة إلى زعماء نهضة المشروطة. وبعد فترة اغتال فريق من الحزب الديمقراطيّ ورجال «حيدر خان عمو أوغلو» آيةَ الله السيّد عبد الله البهبهانيّ.

وحاول بعض من يدّعون الانتماء إلى نهضة الحكم الدستوريّ اغتيالَ «ستارخان» ولم يفلِحوا، كما اعتدَوا بالضرب المبرح على «باقرخان». وكان «باقر خان» و«ستار خان» اتّفقا على تدوين رسالة اعتراضية إلى الحكومة (ليقرأها «وصيّ السلطنة»)؛ يقولون فيها: «لا يخفى على معاليكم ما قدّمناه خدمةً لأحكام الشريعة الطاهرة وتثبيت دعائم الحكم الدستوريّ، وراقبنا سَيرَ الأمور بعد تأسيس المجلس النيابيّ وتشكيل هيئة الوزراء؛ عسى نجد من يصلح مفاسد الدَّولة

السابقة؛ لكن لم نجد ما رجوناه! فالخلافات والخراب تزداد وتشتّت الشعب. وإنَّ المُغرضِينَ يعبثون بالوطن، ويُعِدُّونَ لقتل حجّة الإسلام البهبهانيّ. لقد وعِدنا بتوقيف ومحاكمة القتَلة لكن لم نرَ شيئاً من هذا بعدُ! وإنّا نخشى استفحالَ الفوضى في البلاد؛ لهذا نرسل إليكم طالبينَ اتّخاذ الإجراءات اللازمة في حقّ من يعيثون الفساد في أرض الوطن... طهران 21 رجب 1328هـ».

كما أصدر المرجع «آخوند الخراسانيّ» والمرجع «ملّا عبد الله المازندرانيّ» مناشير اعترضوا فيها على الإجرام المتفشّي في البلاد. واستمرّ المتزمِّتون بعمليات القتل والاغتيالات ومحاربة القِيم والمقدَّسات الدينية، وتهميش الجماهير المناضلة وعلماء الدِّين، ما أبعد القوى الوطنية والمنظَّمات الجماهيريّة. وتسلّط المتآمرون وعملاء الغرب والانتهازيون على مراكز الدولة كافّة، وأطاحوا بسيادة الدولة.

الفصل السابع

أوضاع إيران في عهد مظفر الدين شاه
واستعراض بعض المعاهدات الاستعمارية

اعتلى مظفر الدين شاه عرش السلطنة بعد مقتل والده ناصر الدين شاه وعمره آنذاك 45 سنةً. وكان رئيس وزرائه (= الصدر الأعظم) أمين السلطان الذي لم يكن حازماً في إدارة شؤون البلاد، فعزله مظفر الدين شاه وعيّن مكانَه «أمينَ الدولة» الذي صار الآمر الناهي في البلاد، إذ الشاه عليلٌ عاجز!

أتاح قصور الشاه للعابثينَ أن يعبثوا بمقدَّرات الوطن؛ فاستغلّ الرُّوس والبريطانيون ثروات الدولة واستصغروا العباد. كما استَولى صحابة الشاه على مناصب الدولة. ولم يكن «أمين الدولة» ذكيّاً مصلحاً (مثل أمير كبير)، ولا سياسيّاً محنَّكاً (مثل أمين السلطان). بل كان ميّالاً إلى السياسة الغربية؛ فنظّم الضرائب ونسّق العساكر، وسيطر على ميزانية الحكومة وحذفَ الرواتب الكبيرة.

لكن، ظلَّ «أمين الدولة» يفشل في إدارة شؤون البلاد؛ فلم

يتمكّن من التصدّي للرُّوس والبريطانيّين المتسلّطين على البلاد، ولم يسيطر على مشاكل البلاد السياسيّة والاقتصاديّة.

ثمّ تصدّر رئاسة الوزراء بعدَه «مشير الدولة» الذي فشل كما فشل سابقه؛ فعاد «أمين السلطان» مع شيء من الوجاهة بين سكّان طهران. فأبعد عن طهران منافسِيهِ باحترام، إذ عيّنهم مسؤولينَ في المحافظات والمدن، مشتِّتاً صلابة اتّحادِهم بدهاء؛ كما عزل سفيرَ بريطانيا عن منصبه.

كذلك؛ استلف من البنك الوطنيّ الروسي مبالغ تستَرَدُّ خلال 75 عاماً، بكفالة إدارة الجمارك الإيرانية (باستثناء جمارك جنوب إيران). لكن؛ هل صُرفت هذه الأموال على إنماء البلاد؟... الجواب: لا! بل صُرفت على تكاليف سفر الشاه إلى أوروبّا.

معاهدة سنة 1319هـ

أبرِمت بين «أمين السلطان» وسفير روسيا المعتمَد في طهران. تعهّدت بموجبها روسيا بدفع سلفة مالية، 5 ملايين تومان، مقابل تعهّد إيرانَ بتخفيض حقّ الجمارك عن السِّلع الروسية ومضاعفتها على السِّلع البريطانية. وكان «أمين السلطان» منح بريطانيا «امتياز دارسي» مقابل معاهدته مع الرُّوس. وقد أحلّ هذا الامتيازُ المشاكلَ الإدارية والاجتماعيّة والسياسيّة بإيران.

معاهدة دارسي:

في سنة 1318هـ؛ اجتمع «كتابجي» في لندن مع عدد من رجالات بريطانيا، وأخبرهم عن احتمال وجود «النِّفط» في مناطق جنوب إيرانَ. فاتّفق مع سفير بريطانيا السابق في طهران على إجراء

ما يلزم. فبعث السفيرُ رجلاً اسمُه «دارسي» إلى إيرانَ ليختبر تربة مناطق الجنوب، فتأكّد من وجود وفرة من النفط فيها.

وسرعانَ ما حصلت شركة «دارسي» على امتياز «استخراج النفط والغاز والقير» في إيران من رئيس الوزراء أمين السلطان الذي منح الشركةَ كذلك حقَّ تأسيس مَصفى النفط ومدّ الأنابيب لعبور البترول لمدّة تزيد على 60 عاماً؛ شرط أن تمنح شركة «دارسي» كلّ ما أنشأته إلى إيران بعد 65 عاماً.

وحصلت الشركةُ على امتياز استخراج نفط مناطق «شوش» و«بوشهر» و«قصر شيرين»؛ مقابلَ 20 ألف ليرة إسترلينيّة نقداً، و20 ألف ليرة على شكل أسهُم، وحوالى 16 بالمئة من أرباح الشركة سنويّاً.

وارتفعت أسهم إيران في أسواق لندن النفطيّة؛ ما لَفَتَ قائد القوات البحرّية البريطانية الـ«مارشال فيشر»، وكذلك «سِير ونستن تشيرشل» (رئيس وزراء بريطانيا)، وأرادا أن يحصل الأسطول البريطاني على ما يحتاج إليه من البترول من إيران. وعندما انتهت الحرب العالَمية، انتقلت مالكية «دارسي» إلى الحكومة البريطانية؛ وأصبح اسم الشركة «شركة البترول الإيرانية البريطانيّة».

إقالة أمين السلطان

كان الشاه يحذر سطوة «أمين السلطان»، لا سيّما بعد وفاة حكيم السلطان (رفيق الشاه)؛ فعزل «أمينَ السلطان»، ثمّ أصدر أمراً ملكيّاً بتعيين «عَين الدولة» رئيساً للوزراء. ولعلّ عزل أمين السلطان كان نتيجة اعتراض أربعة من علماء النجف على أسلوبه في إدارة شؤون البلاد.

معاهدة سنة 1907م وأسباب انعقادها:

أدّت المعاهدات التي فرضها الروس والبريطانيون على إيران، إلى تقسيم إيران إلى ثلاثة أقسام؛ في زمن الدورة الأولى للمجلس النيابيّ الإيرانيّ. فقد أصبحت مناطق شمال إيران تحت السلطة الروسية، وجنوب إيران بيَد الاستعمار البريطانيّ، والمنطقة الوسطى محايِدة (لا يتسلّط عليها الروس ولا البريطانيون).

عُرفت معاهَدة التقسيم هذه بـ«معاهدة 1907م»؛ وكان إبرامُها في زمن تشكيل أوّل مجلس منتخب من الأمّة، قد أثار غضب الجماهير التي رأت استقلالَ البلاد مهدَّداً!

وأعلَن سراةُ الحكومة أنَّ هذه المعاهَدة غير رسميّة، وأنَّ الدولة لا تعترف بها. كما اعترض مجلس الشورى على قيام الأجانب بالتدخّلات غير المسؤولة في شؤون استقلال الوطن ووحدة أراضيه.

وفي سنة 1915م، بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى؛ تآمر البريطانيون والروس مجدّداً بعقد معاهدة ضدّ إيران، تقضي بالسيطرة على القسم المركزيّ المحايِد، مِن إيران، وتقسيمِه بينهما. ونصّت المعاهدة على حقّ الرُّوس المستعمرين في تشكيل جيش من القوات الإيرانية، ويكون قائد الجيش وأمراء الفِرَقِ والأفواج تحت سيطرة الرُّوس الذين يحدّدون ميزانية هذا الجيش ورواتبه، باسم الوصاية الشرعيّة والانتداب، ويأمرون الجيش بما يرغبون فيه؛ وأنَّ النفقات التي جعِلت لهذا الجيش تُضاف إلى مبالغ السُّلَف التي استلفَتها إيرانُ من روسيا.

كذلك؛ احتلّت القوّات الروسيّة مُدُنَ «كرمنشاه» إلى «بروجرد»، و«كاشان» إلى «تربت حيدرية»، و«طبس»، وقِسماً مِن «قائنات» إلى «جام» و«باخرز» و«خواف».

حادثة «شوستر» وتدخّل روسيا في شؤون إيرانَ:

حادثة «شوستر» وقعت بعد ثورة النظام الدستوريّ؛ ففي سنة 1911م، ارتأى مجلس الشورى الإيرانيّ توجيه الدعوة إلى الخبير الأميركيّ «مورغن شوستِر»، والخبير السويديّ «يالمارسِن»، لتنظيم الاقتصاد الإيرانيّ. وفي تلك الفترة كان «محمّد علي شاه» يحاول استعادة عرشه، فهاجم أنصارُه إيرانَ، بإسناد روسيّ، بغية القضاء على الحكومة وإسقاط النظام الدستوريّ؛ لكن لم يحالفهم الحظّ في هذه الحرب.

فتوجّه «شوستِر»، المُثقَل بأعباء تكاليف تلك الحرب، إلى «شعاع السلطنة» شقيق محمّد علي شاه، بغية تحصيل المال؛ لكنَّ الرُّوس الذين يسيطرون على القصر حيث يقطن «شعاع السلطنة» عارضوا الأمرَ بشدّة. كما أنَّ «شوستر» كان استعان بخبير بريطانيّ لدراسة حالة محافظة «جيلان» الاقتصاديّة، وكانت «جيلان» تحت النفوذ الروسيّ؛ فطلبت روسيا من حكومة إيرانَ إخراجَ «شوستر» من البلاد خلال 48 ساعة.

استجابت الحكومة للطلب الروسي؛ فيما عارض علماء الدين والنواب الأحرار في المجلس النيابيّ (مجلس الشورى). وأمر علماء الدين بمقاطعة البضائع الروسية، فوقع الاقتصاد الروسيّ في إيران في مشاكل عدّة.

معاهدة «وثوق الدولة» سنةَ 1919م:

موادّها:

- الاستعانة بخبراء الاقتصاد وخبراء الشؤون العسكرية البريطانيّين.

- تسليم إدارة الاقتصاد البريطانيّ إلى البريطانيّين بشكل كامل.
- تكون إيرانُ بشكل رسميّ تحت الحماية البريطانيّة.

وكانت هذه المعاهدة مدعومة من:

- وثوق الدولة.
- نصرة الدولة.
- ناصر المُلك.
- صارم الدولة.
- الجناح المؤيِّد للبريطانيّين.

وخالَفَ هذه المعاهدة (من خارج الحدود):

- فرنسا.
- الولايات المتّحدة الأميركيّة.
- روسيا.

... لأنهم حُرموا ممّا كانوا يرغبون فيه على مائدة إيرانَ.

وفي داخل إيران؛ خالف كبار العلماء والمناضلينَ المعاهدة:

- آية الله مدرِّس.
- الحاج آغا جمال الأصفهانيّ.
- إمام الجمعة الخوئيّ.

كما خالف أبناء الشعب هذه المعاهدة، وعددٌ من الأحرار الوطنيّين و«أحمد شاه» مَلِكُ البلاد. وفي بعض مناطق إيرانَ؛ رفع بعض المناضلينَ أعلام ثورتهم مخالفة لهذه المعاهَدة، مثل «الشيخ محمّد الخيابانيّ» (في مدينة تبريز) بمساندة المؤمنين الداعمينَ له[1].

(1) نشير إلى نصّ معاهدة 1907م ونص معاهدة 1919م. =

= معاهدة 1907م بين بريطانيا وروسيا، حول إيرانَ وأفغانستان:
تتعهّد الدولتان بحفظ استقلال إيران ووَحدة أراضيها، وترجوان التقدّم والازدهارَ لها؛ وتأملان في الحصول على مزايا تجارية وصناعية متساوية مع بقيّة الدول. ولاهتمامنا بحفظ الهدوء والأمن في بعض المحافظات الإيرانية التي تشترك مع حدود روسيا وأفغانستان وبلوشستان؛ اتّفق الجانبان على:
المادّة الأولى: تشكيل لجنة لدراسة التعرفة الجمركية وتدوينها وفق مصلحة البلاد اقتصاديّاً.
تتعهّد بريطانيا بألّا تستحوذ على أيّ امتياز سياسيّ أو تجاريّ، مثل: سكك الحديد والمصارف والبريد والهاتف... في المنطقة المحدّدة للخطّ الممتدّ من مدينة قصر شيرين وأصفهان ويزد وكاخك إلى الحدود الإيرانية الروسية الأفغانيّة. إذا رغب أتباع بريطانيا أو دولة ثالثة في الحصول على امتياز من هذا القبيل فلا يحقّ لبريطانيا أن تبدي أيّ اعتراض مباشر أو غير مباشر على ذلك.
المادة الثانية: تتعهّد روسيا بألّا تستحوذ على أيّ امتياز سياسيّ أو تجاريّ، مثل: سكك الحديد والمصارف والبريد والهاتف... في المنطقة المحدّدة في ما وراء الخطّ الحدوديّ لأفغانستان، ابتداءً من كاخك ومروراً بمدينة بيرجند وكرمان وينتهي في بندر عبّاس. ويشمل هذا التعهّد أتباع روسيا كافّة أو أتباع أي دولة أخرى. أمّا إذا رغبت بريطانيا في الحصول على أيّ امتياز في هذه المنطقة فلا يحقّ لدولة روسيا أن تعارض بشكل مباشر أو غير مباشر.
المادّة الثالثة: تتعهّد دولة روسيا بألّا تعارض أيّ امتياز يمنح لأتباع بريطانيا في المنطقتينِ المشار إليهما في المادّتينِ الأولى والثانية. كما تتعهّد بريطانيا بالأمر عينهِ في ما يخصّ أتباع روسيا والامتيازات الممنوحة لهم في المنطقتينِ المشار إليهما في المادّتينِ الأولى والثانية.
وتبقى الامتيازات كافّة، التي منِحت قبل هذه المعاهَدة، كما هي ولا تعديل عليها.
المادّة الرابعة: نوافق على أنّ واردات جمارك إيرانَ (باستثناء جمارك محافظة فارِس والخليج الفارسيّ) تُدفع إلى «بنك التسليف والرهن» تسديداً للسلفة التي استلمتها الدولة الشاهنشاهيّة الإيرانية من «بنك التسليف والرهن».
كذلك؛ نوافق على أنّ عائدات جمارك «فارس والخليج الفارسيّ» كافّة، =

. . . .

= وعائدات صيد الأسماك في بحر الخزر (= بحر قزوين) تعود إلى إيرانَ. أمّا واردات إدارة «البريد والبِرَقِ والهاتف» فتبقى كما كانت لأداء سلفة الدولة المستلمة من البنك الشاهنشاهيّ قبل تاريخ هذه المعاهَدة.

المادّة الخامسة: إذا ظهر خلل في أمر تسديد السلفة المستلَمة من البنك الشاهنشاهيّ، أو بنك التسليف والرهن، يحقّ لروسيا مراقبة الواردات والمدفوعات في ما يرتبط بالنقاط المذكورة في المادّة الأولى.

وقد وافقت بريطانيا وروسيا على أن تتمّ مذاكرة وديّة بين البلدينِ قبل أن تقوم أيّ منهما بمراقبة حسابات الواردات والمدفوعات.

(نقلاً عن كتاب د. بيو كارلو «**المنافسة بين الرُّوس والبريطانيّين في إيران وأفغانستان**»؛ ترجمَهُ إلى الفارسيّة د. عبّاس آذرين، ونشرته في طهران مؤسّسة «بنگاه ترجمه ونشر كتاب»، 1259هـ. ش، ص185 ـ 189).

معاهدة «وثوق الدولة» («سِير برسي كاكس» و«وثوق الدولة»)

نظراً إلى العلاقات الوديّة بين إيران وبريطانيا، واستناداً إلى أنَّ مستقبل المصالح المشترَكة بين البلدينِ تستوجب الترسيخ، ونظراً إلى وجوب إعداد ما يرتقي بإيرانَ إلى أعلى المستويات؛ وافقت الدولتان الإيرانية والبريطانيّة (ممثَّلةً بالوزير المختار لصاحبة الجلالة ملكة بريطانيا، «سِير برسي كاكس») على:

1 ـ تأكيد بريطانيا ما تعهّدت به سابقاً، من احترامها المطلق لاستقلال إيرانَ ووحدة أراضيها.

2 ـ أن تقدِّم بريطانيا كلَّ ما تحتاج إليه إيرانُ، من الخبراء والمستشارينَ والاختصاصيّينَ، لدوائر الدولة؛ وتتكفّل إيرانُ بدفع رواتبهم ومخصصّاتهم وفق عقود مخصَّصة لهذا العمل، على أن تَمنح إيرانُ هؤلاء الخبراء الصلاحيّات اللازمة ضمن إطار هذه المعاهدة.

3 ـ أن تهيّئ بريطانيا الأسلحة والذخيرة والملابس الموحَّدة الشكل ومصارف القادة والأمراء؛ وواجب الوَحَدات حفظ الأمن الداخليّ ومناطق الحدود. وتتعهّد إيرانُ بدفع ميزانيّة ومبالغ مصارف ما تقدّم، كافّة، إلى بريطانيا. وتتولّى لجنة من الاختصاصيينَ الإيرانيّين والبريطانيّين الإشراف على عدد هذه الوَحَدات وعدد جنودها ومراتبها وضبّاطها والقادة الأكْفاء والأمراء الخبراء حَسْبَ احتياج الدولة.

4 ـ تتعهّد بريطانيا بمنح سلفة لإيرانَ لسدّ التكاليف اللازمة لتأمين ميزانية مصارف =

جدول الامتيازات الممنوحة للدول الأجنبيّة

موضوع الامتياز	البلد المستثمر	نوع الامتياز	التاريخ
معاهَدة تركمن جاي	روسيا	اقتصاديّ ـ سياسيّ	1828م.
معاهدة تجارية	بريطانيا	اقتصاديّ	1841م.
معاهَدة تأسيس تلغراف	بريطانيا	إيجاد خطّ تلغراف بين خانقين ـ طهران؛ وطهران ـ شيراز ـ بوشهر	1862م.
معاهَدة الملاحة في هور أنزلي	روسيا	اقتصاديّ ـ ملاحة	1845م.
معاهَدة تأسيس تلغراف	الدولة العثمانية	إيجاد خطّ تلغراف بين إسطنبول ـ بغداد ـ خانقين	1820م.

= ما جاء في المادّتينِ 2و3 من المعاهَدة. وتسترجَع المبالغ المستلَفة حَسْبَ ما يتّفق الطرفان، ومن واردات إدارة الجمارك أو الواردات الحكوميّة الأخرى التي تحصل عليها إيرانُ من أيّ مصدر كان. وقبل أن تنتهي هذه المذاكرات ستدفع بريطانيا مبالغ لبدء هذه المشاريع الإصلاحيّة.

5 ـ استعداد بريطانيا لتأسيس شبكة سكك حديدية وقطارات ووسائل نقل أخرى، في إيرانَ؛ والمساعدة على توسيع التجارة والقضاء على المجاعة. وعلى الدولتينِ انتخاب الخبراء والمستشارينَ لتعيين الأولويات التي توافق هوى الشعب الإيرانيّ.

6 ـ وجوب موافقة بريطانيا وإيرانَ على تعيين لجنة خبراء لتعديل تسعيرة الرسوم الجمركية لصالح الحكومة؛ شرط مراعاة التقدّم والتطوّر والرُّقيّ الوطنيّ.

معاهدة تأسيس تلغراف	بريطانيا	تأسيس دائرة تلغراف تربط طهران بالهند وأوروبّا وموانئ جنوب إيرانَ ومدينة شيراز	1244هـ. ش. 1282هـ. ق.
معاهَدة تأسيس تلغراف[1]	ألمانيا (شركة سيمنز)	إيجاد خطّ تلغراف جلفا ـ طهران	
معاهَدة تأسيس تلغراف	بريطانيا	تأسيس خطوط تلغراف في المناطق المسيطر عليها من قِبل البريطانيّينَ	1289هـ. ق.
معاهدة تأسيس تلغراف ومؤسّسات مصرفيّة	روسيا	1 ـ تأسيس خطوط ارتباط تلغرافية بين مناطق الحدود الإيرانية وَمُدُنِ روسيا. 2 ـ تأسيس مؤسّسات مصرفية في شمال شرق إيرانَ وكذلك الغربيّ.	1251هـ. ش[2]. 1289هـ. ق.

---

(1) بعد أن وقّع «ناصر الدِّين شاه» هذه المعاهَدة؛ دوَّن معها هامشاً قال فيه: «وقِّعَت المعاهَدة... لا مانعَ من مبادَلة نسخ العقد، نقدّم التهاني، قدِّموا هديّتَنا غداً عصراً».

(2) لأنَّ السنة الهجرية الشمسية، والهجرية القَمَرية، تكونان بين سنتَينِ ميلاديَّتَينِ؛ نرى اختلافَ سنة واحدة، أو لا نرى اختلافاً بينهما؛ ويحصل ذلك حَسْبَ شهور السنة الهجرية.

معاهَدة تأسيس تلغراف	روسيا	إجازة بتأسيس خطوط تلغراف تربط قطعات القوّة البحريّة في بحر قزوين اعتباراً من قلعة جكشعر في منطقة «تركنم» حتّى مدينة إسترآباد.	1258هـ. ش. 1298هـ. ق. 1879م.
معاهَدة صداقة وتجارة	إيطاليا	موافقة عامّة مفادُها شراءُ ونقلُ شرنقة دودة القزّ من إيرانَ إلى الخارج بوساطة التجّار.	1279هـ. ق.
معاهَدة رويتر	بريطانيا	امتياز حصريّ بأحدث شبكة سكك حديدية للقطارات من بحر قزوين إلى الخليج الفارسيّ؛ ووصل هذه الشبكة بالمدن ومنطقة الحدود ـ إحداث شبكة ترامواي ـ استخراج المعادن ـ إحداث سدود ـ الاستفادة من الغابات الطبيعية... (مدّة هذا الامتياز 70 عاماً).	1872م.

معاهَدة صيد الأسماك	روسيا	جعل حريم إيرانَ المائيّ تحت التصرّف الروسيّ	1879م.
استخدام ضبّاط أجانب	1 ـ النمسا 2 ـ المجر	إعداد كتائب مدفعيّة ـ أفواج مشاة، وفق النظام العسكريّ النمساويّ	1257هـ. ش. 1295هـ. ق.
معاهَدة تشكيل قطعات «القزاق»[1] العسكرية	روسيا	تأسيس وحدات عسكرية مشابِهة لقطعات القزاق الروسية.	1879م.
معاهَدة إحداث شبكة سكك حديدية للقطارات	1 ـ شركة فرنسية 2 ـ شركة بلجيكيّة	امتياز تأسيس سكك حديدية تربط طهرانَ بمدينة شهرري (مدّة استثمار المشروع 99 عاماً).	1304هـ. ق.
معاهَدة الملاحة في نهر كارون	بريطانيا	امتياز حرّية الملاحة في نهر كارون	1889م.
معاهَدة الملاحة في هور أنزلي/بحر قزوين		حرّية الملاحة في هور أنزلي والأنهار التي تصبّ فيه؛ وكذلك الأنهار التي تصبُّ في بحر قزوين (بحر الخزر)	1889م.

(1) القزاق: هم قوم من الأتراك اشتهروا بالشجاعة (مِنهم «جنكيز خان»). شكّلت منهم روسيا أفواجاً عسكريةً تشابِه قطعات الصاعقة لدى الجيوش العربية.

معاهدة «لاتاري»	بريطانيا	منح امتياز تأسيس مؤسّسة بيع وتنفيذ جوائز بطاقات الـ«يانصيب» إلى «ملكم خان» الأرمني، ثمّ مَنَحَ هذا الرجل ذلك الامتيازَ إلى شركة بريطانية	1889م.
امتياز شق طريق بين طهرانَ والخليج الفارسيّ	بريطانيا	شقّ الطريق وإنشاء الأنابيب اللّازِمة	1889م.
معاهَدة شق جادّة ترابية وسكك حديدية في منطقة الشمال	روسيا	شقّ جادّة ترابية وإحداث شبكة سكك حديدية في شمال البلاد	1889م.
تأسيس البنك الشاهنشاهيّ	بريطانيا	تأسيس مصرف له حقّ إصدار الأوراق النقديّة وله حقّ استثمار المعادن.	1889م.
تأسيس البنك الرهنيّ (مصرف التسليف)		وتأسيس مكاتب للصرافة والتجارة وبيع وشراء الأسهم.	1890م.

امتياز تأسيس شركة عامّة للتأمين وشركة لتأمين وسائط النقل والبضائع	روسيا	القيام بأنواع التأمين كافّة (مدّة الامتياز75 عاماً)	1891م.
معاهَدة شركة «ريجي» لاستثمار تجارة التبغ (التنباك)	بريطانيا	بيع وشراء التبغ و«التنباك» حصريّاً داخل وخارج إيرانَ	1890م.
امتياز طريق أنزلي - قزوين	روسيا	شقّ طريق عامّ بين منطقة أنزلي ومدينة قزوين واستثماره لمدّة 99 عاماً	1894م.
امتياز استثمار غابات شمال إيران وامتياز إحداث جادّة طهران - خانقين	روسيا+ألمانيا	● استثمار غابات شمال إيرانَ. ● شقّ جادّة بين طهران وخانقين واستثمارها للحمل والنقل؛ لمدّة 75 عاماً.	1890م.
امتياز طريق الترامواي «القطار الكهربائيّ» طهران - شميران	ألمانيا	تأسيس ترامواي (كهربائيّ) يربط إيرانَ بناحية شميران واستثمارُه لمدّة 90 عاماً	1886م.
امتياز استثمار معادن منطقة «قرجه داغ»	روسيا	استخراج معادن منطقة «قرجه داغ»	1889م.

معاهَدة الجمارك	روسيا	الحصول على قِسم من امتيازات الجمارك	1901م.
منح إجازة للحفريّات	فرنسا	منح فرنسا إجازة لإجراء الحفريات في إيرانَ	1895م.
منح إجازة للحفريات في شوش	فرنسا	التنقيب عن الآثار في «شوش»	1897م.
معاهَدة امتياز نفط الجنوب	بريطانيا	منح امتياز استخراج النفط	1901م.

الفصل الثامن

النجف الأشرف ونهضة المشروطة

بعد السيطرة على طهران

في يوم الجمعة 27 جمادى الثانية 1327هـ أمست العاصمة طهران بيَد الثوّار الفاتحينَ، وهم قبائل البختياريّة والجيلانيّة والآرامنة؛ بعد صدامات عنيفة عمّت شوارع العاصمة. ولقد أيّد إعدام الشيخ النوريّ ما كان يتوقّعه آية الله السيّد عبد الله البهبهانيّ في حقّ الشيخ النوريّ، وكان قد نبّهَهَه إلى ذلك.

وكان إعدام الشيخ النوريّ إثر اعتصامه مع كبار علماء طهران والمحافظات الأخرى، في ضريح سليل الأئمّة السيّد عبد العظيم الحَسَنيّ في مدينة «الريّ». وكان مجلس الشورى الوطنيّ قد كلّف آية الله البهبهانيّ والسيد محمّد الطباطبائيّ بإقناع العلماء المعتصمينَ بإنهاء حالة الإضراب، وسَط الصخب الذي أثاره الفاتحونَ للعاصمة.

وكان شريف كاشاني من المقرَّبينَ إلى السيّد البهبهانيّ؛ وقد نصح السيّدَ بألّا يعود إلى البلاد بعد أن أبعِد عنها إلى العراق، مع

استشهاد الشيخ النوريّ. وكان كاشاني يعرف نوايا أتباعِ السياسة الغربيّة في إيرانَ تجاه السيّد البهبهانيّ.

لكنَّ استقبالَ الجماهير للسيّد البهبهانيّ كان عظيماً، ما أثار غضب العلمانيّينَ الذي سعوا لاستغلال مكانته ومكانة السيّد الخراسانيّ لمصالحِهِم الخاصّة. ثمّ استغنى العلمانيّونَ عن كبار علماء الدِّين.

الحالة السياسيّة في طهران وتقييم منزلة السيّد عبد الله البهبهانيّ

قال «عَين السَّلطنة»: «السيد عبد الله البهبهانيّ سيعود؛ هو رجل دراية وسياسة، ذو خبرة وعِلم وحِنكة... عاقلٌ ذكيّ... ومِن حسن حظّ السيّد البهبهانيّ أنَّ مجلس الشورى لم يُفتَتَحْ بعدُ، وسيذهب إلى افتتاح المجلس ويلقي كلمة الافتتاح. ومَن، غير السيّد هذا، بعدُ سيدّعي أنَّ تأسيس المجلس ثمرةُ جهاده ونضاله وكفاحه؟... كما أنَّ ثلاثة رجال قدموا معه إلى طهران حاملينَ رسالة من «الآخوند خراساني» وبقيّة المراجعِ فيها طَلَبُ أن يكون الرجال الثلاثة أعضاء في مجلس الشورى... إنَّ عودة السيّد البهبهانيّ بهذه الأبّهة قد أقلقت «قائد العساكر» وكلَّ مُعارضي وجود علماء الدِّين على مسرح السياسة في إيران»[1].

كما قال «عَين السلطنة»: «كان الطلبة والتجّار والكَسَبَةُ ضمن المؤيِّدينَ للسيّد عبد الله البهبهانيّ؛ لكنَّ «جمعيّة الأحرار» القليلةَ الأعضاءِ كانت تُناوِئُه وعقائدَهُ، وترغب في عدم اشتراكه في مجلس الشورى. أمّا الأعيانُ المستقلّون فكانوا يميلون إليه وأفكارِه»[2].

---

(1) سجلّ مذكَّرات «عين السلطنة».

(2) المصدر نفسه.

حتّى إنّ المسؤولينَ الكبار الرُّوس كانوا يَعتبرون للسيّد البهبهانيّ شأناً، إذ عرفوا حجمَ تأثيره في الإيرانيّين لدى رؤيتهم حجم الاستقبال الواسع الذي لاقاه الشعب به لحظةَ عودته إلى البلاد، وقد كان الحشد الشعبيّ لهذه المناسَبة يفوق ذلك الذي كان وقتَ تشييع ناصر الدِّين شاه.

وعند عودة السيّد البهبهانيّ إلى إيران؛ كان معه افتتاح مجلس الشورى الوطنيّ. أرسل آية الله الخراساني وآية الله المازندرانيّ برقيّات إلى علماء طهران يطلبون انتخاب أصلح العلماء ليشكّلوا الهيئةَ العليا في مجلس الشورى[1].

وكتب «عَين السَّلطنة» حول مكوّنات المجلس النيابيّ: «... النوّاب كافّة متّفِقون على تبنّي سياسة المجلس على «التسامح والتساهل» و«الاعتدال»»[2].

ولم يجلس السيّد البهبهانيّ مكتوفَ اليدين حيال وقاحة تصرّفات بعض أعضاء نهضة المشروطة. وقال شريف الكاشاني في هذا: «ازداد عدد المنظَّمات السرية، وكثر عدد المناشير الحزبية؛ ومع كثرة الإنذارات التي وجِّهَت إلى السيّد البهبهانيّ من قبل «قائد العساكر» و«سردار أسعد»[3] و«المجاهدينَ»؛ تعاهد سِرِّيّاً مع «قطعات القزاق العسكرية»، كما كان تردُّد الطلاب والكسبة إلى منزل السيّد البهبهانيّ في ازدياد، فالجميع بايَعَهُ بيعةً صادقة»[4].

وجاء في وثائق «مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر ايران»، قول

(1) **واقعات اتّفاقيه در روزگار**، ج2، ص 455.

(2) **روزنامه خاطرات عين السَّلطنة سالور**؛ ج4، ص2928.

(3) «سردار» بمعنى «القائد»، «الرئيس»، «الزعيم».

(4) **واقعات اتّفاقيه**، ص2959.

السيّد البهبهانيّ، في منزله، لـ«سردار أسعد» (الماسونيّ): «من أين لك صلاحيّة النيابية؟ أتعرف ما معنى ومكانة عضو مجلس الشورى الوطنيّ؟... يجب أن تساقَ إلى صاحب الشريعة بحراب المسلمينَ كي تنالَ جزاءَك العادلَ. إنّكم لن تتمكّنوا من القضاء على الدِّين الإسلاميّ»[1].

وفي الأوّل من ذي القعدة 1327هـ؛ أعلن آية الله الخراسانيّ وآية الله المازندراني آراءَهُما حولَ «الحُكم الدستوريّ»؛ وقالا: «لأنَّ الإسلام هو الدين الرسميّ لإيران، والمذهبَ الجعفريّ الإثنَي عشَريّ هو السائد بين الناس؛ يجب ألّا يتعدّى الحُكم الدستوريّ أحكام المذهب الإثنَي عشَريّ الخاصّة والعامّة، ويستندَ في أصوله كافّةً إلى الأحكام الإلٰهيّة وحفظ النواميس الشرعيّة والوطنية وتحريم المنكَرات وإشاعة العدالة وهدم قواعد الظلم والاستبداد الفرديّ وحفظ كيان الإسلام والمسلمينَ»[2]. وقد عَمِلَ مناوِئُو علماء الدِّين على إعاقة تَوزيع هذه الإرشادات على الشعب، حتّى لا ينقلِبَ الشعبُ على مآربِ هؤلاء الدَّنيئَة تجاه الوطن.

كما أرسل آية الله الخراسانيّ برقيّة إلى «ناصر المُلك» يعاتبه فيها على «افتتاح مراكز لعب القمار وإشاعة الفحشاء والمنكَرات وتعيين ضرائب لبيت المال على مثل هذه الأماكن»، ويصرُّ فيها على تنفيذ الحدود الإسلاميّة. كما انتقد آية الله الخراسانيّ الصحف التي تدعو النساءَ إلى الخروج متبرِّجات سافرات إلى الشوارع، واعتبر أنَّ التهاوُنَ في مكافحة هذه الظاهرة خيانةٌ عظمى للإسلام وللبلاد[3].

---

(1) الوثيقة المرقَّمة «32 ـ ق» المحفوظة في «مركز اسناد مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر ايران».

(2) الوثيقة المرقَّمة «1/ 4363» مكتبة آستان رضويّ بمدينة مشهد المقدَّسة.

(3) الوثيقة المرقَّمة «1/ 4331».

وفي 12 محرَّم 1328هـ، ملأت منشورات حمراء اللَّون «مدينة قزوين» (وقيل «مدينة طهران»)، ووصلت إلى أقصى المملكة؛ أصدرتها جمعيّة الأرامنة. جاء فيها: «جاهدنا من أجل الحرّية، ولم نجدِ المُبتَغى. وإذا بقيت الوزارات ومجلس الشورى على هذه الحالة، سنعلن ثورةً عامّةً وسنقتل كلَّ مَن يقف عائقاً في طريق حرّية الوطن».

ودعا آية الله آخوند الخراسانيّ الشعبَ الإيرانيّ إلى مساندة تأسيس المصرف الوطنيّ، «في الوقت الذي ينبغي أن تكون الأموال وحفظها وطريقة صرفها في يَدٍ أمينةٍ كفؤةٍ دَيِّنَةٍ تجعلها في خدمة الوطن والمواطن في أرجاء البلاد»[1].

وكان «تقي زاده» ورجالُه يعمَلون لنَيل المناصب في البلاط الشاهنشاهيّ؛ وثمّة وثائقُ في هذا المجال تقول: «... أكّدوا على وجودهم في البلاط المَلَكيّ تأكيداً راسخاً، والحصول على توصية «حكيم الممالك» من أجل جلبهم إلى البلاط. وتعهّد «مرآة الممالك» بأن يمنحَهم مناصب خطيرة...»[2].

وكتب شريف الكاشاني في هذا: «يحاول تقي زاده السيطرة على فصائل ثوّار نهضة الحكم الدستوريّ كافّة... من المستحيل أن ينظِّمَ الجميعَ تحتَ رايته؛ وهذا أهمّ عوامل التفرقة واختلاف الآراء»[3].

وقال «محمّد ولي خان التنكابنيّ»، أحد سُراة فاتحي طهران، في موضوع العجلة في إحضار «تقي زاده»: «جاء تقي زاده إلى إيرانَ

---

(1) **روزنامه خاطرات عين السَّلطنة**، ص2897.

(2) الوثيقة المرقَّمة 5167 المحفوظة في «مركز اسناد مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر ايران».

(3) **واقعات اتفاقيه در روزگار**، ج2، ص384.

وفي حقيبته عشرات المشاكل؛ فحلّ المجلس الأعلى، وشكّل لجنة الإدارة حسْب رغبته، وعيَّن «سهام الدولة» حاكماً على محافظة فارس (شيراز). وقام «المُجاهِدون» مثل «بيرم خان» بغارات السلب والنهب في مدينة قزوين ورشت وطهران»[1].

في مثل هذه الحالة؛ طلِب إحضار «ستار خان» و«باقر خان» إلى طهران. فأرسل قائد القوات المسلَّحة برقية إلى آية الله آخوند الخراسانيّ، قال فيها: «بناءً على ما تقتضيه الظروف الراهنة، طلِب من «القائد الوطنيّ» و«آمر القوات الشعبية» الحضور إلى طهران...»[2]. ثمّ كان الطلب إلى العلماء الكبار إرسالُ هذين القائدينِ إلى العتبات المقدَّسة في العراق.

وكان إصدار للأوامر بمنع حمل الأسلحة في طهران، لكثرة الحوادث الدامية التي يقوم بها بعض مَن يدّعون النهضة. وفي تلك الفترة؛ أرسل آية الله الخراساني برقية إلى السيّد عبد الله البهبهانيّ وسائر المراجع، يقول: ««نشرت جريدة «ايران ناو» في عددها الرقم «121» خبراً بأنَّ حُكم القصاص يخالف السياسة والحكمة والمَنطق، وازدرى كاتبُه الحكماءَ والفلاسفةَ غير المسلمينَ لاعترافهم بعظمة الحكمة الموجودة في الآية الكريمة «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب»، لذا أطلب إرسال هذا العدد من الصحيفة المذكورة كي أصدر الحكم الإلٰهيّ وأبلغَه المسلمينَ كافّةً»[3].

وكتب «عَين الدولة سالور» يقول: «أصبح شعار نهضة الحكم

(1) **واقعات اتفاقيه در روزگار**، ص 209.

(2) المصدر نفسه، ص 506.

(3) **اسناد مشروطه (خاطرات واسناد مستشار الدوله)**، باعتناء ايرج افشار، طهران، 1362هـ، ج2، ص306.

الدستوريّ، والسلطنة الشاهيّة المستبِدّة، في خبر كان؛ أمّا عن الخلاف بين الفئات المتصارعة فقد انقسمَتْ إلى مجموعتينِ: والمتطرّفونَ (الثَّورَويُّونَ). يمثِّل الفئة الأولى سپهدار، والحاج علي قُلي خان، وسردار اسعد، ومستشار الدولة، وأغلب نوّاب المجلس». ويمثِّل المتطرِّفينَ تقي زاده، وصنيع الدولة، وعدد من الثوار. حتّى الصحافة انقسمت؛ فنرى صحيفة «إيران نو» وصحيفة «الشرق» تمثِّلان الثوريّين المتطرفين، والْتزَمَت الصحف الأخرى جانبَ المُعتدِلينَ»[1].

لقد أصدر آية الله الخراساني وآية الله المازندراني حكماً شرعيّاً بأنَّ الطريقة السياسيّة التي ينشرها «تقي زاده» بدعة وضلالة، ويجب إخراجُه من المجلس الوطنيّ. كما طلبا من «نائب السَّلطنة» منعَه من دخول حَرَمِ ساحة المجلس الموقَّرة.

أمّا نصّ هذه الفتوى فعلى النحو الآتي: «... من الواضح للعيان حقيقة جليَّة، هي وجود السيّد تقي زاده في مكان ليس له. هذا الرجل يريد أن يجعل دين الإسلام وسجايا أبناء الوطن كما هو شائع ومتعارَف عليه في باريس؛ فالمشهور بين نصارى العالَم أنَّ الباريسيّينَ ألغَوا الدين المسيحيّ من آداب مجتمَعهم... إنَّ هذا الملعون (تقي زاده) يريد إلغاء حدود الإسلام وقيمه الأخلاقيّة الدينيّة الإسلاميّة من إيران، ليشار إليها كما يشار إلى باريس بعلمانيّتِها وابتعادها عن الدِّين... هذا المسار يؤدّي إلى استمساك الأجانب بزمام الأمور... واستناداً إلى تكليفنا الشرعيّ في حفظ الإسلام والمسلمينَ، ولأننا نشعر بسيطرة الأجانب على مكاسب النهضة، طلبنا أن يُزال هذا

---

(1) «اعتداليون» هو الاسم الذي اختاره هؤلاء لأنفسهم وقد أبقيناه على صيغته ولم نترجمه لوضوح معناه بالعربية. (المحرر)

(2) **روزنامه خاطرات عين السَّلطنة سالور**، ج4، ص3054.

العنصر الفاسد الخبيثُ من المسرحِ السياسيّ، وأوكَلْنا الأمرَ إلى حاسميّة إدارة سموِّكم ولعظمة إيمانكُم، وإلى أعضاء مجلس النواب ومجلس الوزراء، والأمراء والقادة... والسلام.

... محمد كاظم الخراسانيّ، عبد الله المازندراني».

حتّى إنّ العالِمَينِ الكبيرَين طَلَبَا «أن يُنفى «تقي زاده» إلى ما وراء الحدود الإيرانيّة فوراً، وإنَّ أيَّ تهاونٍ أو تقاعُس محرَّم شرعاً ومخالَفةٌ صريحة لصاحب الشريعة (ع)... وإنَّ كلّ مَن يدافع عنه مشمول بحُكم هذه الفتوى»[1].

فحاول علي قُلي خان («سردار أسعد» ـ الرفيق الماسونيّ لتقي زاده) الحؤول دون نشر رسالة العالِمَينِ الكبيرينِ (المُقيمَينِ في النجف) بين الناس؛ كما طلب من نائب السَّلطنة ألّا يتَّخذَ أيَّ إجراء ضدّ تقي زاده، وألّا يبلِّغَ الفتوى إلى أيّ مسؤول حكوميّ.

وفي 29 جمادى الأولى 1328؛ أرسل القائد الوطنيّ ستارخان إلى «نائب السَّلطنة» و«عَضُدِ الملك» إنذاراً يقول فيه: «بعد القصف المدفعيّ للمجلس، حاولت إعادة الحقوق المغصوبة لأبناء وطني؛ فرفعتُ لواء استقلال إيران المتمثِّل باستقرار الحُكم الدّستوريّ... ولا أرغب في أن يتدخّل البعض في شؤون الوطن من أجل إرساء أغراضهم المسمومة الهادفة، كما أنَّ نوّاب المجلس يعرفون جيِّداً حدود مسؤوليّاتهم القانونية وواجباتهم في هذه الفترة الراهنة.

... يا ستّار العُيُوبِ»[2].

---

(1) **اوراق تازه ياب مشروطيت ونقش تقي زاده**، ص 207 ـ 208.

(2) المصدر نفسه، ص538.

انتقاد علماء النجف لتمادي دعاة الحريّة في الممارسات الخاطئة

اعترض علماء النجف على نوايا الاشتراكيّين الديمقراطيِّين المتشدّدينَ، في برقيّة ضمّنوها أهداف نهضة الحُكم الدستوريّ. كما انتقدوا العلمانيّين المتّبِعينَ لسياسات الغرْب. أمّا نص البرقيّة فعلى النحو:

«... لم تكن النهضة من أجل عزل حكومة الاستبداد، ونصب إدارة استبدادية فاسدة تحاول فرض أعضائها وتنظيماتها على دوائر الدولة كافّة، كي يساند بعضهم بعضاً[1]، وتناسَوا تشكيل القوّات المسلَّحة وهو أهمّ واجبات النهضة لحماية الوطن، وانشغلوا بزيادة صرف واردات الدولة في الأعمال المُضِرَّةِ، وتبذير الأموال. وقرّروا مخالَفةَ الدِّين وإشاعة المنكَرات. وبدل أن يوحِّدوا أفراد الشعب ويساوُوا بين طبقات المجتمَع، عزّزوا الفُرقة والانقسامَ؛ وفرضوا الضرائب التي يعجز المواطن عن دفعِها[2] تبدأ من المَلْح الأبيض وتصل إلى الفحم الأسود. ووظّفوا أعوانهم في كُبرى مناصب الدَّولة، ما أثار غضب الشعب فَكَرِهَ الحكم الدستوريّ! كذلك؛ ملأوا السجون بالمتَّهَمينَ السياسيِّينَ بالتُّهَم الواهية لا أساس لها من الحقيقة، بغية شقّ صفّ الوَحدة الوطنيّة. حتّى إنّهم حالوا دون وصول رسائل خدّام الشرع الشريف إلى الناس، ونصائحِهم حيال صحيفتَي «الشرق» و«ايران نو»... إنَّ حرّية الوطن لا تقوم إلّا على مقوّمات الدِّين الإسلاميّ الراسخة. وستبقى منجزات نهضة الحكم الدستوري مشيّدة على أساس المذهب القويم وصيانة إيرانَ

---

(1) في إشارة إلى أفعال تقي زاده.

(2) ففي شهر رجب 1328هـ؛ قامت مظاهراتٌ ضخمة اعتراضاً على الضريبة على المَلْح.

الإسلاميّة. وعلى عشّاق الحرّية الباريسيّة التوجّه إلى معشوقهم قبل أن نستند إلى التكليف الإلٰهيّ؛ وعندها ستكون الأمور على غير ما يرام. دعُوا الأمّةَ تعِشْ بسلام. وعلى نوّاب المجلس التصدّي لعربدة زمرة أعداء الدِّين، ليُعمَلَ على تطهير مفاسد أعداء الإسلام، وإلغاء كلّ ما فرضه الأجانب المستعمِرينَ ومنعهم من التدخّل في الشؤون الوطنيّة. ويجب تنفيذ موادّ القانون تحت إشراف المُجتهِدينَ الحريصين على موافقة الشريعة الإسلاميّة في أداء الحُكم، وفق الدستور الوطنيّ. ويجب انتخاب القُضاة والموظّفينَ من الرجال المتديِّنينَ؛ كما ينبغي توظيف الضرائب لدعم الجيش والقوّات المسلَّحة، لحفظ الدِّين واستقلال الوطن. ويجب تأسيس مجلس الشيوخ لكبح الانحطاط والرذائل. ويجب تعيين المدّعي العامّ من المتبحِّرينَ بالدِّين، الصادقينَ المؤدِّينَ للأمانة، العارفينَ بالشؤون السياسية. ويجب تشكيل لجنة الرقابة على المطبوعات؛ فلا يجوز نشر أيّ مقال بدون موافقة المجتهدينَ... ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

... محمّد كاظم الخراسانيّ، عبد الله المازندراني».

وقد أكّد آية الله المازندراني أنَّ «الانتهازيّينَ أثَّروا في بعض رجال الدِّين الذينَ لم يدخلوا الخطَّ السياسيّ للنهضة ولم يتعرّفوا على حقائق مجريات الأمور، فَهَوَوا في وادي المخالفينَ؛ لكن نبقى مشترِكينَ معهم في هدف القضاء على الاستبداد».

وكان أن اجتمع أصدقاء وأنصار «تقي زاده» في منزل «سردار أسعد» وطلبوا من «تقي زاده» إرسال رسالة حُسن نيّة إلى مراجع النجف الأشرف وأنه سيزور النجف لملاقاتهم والاجتماع بهم. فكان ردُّ «تقي زاده»: «أنا لا أستعطف أحداً[1]! وقد أوصى السيّد

(1) حسن تقي زاده، **زندگى طوفاني**، ص350.

البهبهانيّ بمثل هذا، وَرَفَضتُ»[1].

وفي تلك الفترة؛ صعّد أنصار «تقي زاده» أعمالهم العدائيّة، بنشر مقالة مثيرة في صحيفة «إيران نو» (العدد: 215)، وأخرى في صحيفة «الشرق» (العدد: 89). شنّوا بهما حملة شعواءَ على حكومة «سپهدار» ووزرائه، ما أثار الفوضى والاضطرابَ.

وكان السيّد البهبهانيّ يعدُّ لتشكيل هيئة من كبار العلماء كي تشرف على اللوائح والمراسيم والقوانين التي يصادِق عليها المجلس النيابيّ، مطابقة نصوصها للشَّرعِ الإسلاميّ. وكان «باقر خان» و«ستار خان» بعثا برسالة إلى «نائب السَّلطنة» يقولان فيها: «... نعرض لمَعاليكُم أن تصدروا أوامرَكُم السامية بالإقامة الجبريّة خارج البلاد للعابثينَ باستقرار البلاد، وإلّا فسنضطرُّ نحن إلى ذلك... ونحن في انتظار أمركم المُطاع»[2].

وفي 3 رجب 1328هـ؛ قدّم «سپهدار تنكابُني» استقالته من رئاسة الوزراء، وكتب حول أوضاعِ البلاد المتدهوِرة يقول: «... الإفلات الأمنيّ وتدهور النظام اللّذانِ أوجدهما شيوخ وعشائر «بختياري» وفرسانُهم في طهرانَ والمدن الأخرى، وكذلك المجاهدونَ الآذربيجانيّون؛ قد هدّما صرحَ الأمن والحياة الهادئة»[3].

وفي هذه الفترة، قام أنصار «تقي زاده» باغتيال السيّد البهبهانيّ في منزله (ليلة 9 رجب 1328هـ)؛ وشكّل هذا إخطاراً مهمّاً لكلّ أتباع السيّد المغدور في التصدّي للعلمانية والعلمانيّينَ؛ بعد أن قال

(1) «مركز اسناد مؤسّسه مطالعات تاريخ معاصر ايران»، الوثيقة المُرقَّمة «5169ق».

(2) المصدر نفسُه، الوثيقتان المرقّمتان 5145 و5146.

(3) **يادداشتهاى سپه سالار**، ص283.

الشيخ فضل الله النوريّ إنّه إذا قُتل هو فسَوف يقتلون السيّد البهبهانيّ كذلك»، وقد تمّ ذلك في أقلّ من سنة»[1].

وكتب شريف كاشاني حول هذا الحادث: «... شاهدث البكاء يصدح في أرجاء بيتي... أخبروني بشهادة السيّد البهبهانيّ. كان جسده الشريف على السرير عليه آثار تِسعِ طلقات ناريّة. وفي الصباح احتشد الناس حول منزل الشهيد، قدِّر عددهم بخمسة عشر ألف نسمة، على رأسهم كلّ وزراء الدولة ونوّاب مجلس الشورى الوطني؛ والشخصيات البارزة مثل «ناصر المُلك» و«ستار خان» و«باقر خان»... وجلس الجميع في العزاء يلعنون القاتلَ والآمرَ به... حتّى وصل السبّ إلى «تقي زاده»...»[2].

كما نقل شريف كاشاني عن شاهدَي عيان: «الذي نفّذ الجريمة «رجب قفقازي» وكان في معيّته خمسة رجال مِن ديمقراطيّي إيران، من أهالي طهران وقزوين... وبعد الجريمة، توجّه «رجب» ورجلان من أتباعه إلى «برج المراقَبة» حيث كانت عربةٌ في انتظارهم، فهربوا بها... وقد صرَّحَ محرِّضوهم بأسمائهم...»[3].

ونفى «تقي زاده» أن تكون له علاقة بقتل السيّد البهبهانيّ. ويؤكِّد بشكل غير مباشر أن «عمو أوغلي» بريء من التهمة التي نسبَت إليه في الاشتراك بهذه الجريمة. كما أعلن أنه يضمر المحبّة والاحترامَ

---

(1) استشهِد الشيخ النوري في 13 رجب1327هـ؛ وفق الحكم الصادر من محكمة «الماسونيّين» برئاسة «بيرم خان الأرمنيّ» عضو «لژ/ لج بيداري». أمّا السيّد البهبهانيّ فقد استشهِد في 9 رجب 1328هـ (قبل أربعة أيّام من الذكرى السنويّة للشيخ) على يد أنصار «تقي زاده» من الماسونيّين وأعضاء «لژ/ لج بيداري».

(2) **واقعات اتفاقيه روزگار**، ج2، ص540 ـ 541.

(3) المصدر نفسه، ص 541 ـ 542.

للسيّد البهبهانيّ، ويعتبره من كبار زعماء نهضة الحُكم الدستوريّ[1].

وكتب «سپهدار أعظم» في مذكَّراته: «مظلوم السيّد عبد الله... أرجو أن يُنزِل اللهُ بـ«تقي زاده» وأتباعه وأنصاره ما هم أهلٌ له. هؤلاء أضاعوا مكتسَبات الثورة الدستورية وفرَّقوا وَحدتهم إلى أشياع وجماعات... كان تقي زاده نموذجاً للاستبداد متلبِّساً حلّة الحُكم الدستوريّ»[2].

وثارت ثائرة الشعب على جريمة اغتيال السيّد البهبهانيّ، رغم محاولة رئيس المجلس تهدئة النفوس بالوعد بملاحقة الفاعلينَ؛ فمَشَت الحركة الشعبيّة في مدن وقرى إيرانَ كافّةً وشدّت بخناق الدولة والمجلس النيابيّ، والجميع يطالب بإنزال أشدّ العقوبات بالمجرمينَ، وتنفيذ فتوى علماء النجف الأشرف في حقّ «تقي زاده» (إبعاده عن البلاد، إلى ما وراء الحدود الإيرانيّة).

عمّ الإضرابُ مناطق طهران كافّة؛ وأغلقت المتاجر والمعارض والمحالُّ أبوابَها إلى يومِ 17 رجب. مجلس الوزراء لا محلّ له من الإعراب. اعتصم أبناء المَدينة في المسجد مطالبينَ بإلقاء القبض على القَتَلَةِ. وفي مدينة همدان؛ أضرب الناس اعتراضاً على الضريبة المفروضة على ملح الطعام، وأنزلوا جام غضبهم بـ«نهضة الحُكم الدستوريّ» وروّادها وأنصارِها[3].

وفي 12 رجب 1328هـ؛ أصدر جماهير الشعب بياناً احتجاجاً على أعمال العلمانيّين؛ قالوا فيه: «أصبحت أعمال الإيرانيّين كافّة تقليداً؛ من المأكل والمشرب والملبَس، إلى العادات والآداب

(1) **زندگى طوفاني**، ص 144 ـ 145 و644.

(2) **يادداشتهاى سپه سالار تنكابني**، ص285 ـ 286.

(3) **روزنامه خاطرات عين السلطنة سالور**، ج4، ص3167.

والسلوك والمُعاشَرة، وطريقة المحادَثة. وامتدّت إلى العمارات والبيانات والزراعة والحدائق؛ حتّى الاغتيالات يقلّدونَ أسيادهم في تنفيذها...»[1].

في 18 رجب 1328هـ؛ شكّل «مستوفي المَمالك» حكومةً تتألّف من أفراد الجناح المعتدل ومن الثوريّينَ؛ وعلى رأس لائحتها خلع سلاح المجاهدينَ. وفي الحكومة كذلك «حسين قُلي خان نوّاب» و«ابراهيم حكيمي» و«فرمان فرما»؛ وهم جميعاً من حَمَلَةِ راية السياسة البريطانية.

وكانت لـ«مستوفي الممالك» علاقات حسنة مع قبائل البختيارية، فسمح لهم بالتدخّل في شؤون الدولة بشكلٍ عميق. وفي 24 رجب 1328هـ؛ غادر «تقي زاده» مدينة طهران، في وقت قدّم فيه «ستارخان» و«باقر خان» و«ضرغام السَّلطنة» و«عبد الحسين خان (معزّ السلطنة)» رسالة غاية في الأهميّة إلى نائب السلطنة (عضد الملك) أعلنوا فيها: «... بعد تمادي المُحابينَ والمُغالينَ في التعرّض لشخصيات الوطن البارزة بالأذى، وقتلهم السيّد البهبهانيّ، ولا رادعَ لهم؛ فقد انتهى صبرنا ورزانتنا، ولا وجهَ للتحمّل بأكثر من هذا... نطلب بوساطة هذه العريضة من مقامكم السامي طرد المتهَمينَ بهذا العمل الإجراميّ الكافر؛ وإذا استمرّ التقصير مِن طَرَفِكُم، بالوعود التي لا تنفَّذ، و ما زال القاتلون فارّينَ لا دولةَ تسعى لتوقيفهم، فلن تتمكّنوا من السيطرة على الإفلات الأمنيّ في المملكة. ولأننا فدائيون مخلصون لك يا صاحب السموّ وجب علينا أن نقدِّمَ اقتراحَنا لسموِّكم المعظَّم...»[2].

---

(1) **واقعات اتفاقيه در روزگار**، ج2، ص544.

(2) مركز اسناد مطالعات تاريخ معاصر ايران، الوثيقة المرقَّمة، 5123 ـ ق.

أثارت هذه العريضة غضب «سردار أسعد» وأنصاره ومؤيِّديه؛ مع كَونها لم تؤدِّ إلى أيّ نتيجة لدى المسؤولين إذ اطّلعوا عليها!

وفي يوم الأحد 25 رجب 1328هـ؛ كان في قافلة «الملا علي» رجل يُدعى «رضاأُف» كان مهتّما بالمشاركة في اغتيال السيّد البهبهانيّ؛ فتصدّى له أحد المجاهدينَ ورماه بطلقة «موزر» فأرداه قتيلاً. وفي ذلك اليوم؛ هاجم عدد من «الاعتداليينَ» المدعوَّ «محمّد علي تربيت» نجلَ شقيقة «تقي زاده»، ومعه «عبد الرزاق خان»، وقتلوهما ثأراً لدم الشهيد السيّد البهبهانيّ[1]. وكان هذا الاغتيال نفّذه جماعة «معزّ السلطان». وفي تلك الأيام، ألقي القبض على رجلَينِ قيل إنهما حضرا إلى النجف الأشرف لاغتيال آية الله الخراساني، وأرسِلا مخفورَين إلى طهران[2].

وقد ذكر «عين السلطنة» في تقرير في آخر شهر رجب 1328هـ: «... وصلني خبر من طهران يقول إنَّ «ستار خان» و«باقر خان» قد نزلا إلى شوارع طهران برجالِهم المدجَّجين بالسلاح، وتعرّضوا لكلّ من لبس الزيّ الغربيّ وربط «الرباط» على عنقه... وخرجت مدينة طهران عن حالتها الطبيعية... وقال ميرزا أحمد سررشته دار» («اقتدار السلطنة») إنه ومَن معه هربوا من طهران خفية مع «سپهدار»، وكان «ستار خان» يطارد «يپرم خان».

وفي 28 رجب 1328هـ؛ حلّ هدوءٌ مؤقّت في طهران بفعل وساطة نوّاب المجلس بين رؤساء الثوّار وسُراة الحكومة. أمّا شروط الهدنة فكانت:

---

(1) **روزنامه خاطرات عين السلطنة سالور**، ج4، ص3167؛ **واقعات اتفاقيه در روزگار**، ج2، ص548.

(2) **روزنامه خاطرات عين السلطنة سالور**، ج4، ص3167.

• العفو عمّا حصل بيننا قبل هذا اليوم.

• معاضدة حكومة الدستور عند الحاجة من أجل القضاء على الفساد؛ كما يجب مراعاة القوانين الحكومية بشكل كامل.

• مساعدة الحكومة في نزع الأسلحة غير المرّخصة.

• الاتفاق على وَحدة رجال القادة والرؤساء والوطنيّين المذكورينَ أدناه:

أ - محمّد ولي سپهدار أعظم.

ب - نجف قلي صمصام السَّلطنة.

ت - علي قلي بختيارى سردار أسعد[1].

ث - باقر خان سالارملي.

ج - عبد الحسين سردار محيي.

ح - ضرغام السَّلطنة.

خ - غلام حسين سردار محتشم.

د - ستار خان سردار ملي[2].

وفعلاً قد صدر أمر بتسليم السلاح إلى وزارة الدفاع. لكن لم يتحلَّ المسؤولون عن القيام بهذه العمليّة بالأخلاق الحَسَنَةِ؛ ما أدّى إلى استنكاف مجاهِدي آذربيجان، وجماعة «معزّ السلطان»، عن تسليم أسلحتهم. فاستغلَّ المنافقون الانتهازيون هذه الفرصةَ للنَّيل ممَّن خالفهم في شأن اغتيال السيّد البهبهانيّ؛ فحاصروا المجاهدين

(1) **روزنامه خاطرات عين السلطنة سالور**، ص 3179.

(2) مركز اسناد مطالعات تاريخ معاصر ايران، الوثيقة المرقّمة 20239.

في بستان «أتابك» (محلّ إقامة «ستار خان»). وكان الماسونيّون عازمينَ على إبادة الثوار الوطنيّين، فكان المسلَّحون من عشائر البختيارية، وعساكر «يپرم خان» (تحت إمرة «قوام السلطنة») حاضرينَ كذلك.

وفي هذا السياق ذكر أحمد خسروي: «... لم تكن الدولة راغبة في تنفيذ هذا الأمر بشكل عادل؛ لأنَّ رئيس الوزراء «مستوفي الممالك» نفسه وأغلبية وزراء حكومته، هم ضمن فرقة «الثوريّينَ» التي تضمر العداء للقادة الأربعة، ستار خان وباقر خان وضرغام السلطنة ومعزّ السلطان. كذلك فإنَّ «سردار أسعد»، وهو صاحب القرار في الأمور كلّها، يضمر الضغينة تجاه هؤلاء الأربعة، لا سيّما «ستار خان»، ومثلُه «فرمان فرما» و«يپرم خان» (رئيس شرطة طهران) يضمران الكراهية لـ«ستار خان»... حتّى إنّ معزّ السلطان كان يودّ قتل ستار خان»[1].

وفي أوّل شعبان 1328هـ؛ بدأ القتال بين الجانبَينِ، وأحرِق باب بستان «أتابك» بأمر من «يپرم خان». وكانت القوات الحكومية تريد الحرب للثأر من «ستار خان» و«باقر خان» لمعارضتهما الماسونيّة و«تقي زاده». وقد كتب شريف كاشاني في هذا الأمر يقول: «قتَل وأسَر المهاجمون المؤيّدون للحكومة، في داخل البستان، وحطّموا ما فيه؛ وقد شمِتَت الدول الأجنبية بهذا كلّه. ثمّ ذهب المهاجمونَ بـ«ستار خان» و«باقر خان» إلى منزل «صمصام السلطنة». واستاء أبناء الشعب من هذا العمل الجبان»[2].

وتجدر معرفة أنَّ الأحزاب والجماعات والتكتّلات «الاشتراكية

(1) **تاريخ هيجده ساله آذربيجان**، ص 134 ـ 136.

(2) **واقعات اتفاقيه در روزگار**، ج2، ص 549 ـ 550.

الديمقراطية» في طهران قد جنّدوا أتباعَهم ومنحوهم حقّ حمل الأسلحة، وأصرّوا على نزع أسلحة القوّات والجماعات الأخرى[1]. وكانت وزارة الداخليّة اعتبرت، في بيان لها، أنَّ مَن كانوا داخل مقرّ إقامة «ستار خان» إنّما هم متمرِّدون على قرار نزع السلاح مِن جيع أفراد الشعب؛ فكان ضروريّاً إلقاءُ القبض عليهم وزجُّهم في السجون لينالوا جزاءَهم العادل[2]!

كما أرسل نواب خراسان في مجلس الشورى برقية إلى مجلس محافظة خراسان؛ قالوا فيها: «تجمّع عدد من الأوباش المسلَّحينَ في منزل ستار خان وأجبروه على البقاء معهم؛ فاضطرت قوى الأمن الداخليّ إلى تجريد الأشرار من الأسلحة بالقوّة تطبيقاً لقانون نزع السلاح. وقد نقلوا «ستار خان» و«باقر خان»، بشكل محترَم، إلى منزل آخر؛ وبقي الأوباش رهن الاعتقال»[3].

وكان «أفخم الدولة» يرى أنَّ حادثة بستان «أتابك» مكمّلة للمخطّط الاستعماريّ الذي اغتال السيّد البهبهانيّ؛ فقال: «اجتمع الاعتداليون والقادة الوطنيون في المسجد وتعاهدوا بتنفيذ فتوى آية الله الخراسانيّ وإبعاد الانقلابيين عن المسرح السياسيّ. ولأنَّ مسؤولي الحكومة كانوا خارجَ هذا التدبير، قتلوا «رضاأُف» و«ميرزا محمّد علي خان» وغيرَهما. فاستغلّ الانقلابيون مرسوم نزع السلاح وأنزلوا بالقادة الوطنيينَ وأنصارهم ما لا تتصوَّرُه العقول؛ فقد أصابوا ساق «ستار خان» رئيس القادة الوطنيين بطلقة نارية وقتلوا نجلَه، فيما نجا «باقر خان» من كيد الرصاص»[4].

---

(1) **تاريخ هيجده ساله آذربيجان**، ص 136.

(2) مركز اسناد مطالعات تاريخ معاصر ايران، الوثيقة المرقَّمة 20238.

(3) المصدر نفسُه، الوثيقة 20235.

(4) **روزنامه خاطرات عين السلطنة سالور**، ج4، ص 3185.

وتضاربت الأخبار حول عدد قتلى هذه الحادثة؛ فقد تحدّث «عين السَّلطنة» عن 150 مقتولاً، فيما حدّث «أفخم الدولة» عن عدد يقارب الألف، أو الثمانمئة، أو الأربعمئة...

وكتب «عزّ الدولة»:

- ستار خان مصاب بجروح، وباقر خان مع جماعة المجاهدين في غياهب السجون.
- الفائزون «يپرم خان» و«الأرامنة» و«قبائل البختيارية».
- العلماء خلف أبواب منازلهم.
- لا تزال الأسواق والمتاجر مغلَقة[1].

وكانت هذه الحادثة قد هزّت أركان التجمّعات المتزمِّتة؛ ما أدّى إلى:

- استقالة «فرمان فرما» وزير الدخلية آنذاك.
- تزعزُع مجلس الوزراء.
- الابتعاد عن الانتساب إلى المجاهدينَ؛ حتّى إنَّ كلمة «مجاهد» أمست شائنة مخزية.
- إقالة «سپهدار» (قائد القوّات) من منصبه.
- الغضب الشعبيّ العارم وكلمات السبّ والشتم والاحتقار التي سيطرت على المجالس والاجتماعات تندِّد بِفِرَقِ المجاهِدِينَ وأفرادِهم كافّة.
- استياء طبقات الشعب من الأوضاع العامَّة وسيطرة الندم على أفكار وعواطف الأمّة جمعاء.

---

(1) المصدر نفسه، ص 3185.

- إهمال «الأرامنة» لـ«يپرم خان» وابتعادهم عنه، واتِّهامهم إيّاه بإحداث الفُرقة بينهم وبين المسلمينَ؛ فاستقال من منصبه.

- بَترُ ساق «القائد الوطنيّ ستار خان» بسبب الرصاصة التي أصابت رجلَه أثناءَ الهجوم؛ فأصبحَ معوَّقاً[1].

ونهي موضوع الهجوم على بستان «أتابك» بروايتَين متناقضتينِ؛ الأولى عن «سڤه سالار تنكابُني»، والثانية عن «جعفر قُلي خان» (المعروف بـ«سردار بهادر» ـ عضو المحفل الماسوني (لژ/ لج) ونجل «سردار أسعد البختياري») وقد مُلِئت بالأكاذيب والتحريف.

أمّا رواية «سپه سالار» فعلى هذا النحو:

«... تشكّلت الحكومة الجديدة، وحدثت وقائع غريبة منها اغتيال السيّد البهبهانيّ على يد الفاسدينَ؛ فهاجَ الشعبُ وعطِّلت المتاجر والأسواق والمحالُّ. وبعد أيّام أراد البعض الثأرَ للسيّد الشهيد في الشارع العامّ؛ فكان إضرابٌ شامل، والمدينة مضطرِبة. فأتى «يپرم خان» الأرمنيّ ورجال الشرطة و«سردار بهادر» وأمروه بالتعرّض إلى الزعيم الوطنيّ «ستار خان» والقائد الوطنيّ «باقر خان» وأنصارهما في بستان «أتابك». فجاؤوا يوم الأحد باثني عشر مدفعاً ورشّاشات «ماكزيم» وستّة أو سبعة آلاف جنديّ. سلّم بعض العمّال أنفسَهم بحال يُرثى لها، ثمّ هاجم الأرامنة وقبائل البختياريّة البستانَ ليلاً بقسوةٍ بكلّ عتادهم المذكور؛ وسقط ثلاثمئة رجل من العمّال والكَسَبَةِ... بين قتيل وجريح... كما أصيبَ «ستار خان» برصاصة، فَوُضِعَ على الفراش، ودخل رجل أمنيٌّ يحمل مسدَّساً من نوع «يراق» ورماه بِطَلقَةٍ. أمّا «باقر خان» فكابد ألوان التعذيب...».

---

(1) **روزنامه خاطرات عين السلطنة سالور**، ج4، ص 3201.

وأمّا رواية «جعفر قُلي خان» (وهو ممَّن افتعل هذه المعرَكة) فعلى هذا النحو:

«قَدِمَ الرجلان المشهوران «ستار خان» و«باقر خان» إلى طهران؛ واستغلّا عقول السُّذَّجِ، وأخذا يتدخّلان في أمور الحكومة كافّة حتّى عيل صبر المسؤولينَ. هذان الرجلان يقتلان الناس في الشارع أمام الأنظار. قتلا المرحوم السيّد البهبهانيّ في منزله ليلاً. أصبحت أوضاع طهران سيّئة جدّاً؛ فاضطرت الحكومة إلى إصدار مرسوم يقضي بنزع السلاح من أيدي المجاهِدينَ ومنحت الحماية الكاملة لـ«ستار خان» و«باقر خان»، وكانا يسكنان بستانَ «أتابك»... وحاصرت القوات التي كانت بإمرتي و«سردار محتشم» و«يپرم خان»، وهاجمَت البستانَ. وبعد منتصَف اللَّيل بساعة واحدة، تمّ أسر الرَّجُلَينِ، وكانت ساق «ستار خان» مصابة فأرسلناه إلى منزل «صمصام الدولة» القريب من البستان؛ وقد قتِل وجُرح اثنا عشر أميراً من رؤساء البختياريّة، ومثل هذا العدد من المجاهِدِينَ. ثمّ أسرنا 800 مجاهد[بعد تجريدهم من الأسلحة، وزَجَجْنَاهم في السّجن. وبعد أيّام رُفِعَ الحظر عن «ستار خان» و«باقر خان»[1].

ولقد حمّل قتل السيّد البهبهاني الجناحَ العسكريَّ لنهضة الحُكم الدستوريّ مسؤولية تنفيذ الأحكام والفتاوى الصادرة عن مراجع النجف الأشرف؛ ولقد تولّى «ستار خان» هذه المسؤوليّة. وبعد إبعاد «ستار خان» عن ساحة المواجَهة، بَعُدَ أنصار الشريعة والمجاهدونَ المخلصونَ عن مسرح الأحداث. يرى المدقِّق في دراسة هذه النهضة أهميّةَ ووجوب تمييز الأعداء من الأصدقاء، ومخاطرَ تسلُّل الأعداء

(1) **خاطرات سردار أسعد** (جعفر قلي خان أمير بهادر)، ص 13.

وعملائهم إلى مَواقع حُكم البلاد. كذلك، كان اشتراك المؤمنين في الحُكم، إثر النهضة، مع أشخاص لا صلةَ لهم بالزعامة الدينيّة وأتباعها، هفوةً أدّت إلى انقلاب هؤلاء (العلمانيّين) على أهداف الثورة، وإرسائهم قواعدَ حُكم مستقاةً من بلاد الاستعمار.

الفصل التاسع

تحدّي العلماء للاستعمار

نقد الجهد الاستشراقي في التأريخ للمشروطة

عندما أعلنت الحكومة الصفويّة مذهب الشيعة مذهباً رسميّاً في البلاد؛ بدت مهاجَرة العلماء إلى إيران ضرورة ملحّة. وكان العالم المشهور «المحقِّق الكَرَكِيُّ» من أعظم علماء الدِّين في زمن «الشاه إسماعيل الصفويّ». وفي الوقت الذي أعلن فيه علماء السُّنّة أنَّ سَنَةَ سلطنة شاه إسماعيل (سنةَ 907هـ) تعادل في حساب الجُمَّلِ حسب الحروف الأبجدية «مذهب ناحق= المذهب غير الصائب»، وتكدَّر الشاه لذلك بشدّة؛ نهض «المحقِّق الكركي» مدافعاً وأعلن أنَّ هذا التاريخ، حسب الحروف الأبجدية، يساوي جملة «مذهبنا حقّ» (!)

وبعد سنوات؛ ظهر في عصر حكومة الصفوية علماء كبار مثل «الشيخ البهائيّ» محمّد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثيّ العامِليّ (المتوفّى سنةَ 1031هـ)، و«العلّامة المجلسيّ» شيخ الإسلام محمّد باقر بن محمّد تقي بن مقصود علي الأصفهانيّ (المتوفّى سنةَ

1111هـ). فكانت علاقة الدِّين بالدولة، في العهد الصفويّ، علاقةً طيّبة جدّاً قِوامُها الثقة المتبادلة بين الجانبَينِ.

لكن في عصر نادر شاه، الذي كان بعد الصفويّة، لم تكن السياسات المتَّبَعة هي عينَها التي اعتمدَها الحّكام السابقون. فقد خالف نادر شاه السلاطينَ الملتزمينَ بقواعد المذهب الشيعيّ. فخالف علماء الدِّين في سياساتِه الثقافية؛ فكانت إذاً علاقة الدين بالدولة، في العهد الأفشاريّ، علاقةً متوتِّرة.

وفي عهد السلطان «فتح علي شاه»؛ ظهر بعض الإصلاح في تلك العلاقات. وكان علماءُ تلك الفترة علماءَ مشهورينَ.

علماء فترة الحرب الأولى بين إيرانَ وروسيا

- الشيخ جعفر كاشف الغطاء.
- السيد علي المجاهد.
- الملّا أحمد النراقي.

وكان أكبر علماء فترة الحرب الثانية بين إيرانَ وروسيا «السيّد محمّد المجاهد». وفي السنوات التي تَلَت الحكومةَ القاجارية، ظهر على مسرح السياسة الإيرانية علماء كبار، منهم:

- السيد محمّد باقر الشفتي؛ العالِم الكبير وصاحب الدَّور المعروف في قضيّة «هراة».

العلماء المعارضون لـ«امتياز رويتر»

- الحاجّ الملّا علي كني.
- السيّد صالح عرب.

العلماء الكبار المعارضون لـ«امتياز التنباك»

- ميرزا الشيرازيّ (صاحب فتوى التحريم الشهيرة؛ والمُقيم في سامرّاء).
- ميرزا الآشتياني (في طهران).
- الحاجّ الشيخ فضل الله النوري (في طهران).
- آغا نجفيّ (في أصفهان).
- ميرزا جواد آغا مجتهد تبريزي (في تبريز).
- فال أسيري (في شيراز).

لقد كانت فتوى تحريم «التبغ والتنباك» من ضمن التحوّلات التاريخية المهمَّة في إيران؛ ونَصُّهَا:

«اليومَ استعمالُ التتن والتنباك بأيِّ نحو كانَ يُعادِل حُكمَ محاربة إمام الزمان عجل الله فَرَجَهُ.

... محمّد حسن الحسينيّ (ميرزا الشيرازيّ)».

أمّا مفردات نصّ الفتوى فَيُستَشَفُّ منها... :

«اليوم»؛ تُعطي المسألةَ دلالة على الحكم الثانوي (أي تكون حراماً وفق شروط خاصّة).

«استعمال»؛ تعني فِعلَ التدخين، والبيع والشِّراء، وحتّى زراعة التبغ تدخّل ضمن مجال التحريم.

«حكم محاربة إمام الزمان (عج)»؛ هذه الجملة تفوق معنى التحريم، لأنَّ ذِكر المهديّ وتقديس هذا الاسم المبارك («إمام الزمان») يفوقان الشاه والسلطنة. فلم تبقَ لأصحاب هذه المعاهَدة (الاستعمار والحكومة القاجاريّة) أيُّ مشروعيّة أو اعتبار.

هذه الفتوى كانت أوّل ضربة قويّة يوجِّهُها علماء الدِّين إلى حكّام الاستبداد (سنةَ 1309هـ، في العهد القاجاريّ)؛ ومهّدت لحركة «نهضة الحُكم الدستوريّ» التي تَلَت الفتوى بِخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً. وكان مجرى العمل النضاليّ في فترة هذه «النهضة» يختلف بين مدينة وأخرى؛ ففي أصفهان مثلاً، طُولِبَ بالحُكم الدستوريّ الشرعيّ، أمّا في تبريز (القريبة من «القفقاز» والدولة العثمانيّة) فَطُولِبَ بالحُكم الدستوريّ المتطرِّف على الطِّراز الغربيّ.

وقد أخرج المثقّفون المزمِّتون الحاجَّ «ميرزا حسن المجتهد» من مدينة تبريز، ومسَكوا أعمالَ نهضة الحُكم الدستوريّ بقبضة حديديّة؛ فبدأ وقتَها الحديثُ عن تقهقُر «المشروطة المشروعة» أمام المشروطة المُتطرِّفة الميَّالة نحو الأنظمة الغربيّة. وكذلك كان أمرُ «جيلان»؛ فقد حوصِرَ مجتهدُ المدينة «الحاجُّ خمامي» وكدِّر عَيشُهُ، ثمَّ قُتِلَ فمات شهيداً.

وكان «ميرزا حسن المجتهد» و«الحاج خمامي» يناصران أفكار الشيخ فضل الله النوريّ (نهضة الحكم الدستوري الشرعية). وكان آية الله «آخوند ملّا قربان علي الزنجاني» من كبار علماء مدينة «زنجان» ومن مناصري الشيخ النوري كذلك؛ فَنُفِيَ إلى العتبات المقدَّسة بالعراق.

وكان البريطانيّون يضمِرون كلَّ المَقت للشيخ النوريّ الذي قاد الحركةَ النهضويّة ضدَّ الاستعمارِ الأجنبيّ، وطالبَ بقطع يد المستعمِر وإبادةِ الأعداءِ وَنَصرِ الشريعة الحَقَّةِ.

طرأت، في فترة «نهضة الحُكم الدستوريّ»، بعضُ الحوادث بين كبار العلماء؛ منها:

1 ـ **نهضة المشروطة المشروعة**: قادها الشيخ فضل الله النوريّ

وأنصارهُ ضدّ المستعمِر الأجنبيّ، للقضاء على الاستبداد ومقوّماتِه.

2 ـ **الحُكم الدستوريّ المذهبيّ المناوئ للاستعمار**: قاد هذه الحركةَ، من النجف الأشرف، «آخوند الخراساني» وملّا «عبد الله المازندرانيّ» و«الحاجّ ميرزا حسين نجل الميرزا خليل». وأمّا في أصفهان؛ فقد قادها «الحاجّ آغا نور الله الأصفهانيّ» و«آغا النجفي الأصفهانيّ». وفي شيراز؛ كان السيّد عبد الحسين اللاري عميد هذه الحركة النضالية.

وكان العقل المدبِّر لأعمال هذه النهضة العظيمة فريد عصره القائد الفذّ آية الله الميرزا حسين النائينيّ المقيم في النجف الأشرف صاحب كتاب «تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة».

وكانت وسيلة العلماء في النهضة التفكُّرَ الاجتهاديَّ الشيعيَّ. وكانوا على دراية عميقة بأساليب ونوايا الغرب الاستعماريّ ومخطّطاته. فنادى هؤلاء العلماء بالإصلاح السياسيّ الـ«لا غربيّ» (فهُم روّاد الحُكم الدستوريّ الـ«لا غربيّ»).

3 ـ **تيار الحُكم الدستوريّ الحرّ**: منه قِسمانِ؛ الأوّل هو ذلك المتطرِّف الميَّال إلى سياسة الغَرْب، لكن المخالِف للاستبداد. ويَرغب روّادُه في الازدهار والتقدُّم وإصلاح الأوضاع وَفقَ الطريقة الغربيّة. مشكلة هؤلاء الوحيدة هي اعتقادُهم بأنَّ الحلّ دَوماً يأتي من الغَرْب. وقد ارتبط هؤلاء بالماسونيّة. أمّا الثاني؛ فهو المعتدِل المائل إلى الاتّجاهات الدينيّة ـ المذهبية. روّادُه السيّد عبد الله البهبهانيّ، والسيّد محمّد الطباطبائيّ (ذَوَا المصداقية والنيّات الحَسَنَةِ)، وكانا ألدَّ أعداء الاستبداد القاجاريّ. واشتُهِر آية البهبهانيّ بالحَسْم والجَزْم، أمّا السيّد الطباطبائيّ فكان مُرهفَ الحسِّ سريعَ التأثّر، جاهد جهاداً

كبيراً في تنفيذ القوانين وتحقيق العدالة واستقرارِ الحُكم الوطنيّ. كذلك؛ لم يَكُنِ السيّد الطباطبائيّ مُدرِكاً حجمَ خطر الغرب والاستعمار وعملاءِ السياسة الأجنبية، فلمْ يعارِض حادثة الاعتصام في السفارة البريطانيّة، مع أنها جريمة تاريخيّةٌ لا تُغتفَر ضدّ نهضة الحُكم الدستوريّ. وفي الصفّ التالي للنهضة يأتي دَور جمال الدِّين الواعظ الأصفهانيّ، وملك المتكلِّمينَ. ولعلّ الظاهرَ يَشِي بكَونِهما من أصحاب العقائد والنظريّات الضالّة. وقد حاولت الجماعة المدعومة من الاستعمار داخلَ حركة نهضة الحُكم الدستوري تعظيمَ وتفخيم هذَين الرَّجُلَينِ؛ فنشرَت أقوالَ وَخِطَبَ جمال الدِّين الواعظ الأصفهانيّ في جريدة «الجمال».

4 - **تيار العلماء الصامتينَ (الحياديّينَ)**: كان مِن علماء النجف الأشرف مَن يؤيّد الحكم الدستوريّ الدينيّ، ومَن يؤيّد الحُكم الدستوريّ الحُرّ. وكان ثمّةَ فريقٌ محايِد بين هذَين الفريقَينِ؛ مِنه العالِم المقدَّس آية الله السيّد إسماعيل الصدر، وآية الله ميرزا الشيرازيّ الثاني. لكن تجدر معرفةُ أنَّ أفرادَ الفريق المُحايِد كانوا روّادَ مناهَضة الاستعمار ومكافَحة الاستبداد (فَهُمُ الذين أوقدوا نار ثورة العشرين في العراق، وتزعَّموا فرسان الثوّار ضدّ الاستعمار البريطانيّ)، إلّا أنّهم لم يغوصوا في الأساليب المتبايِنة بين العلماء الآخَرينَ حول كيفيّة القيام بالنهضة عَمَلِيّاً.

وبعد إعدام الشيخ فضل الله النوريّ، ابتعد العلماء عن السياسة، حتّى سِيءَ الظَّنُّ بنهضة الحُكم الدستوريّ. وكان جمعٌ من المؤرِّخينَ الميّالينَ إلى السياسة الغربيّة يعتقدون بأنَّ نهضةَ الحُكم الدستوريّ المتطرِّف العصريّ تبعث النشاط في الجماهير وتفضي إلى سرعة إقامة الحُكم الدستوريّ. لكنَّ هذا التصوُّر خاطئٌ بدليل أنّ:

1 ـ هذا الطَّيفُ لا يعبِّر عن آمال الجماهير.

2 ـ لا يمكن للأفكار الغربيّة والسياسة الأجنبية أن تضع الشاه والاستبداد تحت علامة استفهام؛ وليس لهؤلاء قاعدة شعبيّة واسعة يمكن الاستنادُ إليها.

شعارات الشهيد فضل الله النوريّ ومطالبه

وقف الشيخ في وجه التطرّف الغربيّ؛ وكانت مَطالِبُه:

1 ـ أن تضاف كلمة «الشرعيّ» بعد اصطلاح «الحُكم الدستوريّ» (المشروطة المشروعة).

2 ـ تعيين خمسة علماء مجتهدينَ لدراسة مشاريع القوانين التي تُعرَض على المجلس النيابيّ، والتأكُّدِ من عدم مخالفتِها للشَّرع والمذهَب.

3 ـ القضاء على الفِرقة الضالّة الـ«بابيّة»، وتنفيذ كلّ ما أفتى به آية الله الملّا محمّد كاظم الخراسانيّ (زعيم نهضة الحُكم الدستوريّ في النجف).

4 ـ من أجل حصر لوائح ومقرَّرات المجلس النيابيّ ضمن إطار تعاليم الدِّين الإسلاميّ الحنيف؛ يجب إضافة مادّة إلى القانون الأساسيّ تفيد بأنَّ تنفيذ القوانين المُصادَق عليها يجب أن تكون تحت إشراف المجتهدين المشار إليهم في المادّة 2.

كان موضوع الحُكم الدستوريّ المخالف للغرب ذا مسار متشعّب ومعان عميقة مهمّة؛ لأنّ عناصر هذا المسار هُم لسان القوم ومثال الإرادة الشعبية، يوجِّهون الناسَ في الوُجهة الصحيحة وفي الوقت المناسب. أمّا المُدُنُ التي كان لها الدَّورُ الأساسيُّ في نهضة الحُكم الدُّستوريّ؛ فهي: تبريز وأصفهان وطهران وشيراز ورشت.

لكنَّ المستعمرينَ الانتهازيّين وعملاءَهم تمكّنوا من التسلّل إلى صفوف النهضة والتظاهر بأنَّهم مِن حَفَظَةِ الوطن؛ حتّى أحكموا قبضتَهم على مُجرَيات الأمور، بعد استبعاد العلماءِ والقادَة الوطنيّين، وفَرضوا «فصلَ الدِّين عن السياسة»، وأنشأوا الأحزابَ شبه العلمانية، والديمقراطية، والمعتدِلة.

عيوب المستشرِقينَ

1 ـ تدوين كتبهم بنظرة وأفكار غير إيرانية؛ فمع الفوائد التي يمكن أن تحملها تحليلاتُهم السياسيّة، يبقى عدمُ تعمّقهم في المسائل الوطنية الإيرانية، وكذلك عدمُ إدراكِهم لجذور الأمور وعلاقةِ بعضها ببعضها الآخَر.

2 ـ نظرة المستشرقينَ الغربيّين المُفعَمَةُ بالغرور والتكبّر والاستعلاء الأوروبيّ، وهم يؤمنون بأفضليّة قوميّتهم على قوميّة أهل الشرق؛ ما أثّر في فهمِهم لتاريخ إيرانَ وشعبها.

3 ـ أدّى المستشرقون دوراً بارزاً في تحريك الأقليّات المذهبية والإشيّات الإيرانية؛ فجعلوا منهم أداة طيّعة يوجِّهونَها لتنفيذ مآربهم. فمثلاً ذكَر البروفسّور «إدوارد براون»، في كتابه «تاريخ ادبيات فارسى»، مطالب باطلة وأخبار كاذبة حول الفِرقة «البهائيّة» و«البابية» الضالّتينِ؛ فعرضهما بصورة الجماعة المظلومة البائسة، واستجدى لهما العطفَ والرأفةَ.

4 ـ التأكيد على العناصر الدينيّة والمذهبية وسعيهم الدؤوب لعزل الدين عن السياسة والقضاء على الأُلفة الوطنية ـ الدينيّة؛ وإشعال الفتنة القوميّة بين أطياف الشعب الإيرانيّ.

5 ـ إغفالهم المواضيعَ الرئيسة في التاريخ الإيرانيّ.

6 ـ عدم معرفتهم كنهَ الإسلام والتشكّلات الإسلاميّة؛ ما حداهم على إبداء التحليلات الخاطئة لكثير من الحوادث والأفكار الإسلاميّة.

ويمكن تلخيص رُؤى الغربيّينَ في مؤلّفات المستشرقينَ بـ:

1 ـ تجرّد الإيرانيّينَ من الفِكرَةِ والفِكرِ والتَّفَكُّرِ.

2 ـ الإيرانيّون أمّة هامدة خرساءُ طَوعُ العنان مطواعة للحكّام.

3 ـ الإيرانيّون مُداهِنون متملِّقون.

4 ـ لا مكانَ للإيرانيّينَ في النقد والاجتهاد والانتخاب.

5 ـ الإيرانيون أمّة محرومة.

لذا، لا يمكن الاعتماد على مؤلَّفات المستشرقينَ، لما فيها من تحريف لكثير من الحقائق.

أ ـ سياسة المستشرقينَ الغربيّين وتاريخ إيرانَ

كان الاستشراق الخاصّ بإيرانَ في عصر القاجارية موضةً عصرية منتشرة في الدول الغربية؛ وتعتبَر دراسة إيرانَ القاجارية فرعاً من فروع ودراسات الاستشراق. وإنَّ كلَّ دراسات المستشرقينَ حول إيرانَ كانت ذات طابع سياسيّ غربيّ استعماريّ، لا سيّما في مجال التاريخ الإيرانيّ. كذلك، كان ثمّة ثلاثة مَواضيع تاريخية يُدرس التاريخ في ضَوئِهَا، هي:

1 ـ تدوين التاريخ ماركسيّاً (حسْب النظام الشيوعيّ).

2 ـ تدوين التاريخ قَوميّاً (حسْب التعصّب القَوميّ).

3 ـ تدوين التاريخ علميّاً.

ب ـ «الدراسات الإيرانية» الروسية (الرؤية الشرقية الماركسية):

قلّما دوِّن ما هو إيجابيٌّ حول تاريخ إيران في كتب المستشرِقينَ المتخصِّصِينَ؛ أمّا نماذج ذلك فـ:

1 ـ امتازت هذه الكتب في طرح دَور العوامل الاقتصاديّة في تغيير الأوضاع الاجتماعيّة والثقافيّة. فقرّر هؤلاء الكتّاب أنَّ جميع التحوّلات الاجتماعيّة والسياسيّة كانت نتيجةَ الوضع الاقتصاديّ (مثلاً دَور تجّار التنباك المهمّ في نهضة «تحريم التنباك»؛ فاعتبِر التجّار روّادَ هذه النهضة).

2 ـ هذه الكتب قدّمت للجماهير دورهم الفاعل في الثورة والنضال وصمودهم أمام الاستكبار المُهيمِن على سَيرِ حوادث ذلك الزمن (مثلاً الاهتمام بالنضال الجماهيريّ أكثر من أخبار الأمراء والسلاطين).

3 ـ اشتمال هذه المؤلَّفات على: مواجهة الآراء الغربية حول إيران، ومناقشتها. وهذا من محاسن هذه الدراسات؛ إذ هي تشكك في الأحكام والمواقف الغربية.

وكانت نظرة المستشرقينَ المخصِّين بالتراث الإيرانيّ رسمياً نظرة شكّ وريبة. أمّا شوائب هذه الدراسات فتتمثَّل في:

1 ـ نظرة المؤرّخينَ الروس نظرة ماركسيّة؛ تنقسم إلى قِسمَينِ:

أ ـ أرثوذكسية أي قطعية وأصولية.

ب ـ اليساريّون المستجدّون (الذين عرفوا بعض أصول الماركسيّة ولكنهم لم يؤمنوا بها ولم يلتزموا بمفاهيمها).

والظاهر أنَّ دراسة تاريخ إيرانَ وَفقَ النظريّتَينِ هاتينِ غَيرُ سليمة؛

تضلّل القارئ حول أحداث التاريخ. وثمّة العشرات من المقالات لليساريّينَ القدماء؛ أمثال «أنصار وأعضاء حزب توده» واليساريّينَ الجدد وقد خاضت لجّة «علم الاجتماع السياسيّ» وفرضت أفكارَها بدون اعتبار الحقائق التاريخيّة، وقد بنِيَت مقوِّماتُها على أساسات مسبقة «أورش» (أي فرض الأفكار الطبقيَّة والماركسيّة على الأحداث والحقائق التاريخيّة).

2 ـ لقد جعل هؤلاء الفَوارق الاقتصاديّة الطَّبَقِيَّةَ للأشخاص في مصافّ العوامل السياسيّة والاجتماعيّة، وعمموا هذه الفرضية على طبَقة معيَّنة (مثلاً؛ لدى إشارتهم إلى بؤساء تاريخ إيرانَ؛ يقولون إنَّ كلّ الظالمين في التاريخ هم من طبقة الأشراف أو أبناء الأثرياء).

مقابل هذا؛ نرى أحدَ التجّار الإيرانيّينَ أحرقَ عدداً كبيراً من أكياس التبغ امتثالاً لفتوى التحريم، لذا فإنَّ عدداً من التجّار تنحّوا عن النظرة الطبقيَّة والأرباح الاقتصاديّة ونفّذوا الفتوى الشرعيّة إكباراً للوطن ونصرةً للاستقلال. وإنَّ هذه التضحياتِ لا ترقى إلى فَهمِها الشيوعيّةُ ولا التحاليلُ الماركسيّة.

3 ـ النظرة الشرقيّة (الروسيّة) معقَّدة متطرِّفة، أَحاديّة الجانب. شيّدها أنصارُها على الجدليّة الـ«هِيغليّة» (الديالكتيك المادّي) الفلسفيّة، واعتبروها أساساً للمقارَنة. ودوَّنوا شرح حوادث التاريخ الإيرانيّ وَفقَ النظريّة المشهورة: «تِز ← انتي تز ← سانتز». وإنَّ هذا النوع من القياس يؤدّي بعِلم التراث الشرقيّ إلى حسْم ونهاية المفروض. وقد أهمل مؤيِّدوا هذه النظريّة القِيَمَ والاعتبارات (ولم يدرُسوا الأمورَ كما يجب أن تدرَس).

4 ـ الانتقاد الذي وجّهه الكتّاب الرُّوس إلى التزار» حول حوادث إيرانَ كان ذريعةً لتبرئة أنفسهم من الجرائم التي ارتكبها أولئك.

5 ـ النظرية الماركسيّة، كما اللّيبراليّة، مادّيّة تبتغي الأرباح الماليّة الاقتصاديّة، وتبتعد عن التحليل المعنويّ ـ الاعتباريّ الأخلاقيّ. ولم يتمكّن أنصار هذه النظريّة من ملاحظة القيَم والاعتبارات المعنويّة الكامنة بين سطور تاريخ إيرانَ شامخة تمنح الحياة الحرّة الكريمة لأبنائها النجباء.

والظاهر في تاريخ إيران الحديث (العقود الأخيرة من القرن الماضي) هو نظرة تاريخيّة بمنظار يساريّ جديد وأخرى بمنظار يمينيّ جديد؛ أو تفسير يتعلّق بعلم الاجتماع التاريخيّ، أو تقديم نظريات ضمن إطار خاصّ أعدّوها مسبَّقاً.

نقد المشهورات في المشروطة (الأرضيّة، الأسباب، الماهيّة، الهدف، النتائج)

نقطتان رئيستان بعنوان بدية:

الأولى: في الفلسفة يُبحث في المادّة وصورة الأشياء والموجودات نظريّاً؛ لكن لدى دراسة هذا الموضوع تاريخيّاً، ستكون هذه المادّة «مادّة أولية تاريخيّاً»، يعني أنها لا تتجاوز نقل الأخبار والحوادث والأنباء. و«الصورة التاريخيّة» تعني منح الجزئيات شكلاً معيَّناً يكوِّن صورةً يستسيغها السامع. لذا فإنّ نقد المشهورات وتحريف الحوادث التاريخية لثورة الحكم الدستوريّ يشمل الحالتَينِ؛ «المادّة والصورة».

ويمكن تسمية نقد المادّة الخاصّة بتاريخ الحوادث والوقائع («نقد

التاريخ النقليّ» و«نقد التاريخ الواقعيّ») باسم «التاريخ التحليليّ».

الثانية: إنَّ «كيف وَلِمَ» في «صورة الجزئيّات» و«صورة الكليّات» في تاريخ «ثورة الحُكم الدستوريّ»، تستعمَل في فترتَينِ من فترات هذه الثورة:

أ - فترة تدوين تاريخ «المشروطة» بيَد الكتّاب والمؤرّخينَ العلمانيّينَ.

ب - فترة تدوين الحوادث والوقائع التاريخية المعاصرة بيَد العلمانيّينَ.

لذا يجب الاعتراف بأنَّ «المشروطة» لا تنتهي لدى هؤلاء عند حدود التاريخ ورواية الأحداث التاريخية، بل أرسَت قواعدَها في مجالات العلوم الإنسانيّة الأخرى المختصّة بدراسة الشؤون الإيرانية (مثلاً علم الاجتماع في إيران، علم التطوّر السياسيّ، العلوم السياسيّة، الفكر السياسي، علم الإناسة (الأنثروبولوجيا). ... وأخرِجت كلُّها عن مسارها الصحيح وأفكارها الرائدة؛ في الوقت الذي تحتاج فيه هذه العلوم إلى تاريخ شيِّد على أسُس المصداقيّة ودقّة الخبر والتحليل السليم.

ونتيجة الإبهام في مجال تدوين التاريخ، ينشأ الإبهامُ في كلّ العلوم المستنِدة إلى «التاريخ»؛ فتبني تحاليلَها واستنتاجاتِها على أساس الأخبار التاريخيّة المُبهمَة!

إنَّ اعتمادَ أسلوب الاستفهام بـ«لماذا» و«كيف» (للتَّبيُّن من الموجود وغير الموجود تاريخيّاً)، يسوق البحثَ إلى:

1 - علامة سؤال/استفهام (؟) تلاحق بعض الحوادث والأفكار والوقائع العلمانية في «نهضة الحُكم الدستوريّ»، والتي خرجوا بها عن مواضع القيَم التاريخية التي اشتهروا بها.

2 ـ الصدمة الأليمة أصابت بعض مقدِّمات «نهضة الحُكم الدستوريّ» وضعضعت تحليل هذه النهضة وأظهرتها بحلّة أخرى، أظهرت أساسَها ومنطلَقَها بشكل لا ينطبق على ما هي عليه الحقائق الواقعيّة.

أمّا الظواهر الكاذبة لفترة «الحركة الدستورية» والجديرة بالتأمّل والتقييم، فهي:

1 ـ مجال معرفة قادة النهضة؛ لأنَّ هذا الموضوع يستحقّ البحث والدراسة على المستوى الدولي والوطنيّ والمحلّي.

2 ـ مجال تقسيم سنوات ومَقاطع هذه النهضة إلى فترات معيّنة.

3 ـ دراسة «تضخيم وتفخيم» و«تصغير وتحقير» الأمور؛ والغلوّ في عرض الوقائع أو إهمال أهميَّة بعضها.

4 ـ البصمات الخاوية والتحاليل والدِّراسات حول علاقة بعض المثقَّفينَ والأحزاب والجمعيّات والرجالات، بطبقات الشعب وأبناء الأمة؛ وتأثيرِ هذا في الحوادث الأخرى.

5 ـ أعلن المعارضون مخالفتهم للنهضة والأمة والحرّية؛ ولم يتقبّلوا أيّ نقدٍ أو سماع الرأي الآخر.

6 ـ ربط مصير نهضة الحكم الدستوري كليّاً بنظام العصر البهلويّ؛ فأدخلوا الوفاق والنفاق السائد، في تلك الفترة، في تحليلات نهضة الحكم الدستوريّ.

7 ـ إظهار الخيانات بمظهر خدمة الوطن، وإظهار البطولات الوطنيّة بمظهر الخيانة للوطن (مثلاً حادثةُ الاعتصام في السفارة البريطانية بطهران).

8 ـ فرض نظريّة واحدة على كلّ الأمور (مثلاً؛ جعلوا كلَّ ما

يتعلّق بنهضة الحُكم الدستوريّ، من نداءات ونعرات مخالِفة، على نحو ما جاء في كتاب «تاريخ بيداري ايرانيان= تاريخ صحوة الإيرانيّين»، لا غير. وكان اعتمادُهم في تحاليلهم على مصادر من هذا النوع).

9 ـ إبعاد محور حركة النهضة عن النجف الأشرف، وتحريف الفتاوى الصادرة عن مراجع التقليد في النجف، التي أثّرت خير تأثير في الشعب الإيرانيّ المؤمن.

10ـ رفعوا من شأن المطبوعات والسّاسة والثوّار المناصرينَ لآرائهم وعقائدهم، وأهملوا اعتقادات الرأي الآخر.

11ـ عظّموا دَور المنظَّمات السرية التابعة لهم، وتأثيرَها في الرأي العامّ؛ وهمّشوا نضالات المنظَّمات الأخرى.

12ـ صوّروا هذه الثورة على شكل الثورة الفرنسيّة؛ فجعلوا علماء الدين الشيعة قساوِسة، والمفكِّرين العلمانيّينَ مفكِّرين عقلاءَ، وطبقات الشعب الإيرانيّ مشابهة لطبقات شعب أوروبّا. كما أطلقوا على التجّار تسمية «برجوازيّينَ» وعلى الملّاكينَ تسمية «فيوداليّينَ» (إقطاعيين).

13ـ لم يبنوا القيّم التاريخية للمُدُنِ والمحافظات على مقدّمات ومصداقيّة التاريخ والوثائق الدَّامغة.

الخلاصة

إنَّ أيَّ تحليل لأصل نهضة الحكم الدستوريّ وماهيَّتها يكون خاوياً هشّاً إن لم يتطرَّق إلى نظريات العلماء الشيعة وآرائهم، وتأثير منشوراتهم وفتاواهم في توعية جماهير الشعب؛ وإلى دَور الاجتهاد والعقائد السياسيّة الشيعيّة في قيام نهضة الحُكم الدستوريّ (مثلاً

مفاهيمُ الحرّية والشهادة والعدالة والمساواة والأخوّة في العقائد الدينيّة المقدَّسة). كلّ هذا قد أغفلتْهُ الكتب التاريخيّة العلمانيّة بعد استقرار الحُكم الدستوريّ والعقود التي تَلَتْهُ؛ وحلَّ محلَّها الأخبار الكاذبة والأجواء المُصطنَعة وَخَلقُ الأبطال والوقائع والحوادث، حتّى تُرسَى للأجيال الآتية عقائدُ نظريّة وضِعَت في إطارٍ أُعِدَّ له مسبقاً ليُفرض على التاريخ تضليلاً.

الفصل العاشر

الملكية الفاشلة والحكومات المهتزّة

في الأول من آب سنةَ 1914م[1]؛ واجهت شعوب العالَم حرباً مدمِّرة أحدثت تغييرات واسعة ولا سيّما في الشرق الأوسط. كما واجه ملك إيران «أحمد شاه» (الجديد على العرش) مشاكل عظيمة بفعل هذه الحرب.

وفي تلك السنة، بدأ مجلس الشورى دورتَه الثالثة، وبعد مدّة

---

(1) بدأت الحرب العالميّة الأولى بعد مقتل وليّ عهد مملكة «النمسا» في مدينة «البوسنة» في «صربيا». اشترك في الحرب «ألمانيا» و«إيطاليا» تحت اسم المحور و«صربيا» و«بريطانيا» و«فرنسا» تحت اسم الحلفاء. ثمّ خرجت إيطاليا من معسكر الحلفاء وانضمّت إلى الحلفاء؛ كما الْتَحقت الدولة العثمانية بمعسكر دول المحور. أمّا إيرانُ فقد أعلن رئيس وزرائها «مستوفي الممالك» أنَّ حكومة «أحمد شاه» قرّرت الوقوف على الحياد. ولم تُعِرِ الدول المتخاصمة أهميّة لهذا الحيادِ، لأنَّ إيرانَ قبل الحرب كانت تحت نفوذ الرُّوس والبريطانيّين؛ لذا احتلّت الدولة العثمانيّة مناطق من إيران، وأصبحت إيرانُ ساحةً للحرب شاءت أم أبَتْ.

وجيزة تعطّلت أعماله كافّة بفعل أحداث الحرب. وقد انقسم نوّاب المجلس آنذاك إلى أربع فئات:

- الديمقراطيون.
- المعتدلون.
- العلماء ورجال الدِّين.
- المحايدون.

وقد سقطت اثنتا عشرة وزارة أثناء الحرب؛ بفعل علاقة إيرانَ ببريطانيا وروسيا والدولة العثمانيّة المشاركة في الحرب.

معاهدة سنة 1915م، وتأسيس شرطة الجنوب

في السنةِ الأولى من الحرب؛ حصل الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا وصربيا) على مكاسبَ كثيرة. أمّا في سنة 1915م، حين انضمّت الدولة العثمانية إلى القوى الألمانية والنمساويّة والمجريّة، وأضحت جبهة قويّةً أنزلت بقوى الخصم ضربات مُهلِكة؛ فقد بُذلت جهود كبيرة للتصدّي للتقدّم الكبير الذي أحرزه الأعداء، منها عقد المعاهدات السرية ومنح الامتيازات الكبيرة والْتِحاق إيطاليا بتلك الجبهة. فكانت سنة 1915م سنة الاتّفاقات السرّية.

أمّا إيرانُ فقد كان للبريطانيين جبهة وللرُّوس جبهة أخرى، في أراضيها، وفق معاهَدة سنةِ 1907م. وقد اعتبر المستعمِرون هذه المعاهَدة سارية المفعول وأدخلوها ضمن معاهَدة 1915م. فاستولى الروس على شمال إيرانَ وبعض المنطقة المحايدة (التي لم تستمرّ في كونها محايِدة؛ إذ لم يُسمَحْ لها في ذلك!)، واستولى البريطانيون على جنوب إيرانَ، وقد حصلوا على موافقة خاصّة تمنحهم حقَّ تشكيل قوّات عسكريّة خاصّة بهم. لذا كان لقوّات القزاق (ديويزيون)

الروسية وقطعات شرطة الجنوب البريطانيّة، الإشرافُ التامُّ على بعض الأمور. كما أنَّ الأمور الماليّة للمملكة كانت تحت نظر لجنة قوامها الخبراء الرُّوس والبريطانيون.

مقاومة الشعب الإيرانيّ:
حادثة الهجرة وتأسيس لجنة الدِّفاع الوطنيّ

عندما رأى الشعب الإيرانيّ وطنه بين فكَّي كمّاشة، بريطانيّة - روسيّة، في شمال وإيرانَ وجنوبها؛ قرّروا تأسيس منظَّمات مقاوَمة شعبيّة. وقد حاول آنذاك بعض رجالات إيران، لحفظ استقلال المملَكة، مساعدةَ القوى المضادّة للحلفاء (يعني العثمانيّين والألمان، اللَّتين هما من دول المحور) لصالح الوطن.

من جانب آخر؛ أعلن بعض مراجع العراق الجهادَ دعماً ونصرةً للمتفقين؛ منهم آية الله السيّد محمّد كاظم اليزديّ (مرجع تقليد الشيعة)، والسيد محمّد سعيد الحبوبي، وشيخ الشريعة الأصفهانيّ، والسيد مصطفى الكاشاني، والسيد أبو الحسن الأصفهانيّ، والشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء، والشيخ مهدي الخالصيّ. وقد شارك عددٌ من العلماء وطلّاب الحوزات العلميّة في الجهاد إلى جانب عامة الشعب.

وفي تلك الفترة احتلّ الرُّوس مدينة قزوين، وأرادوا فتح طهران كذلك. وحين وصلوا إلى مَشارف طهران، خرج عددٌ كبير من رجال المدينة ومعهم عدد من قوّات الدَّرَك الذين لم يعملوا مع البريطانيين ولا الرُّوس، متوجِّهِينَ إلى «قُم» المقدَّسة.

وقدّم رئيس الوزراء «مستوفي الممالك» اقتراحاً للشاه بنقل العاصمة من طهران إلى أصفهان. فأعلن البريطانيون والرُّوس حرباً

(دعائيّة شعواءَ) فاضطرَّ الشاه إلى عدم مغادرة طهران. لكنَّ القوى النضالية الأخرى غادرت طهران إلى «قُم» المقدَّسة حيث أسَّسوا «منظَّمة المقاوَمة الوطنية».

وعندما شنّت القوات الروسية حملتَها الكبرى على مدينة «قُم»، تراجعت قوّات المنظَّمة إلى مدينة «كاشان» ثمَّ إلى أصفهان (وقد انضمّ إليهم عددٌ مضاف من رجال الوطن للمقاوَمة)؛ وكان وجودُ بعض علماء الدين معهم (مثل الحاج آغا نور الله الأصفهانيّ...) دفعاً معنويّاً لهم.

وساروا من أصفهان إلى كرمنشاه حيث شكّل «نظام السلطنة» حكومة وطنيّة برئاسته. لكنَّ وجود بعض الانتهازيّين في صفوف المهاجرينَ، وعنف حزب الديمقراطيّينَ المتزمِّت، أدّيا إلى وقوع فتنة بين المهاجرينَ، وتعرقلَت أعمال الحكومة الفتيّة. فتمكّنت القوّات الروسية من القضاء عليهم! فتوجّهت الجماهير المهاجرة إلى أراضي الدولة العثمانية[1].

وفي جنوب إيرانَ (منطقة السيطرة البريطانيّة)؛ نهض رجال «فارس» و«بوشهر» في وجه الاحتلال البريطانيّ وقطعات شرطة الجنوب. وكان لأبطال هذه المنطقة، مثل «الرئيس على دلواري» و«زائر خضرخان تنكستاني» و«صولة الدولة قشقائي» دَورٌ هامّ في

(1) وعندما وصل آية الله المدرس إلى اسطنبول قابل السلطانَ العثمانيّ محمّد الخامس وأعضاء مجلس الوزراء؛ ثمّ ألقى كلمة قال فيها: «قصدُنا من الهجرة إلى بلادكم هو طلب الكفّ عن إرادة إلحاق (إخضاع) قِسمٍ من آذربيجان». كما كان اعتراض من آية الله المدرس على تسمية نوع من الشاي بـ«العجميّ» وطلب تسميتَه بـ«الشاي الإيرانيّ»، فالإيرانيون أعطوا للإسلام الكثيرَ وساهموا في خدمات جمّة للآداب العربيّة، ومنهم رجال أصالة ونبوغ وعِلم وآثارٍ عظيمة.

تضييق الخناق على قوّات الاستعمار البريطانيّ (فقد وجّهوا إليهم ضربات موجعة)؛ إلّا أنَّ كثرةَ البريطانيّينَ مكَّنتهم من قتل عدد كبير من المقاومينَ، ومن دخول «فارس» و«بوشهر» والسيطرةِ عليهما.

نفط إيرانَ وجشع الاستعمار البريطانيّ - الروسيّ

في سنة 1319هـ؛ تمكّن الخبير البريطانيّ «وليام ناكس دارسي» (بمساعدة وزير الخارجيّة البريطانية والوزير المختار البريطانيّ) من الحصول على امتياز استخراج النفط من حقول جنوب إيران. ووظَّفت بريطانيا أموالَ أحد الأثرياء لتأمين النفقات الهائلة التي تحتاج إليها عمليّة استخراج النفط ليكون وقوداً لبارجاتها الحربيّة.

وفي سنةِ 1908م؛ تمّ اكتشاف أكبر حقل نفطيّ... فتشكّلَت شركةُ نفط «إيران ـ بريطانيا»! وفي بداية الحرب العالميّة الأولى؛ نقل النفط بوساطة أنابيب ضخمة إلى مصفاة «عبادان»، ما ساعد بقوّة على كسب بريطانيا الحربَ.

وكانت شركة نفط «إيران ـ بريطانيا» تقدّم النفط لبريطانيا بأسعار زهيدة (وقد أصبحت بريطانيا المالكَ الرئيس لحقول نفط الجنوب الإيرانيّ). كذلك حصل الرُّوس على امتياز استخراج النفط الإيرانيّ من منطقة «مازندران» (شمالَ إيران)؛ إذ اشترى الامتيازَ رجل روسيٌّ يُدعى «خوشيارا» من «محمّد ولي خان خلعتبري»، في سنة 1916م. وفي السنة إيّاها؛ أجبرَت روسيا دولةَ إيرانَ على منح «خوشيارا» امتيازَ استخراج النفط والغاز الطبيعيّ والقير والشمع المعدنيّ (= أوزو ستريت) من أراضي مُدُنِ «گيلان» و«مازندران» و«استرآباد»، لمدّة 70 سنة!

ومع سقوط حُكم القياصرة في روسيا، وظهور الدولة الشيوعيّة؛ لم يتمكن «خوشيارا» من تنفيذ مفاد الامتياز (فبقي هذا الامتياز بيَد

الدولة الاشتراكيّة المتطرِّفة ذريعةً للحصول على امتيازات استخراج نفط الشمال الإيرانيّ).

ومع تولّي الشيوعيّةِ الحُكمَ في روسيا؛ ألغَت معاهَدة سنة 1915م السّرّيّة، وأمَرَت قوّاتِها كافّةً بالعودة إلى روسيا. ووقَّعت الحكومة الشيوعية معاهَدة سلام مع ألمانيا والنمسا وبلغاريا والإمبراطورية العثمانية؛ كما تعهّدت، بضمانات منها، بِتَركِ الأراضي الإيرانية إذا سحبت الدولة العثمانية جنودَها وقطعاتها العسكرية من إيرانَ.

المعاهَدة التي دنّست أرض الوطن (معاهَدة «وثوق الدولة»)

بعد أن تركت العساكر الروسية أرض إيرانَ؛ نقلت بريطانيا مقرَّ قيادة قطعاتها المسلَّحة إلى مدينة قزوين للسيطرة على شمال وشمال غرب إيرانَ، ولضمان نفقات قطعات «القزاق» التي مرّ عليها زمن بدون استلام راتب ولا قائدَ يدبِّرُ أمرَها. فعيّنت عملاءَها وأنصارَها في مناصبَ مهمّة ورئيسة؛ ومن هؤلاء كان «رضاخان ميربنج» الذي كان تحت رعاية الجاسوس البريطانيّ بشكل مباشر.

وفي هذا الوقت؛ تمكّن وزير الخارجيّة البريطانيّة اللورد «جورج كورزن» من فرض معاهَدة سرّيّة عرفت بمعاهَدة سنة 1919م (معاهَدة «وثوق الدولة»)؛ وساعده على ذلك عملاؤهُ «ميرزا حسن خان ـ وثوق الدولة» (رئيس الوزراء) و«نصرت الدولة فيروز» (وزير الخارجيّة) و«أكبر ميرزا صارم الدولة» (وزير الماليّة).

وتقضي هذه المعاهَدة بأن يتولّى المستشارونَ البريطانيون الأمور المرتبطة بالقوّات المسلَّحة، كافّة، وأمور الماليّة والاقتصاد؛ وبأن تدفع إيرانُ رواتبَهم والمخصّصات المقرَّرة لهم، كافّة. وفي مقابل هذا سيطرة إيرانَ على أرجاء الوطن كافّةً. كما تنصّ على وجوب حلّ قطعات «القزاق» العسكريّة وقوّات الدَّرَك كافّة، وتشكيل جيش موحَّد

التنظيم تحت إمرة ضبّاط بريطانيّينَ؛ وعلى أن تغيَّرَ ضرائب الجمارك والمكوس كافّة لصالح بريطانيا. وتتعهّد بريطانيا بدفع سلفة ماليّة لإيرانَ بمقدار «مليونَي باوند بريطانيّ».

ثار الشعب الإيرانيّ بأسره ضدّ هذه المعاهَدة، على رأسه آية الله المدرس. فهدّد «وثوق الدولة» بالاعتقالات لكلّ مَن يخالِف المعاهَدة. وشعرت بريطانيا الخطر المحيط بالمعاهَدة، فأرسلَت ممثِّلَها إلى طهرانَ؛ لكنْ ظلَّ الغليان الشعبيّ ضدّ أمر المعاهدة.

وعندما علم «أحمد شاه»، الذي كان في جولة أوروبيّة، وقد وصل إلى لندن، بأمر المعاهَدة؛ رفض تأييدَها، فثار غضب البريطانيّينَ عليه.

وفي مدينة «جيلان»؛ نهض المناضل المشهور «ميرزا كوچك خان جنگلي» ضدّ الحكومة الخانعة اعتراضاً على تدخّل الرُّوس والبريطانيّينَ في حكم البلاد. وعندما سمع بغضب الناس على المعاهَدة، قرّر اتّخاذ موقف حاسم تأييداً لمُخالِفيها. أمّا في تبريز فقد نهض الشيخ محمّد الخيابانيّ اعتراضاً على المعاهَدة وعلى «وثوق الدولة» ووزرائه، واستولى على المدينة استيلاءً تامّاً.

وواجه سُراة الدولة ومُوَقِّعُو المعاهَدة طريقاً مسدوداً لا مفرَّ منه؛ رغم أن ضياء الدين الطباطبائيّ قدّم الدعم لهم وأيّدهم، إذ وضع جريدتَه «الرَّعد» في خدمة الدِّفاع عن «وثوق الدولة» ووزرائه وأنصاره.

وقدّم كذلك حكّامٌ ورجال بريطانيّون، من أصحاب النفوذ والوجاهة السياسيّة، الدعمَ للمعاهَدة؛ وكانوا يرَونَ وجوبَ تشكيل دولة سياستُها الرَّدعُ والقمع، وقِوامُها رجال من أبناء إيرانَ يَحمُون مصالح بريطانيا. ورأوا كذلك تشكيلَ دولةٍ عسكريّة تضرب بيَدٍ من حديد جميعَ المخالِفينَ، وتقمع المظاهراتِ والتمرّدَ الشعبيّ.

انقلاب الثالِث من شهر إسفند سنةَ 1299هـ. ش (22: آذار/ 1921م.)

بعد فشل معاهَدة 1919م الذرّيع؛ قرّر سُراة الحكومة البريطانيّة تأسيس دولة عسكرية مقتدِرة حاسِمة قوامها رجال إيرانيّون. وأرادوا تعيينَ ضابط إيرانيّ طيِّع ينفّذ السياسات الاستعمارية. وكان «اردشيرجى» المسؤول عن تعيين الضابط الإيرانيّ، وهو الذي كان يعمل في إدارة تنظيم الجواسيس البريطانية منذ عصر ناصر الدِّين شاه.

وكتب هذا الرجل حول «رضا خان» قائلاً: «في سنة 1917م؛ تعرّفتُ على عسكريّ (من قطعات القزاق) اسمه «رضا»، وجلبتُه إلى خليّتي ولقّنتُه التعاليمَ التي ينبغي معرفتُها». وقد كان البريطانيون يرمون إلى تجنيد «القزاق» لمآربهم الاستعمارية. وقد هيّأ ضياء الدِّين الطباطبائيّ مقدِّمات الانقلاب، ونسّق مع القوى الأخرى ومع أصدقائه وأنصاره؛ فتمكّنوا من اختراق قطعات «القزاق» الموحَّدة وتغيير قائد هذه القوّات.

فقدّم «اردشيرجى» الضابطَ «رضاخان» إلى الجنرال «آيرون سايد» المسؤول عن سحب القوّات البريطانية من إيرانَ وإحلال حكومة عسكرية إيرانيّة محلَّها. فتحرّكت قطعات «القزاق» نحو العاصمة طهران، واستولَت على أنحاء المدينة كافّةً، بأمرٍ بريطانيّ ودعم مادّيّ من «البنك الشاهنشاهيّ» وقيادة «رضاخان»؛ فانتصر الانقلاب العسكريّ المشهور بـ«انقلاب الثالث من اسفند».

وكان هذا الانقلاب «غيهب الغسق» في تاريخ إيرانَ المعاصر؛ ومهَّد لحكومة خطَّط لها الاستعمارُ لِيُخضِعَ الشأنَ السياسيّ والثقافيّ والاقتصاديّ الإيرانيّ لسيطرة الغرْب المستعمِر.

العوامل المؤثِّرة في هذا الانقلاب

الظاهر أن قوات «القزاق» هي التي أنجزت الانقلاب. وبعد

ذلك؛ عمدَ المؤرِّخون المناصرون لحُكم بهلويّ بتضخيم الأمور، فصوّروا «رضاخان ميربنج» قائداً حياديّاً أنقذَ البلاد من مشاكل لا حلَّ لها!

أمّا «رضاخان» فقد اعتمدَ سياسة مستقلّةً بعد أن تربّع على عرش المملكة. وبدراسة نقديّة نقيمها، نعرضُ العواملَ التي أثَّرت في انقلاب سنة 1299هـ. ش.:

1 ـ **الجمعيات والمنظَّمات الاستعمارية:** يعتبر الاستعمار الأوروبي الأعمال والسياسة التي تتّبعها الجمعيات والمنظَّمات الاقتصاديّة والسياسيّة غير الحكوميّة هي الأساس؛ وأنَّ اتّباعَ الأطر السياسيّة والاقتصادية وما تؤدّي إليه سياسة الحكومة الرسمية يتعدّى مصالح الشعب والأمّة. كما أنَّ هذه الجمعيّات والمنظَّمات تعمل أحياناً بشكلٍ مستقلٍّ لا ارتباطَ له بدولها وحكوماتها.

إنَّ سيطرة هذه الجمعيات والمنظمات وتشكيلاتها السياسيّة جعلتها ذاتَ مكانة مرموقة في الهيكليّة السياسيّة للدول الغربية، فيمكن استغلال إمكاناتِها. وإنَّ أمَمِيَّة هذه المنظَّمات أدّت إلى تأسيس شبكة منظَّمات تعرض سياساتِها على كونها قوى معارِضة.

وإنَّ الدور الذي أدّته عائلة «روتشيلد» وعائلة «ساسون» في انقلاب 1299هـ. ش.، يحكي علاقة التحوّلات التي حدثت في إيرانَ، في تلك الفترة، بمصالح تلك المنظَّمات التي جعلت إيرانَ نصب عَينيها وهدف مطامعها الاستعمارية.

2 ـ **الحكومة البريطانية في الهند:** عندما سيطرت القوات البريطانية على الهند جعلت إيرانَ نصبَ عينيها لتستعمرَها. وللأهميّة الاستراتيجيّة الجغرافيّة لشبه القارة الهندية، بالنسبة إلى

بريطانيا، ومعها الأطماع الاستعمارية في الأراضي الإيرانية؛ صارت أراضي إيران وشبه القارة الهندية مجالاً للعمليات الاستخبارية البريطانية. وكان عملاء هذه الشبكة الاستخبارية يعملون تحت ستار التجارة والاتصال التجاريّ مع شركة «الهند الشرقية». وقد قدّموا معلوماتٍ غايةً في الأهميّة لدوائر الأمن والاستخبارات البريطانية. كما كان لهم دَورٌ فعّال في شكل التحوّلات التي حدثت في إيرانَ.

ففي المسرح الديبلوماسيّ ظهر رجال؛ أمثال:

- سِير جان ملكم.
- سِير كور أوزلي.
- سِير جان مِكْنيل.
- العقيد شيل.
- تشارلز آليسن.
- هنري راولينسن.
- سِير هنري دراموند ولف.

كانوا نموذج العمالة مع «شركة الهند الشرقية». وكانوا سبباً في فرض المعاهَدات الجائرة، وفي التحّكم بالمسارات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافية. وقد كانت «الماسونية»، ومعها خلايا الجواسيس المنتشرة في البلاد، سبباً في انتهاك حرمة البلاد وإخضاعها لكيد الاستعمار الأجنبيّ.

وبعد أن توسّعت القوى الروسية في آسيا الوسطى وهدّدت الهند عن طريق أفغانستان، بعد حرب «القرم»؛ أسّست حكومة البريطانيّينَ الموجودة في الهند خليّةَ تجسّس في إيرانَ واسعة النطاق.

وكان مؤسّس هذه الخليّة «مانكجي ليمجي هاتريا» قد جاء من الهند إلى إيرانَ في عصر «ناصر الدين شاه» لتفقّد أمور «الزرادشتيّينَ». وكان هذا الماسونيّ تمكّن، بسرعة كبيرة، من استقطاب مجموعات من «الماسونيِّين» و«المتفرنجينَ» و«البابيّينَ» و«البهائيّينَ»، الذين كان لهم أثرُهم الهدّام في التاريخ الإيرانيّ.

ثمّ جاء بديلُه «أردشير ريبورتر» إلى طهرانَ سنةَ 1311هـ (قبل اغتيال «ناصر الدين شاه» بسنتَينِ)؛ وكان محورَ تحوّلات مصيرية عصفت بالبلاد. فهو المؤسِّس للمحفل الماسوني؛ والمشارِك في اجتماعات منظَّمات الإرهاب السّرّيّة في عصر الثورة الدستورية؛ والذي خطّط لعملية الاعتصام في السفارة البريطانية؛ والمبشِّر الأكبر للـ«بهائيّة» و«الزرادشتية» (ما أثار اعتراض الأوساط الزرادشتية في أنحاء إيرانَ)؛ والمتسلِّل إلى صفوف قوّات «القزاق»؛ والمنتخِب لـ«رضاخان ميربنج» للقيام بالانقلاب العسكريّ والداعم له لاعتلاء عرش المملكة الإيرانيّة.

وخلَفَه نجلُه «شابور جي» في الجاسوسيّة والخيانة؛ فأدّى أدوار «أردشير ريبورتر» الحسّاسة في المكر؛ بأن كان مدبّر انقلاب 28 مرداد 1332هـ في إيرانَ.

كان «أردشير» المنفِّذ المطيع لأوامر «اللُّوبي الصهيونيّ» المتحكِّم بأعضاء حكومة بريطانيا العظمى وحكومة بريطانيا في شبه القارة الهندية. واستند اللّوبي الصهيونيّ إلى عقول أمثال «لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا (أمّه من أصل يهوديّ)، و«أدوين مونتاك» وزير شؤون شبه القارّة الهنديّة (وكان يهوديّاً متعصِّباً)، و«سِير روفوس إسحق لورد ريدنيك» نائب السلطنة ورئيس حكومة بريطانيا في شبه القارّة الهنديّة (اشتهِر بتعصّبه للصهيونيّة وولائه المطلَق لها)، و«سِير

ونستن تشرشل» وزير الدفاع البريطانيّ (الذي رفع عائلة «روتشيلد» إلى رأس هرم السلطة في بريطانيا).

3 ـ **البنك الشاهنشاهيّ**: من أهمّ المؤسّسات الغربيّة الهدّامة في إيران؛ إذ ضرب اقتصاد البلاد. بدأ هذا المصرف عملَه برأسمال يهوديّ من عائلة «ساسون». وكان «فيليب ساسون» مالك البنك الشاهنشاهيّ قد وضع العراقيل المتنوّعة في طريق دولة إيرانَ قبل الانقلاب المشؤوم؛ ما أدّى إلى تدمير الأوضاع الاقتصاديّة والسياسيّة في أرجاء الوطن. وقد قدّم مساعدات لتقوية «القزاق» (بقيادة «رضا خان مير بنج») والانقلابيّينَ المتآمرينَ على البلاد. وإنَّ رئيس هذا البنك «جايمز مك موراي» كان من أصدقاء «رضا خان» من أيّام وجودهما في همدان. واستعان «رضا شاه» بمساعدات البنك إيّاهُ لتنفيذ المآرب الاستعماريّة.

4 ـ **أعضاء السفارة البريطانية في إيرانَ**: يقول بعض المؤرِّخينَ البريطانيين ومؤرِّخي العصر البهلويّ إنَّه لم يكن لبريطانيا يد في انقلاب سنة 1299هـ؛ لكنَّ الشواهد التاريخية تدلُّ على أنَّ الانقلاب قد خطّطت له وزارة الدفاع البريطانية ووزارة شؤون القارة الهندية ووزارة المستعمَرات لحكومة بريطانيا في الهند، وشبكة الاستخبارات البريطانية. وإنَّ وزارة الخارجيّة البريطانية (التي يرأسها لورد كورزون) لم يكن لديها المعلومات الكاملة عن هذا الانقلاب.

والواقع أنَّ سفير بريطانيا في إيرانَ «هرمان نورمن كامرون» قد أخفى الأمر عن وزير الخارجيّة البريطانية ولم ينسّق معه في طهران حول الانقلاب؛ فغضب وزير الخارجيّة وأصدر أمراً بعودة السفير إلى لندن.

وتؤكّد الوثائق التاريخية تنسيق «نورمن» مع السكرتير الثاني في السفارة «والتر ألكساندر اسمارت» و«كولونيل هيك» والعقيد «هنري سمايس»، حول الانقلاب. كما أنَّه في زمن وقوع الانقلاب؛ ساد إجماع بين الصحافيّينَ والمراقبينَ حول دور بريطانيا فيه.

5 ـ **الجنرال «سير إدموند آيرون سايد»**: كان يحمل رتبة «أميرال» في الجيش البريطانيّ، وأصغرَ جنرالات القوات المسلَّحة عمراً. جاء إلى إيران بمهمّة رسميّة هي:

- سحب القوّات البريطانيّة الموجودة في إيرانَ.
- التنسيق مع المنظَّمات المرتبطة بالاستعمار، ووزارة الدفاع، ووزراة شؤون القارّة الهنديّة، ووزارة المستعمَرات، وحكومة الهند البريطانية؛ من أجل تسليم شؤون حكومة إيرانَ إلى دولة وطنيّة ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببريطانيا وتنفّذ أوامر بريطانيا حرفيّاً.

وكانت مهمّة الاستخبارات التابعة لحكومة الهند البريطانية (وهي في إيرانَ، تحت إمرة «أردشيرجي»)، أن تربط «رضا خان ميربنج» بـ«جنرال آيرون سايد». وكان أعضاء سفارة بريطانيا في قزوين وطهران قد هيّأوا الأجواءَ اللّازمة، سياسيّاً وعسكريّاً، من أجل نجاح الانقلاب. فكان «جنرال آيرون سايد» مكلَّفاً بتنفيذ الانقلاب الذي خطّطت له الدوائر الاستعمارية.

6 ـ **منظَّمة القبضة الحديدية (منظَّمة زرگنده)**: من التنظيمات السرية التي كان لها دور فعّال في إنجاح الانقلاب. أسَّسها الضابط البريطانيّ «كولونيل هيك» بُغية ضمّ العناصر المؤيِّدة لسياسة بريطانيا. واستتر أعضاء هذه المنظَّمة، في أصفهان، بستار الاشتراكية؛ لدى ساعة الصفر لتنفيذ الانقلاب. أمّا الأعضاء الآخرونَ، في طهرانَ، فقد اعتمدوا اسماً جديداً للتنظيم، هو

«منظَّمة زرگنده»[1]. أهمّ رجال هذه المنظَّمة هم ضياء الدين الطباطبائيّ، وكاظم خان صياح، ومسعود خان كيهان، ونصرت الدولة فيروز، وعدل الملك دادگر، وسلطان محمّد خان عامري، وابيكيان أرمني، ومنوتشر خان سبانلو، ومير موسى خان، وميرزا كريم خان رشتي، ومعزّ الدولة، وغفار خان سالار منصور قزوينيّ، ومنصور السلطنة؛ كانوا يحتلّون مَناصبَ كبيرة في الحكومة، وأرِيدَ منهم تهيئة الأجواء الملائمة لنجاح الانقلاب؛ فسيطروا على قطعات القزاق، وساعدوا «رضا خان» (الرشتيّ[2]) على الوصول إلى الحُكم. كما سخّروا الصحف لترويج مآربهم ونشر الرعب الذي يسهّل القيامَ بالانقلاب. ثمَّ استغلّوا أموال البنك الشاهنشاهيّ في بناء قطعات قوات «القزاق». وسخّروا قوّات الدَّرَك والشرطة والأمن، التي صارت معزولةً عن المقاومة أمام المدّ الانقلابيّ.

7 ـ **أعضاء الفِرَقِ الضالّة والماسونيّون:** تُعتبَر الفِرقة، «البهائية»، كما التنظيم الماسونيّ؛ الذراع الفاعل لقوى الاستعمار في تاريخ إيرانَ المعاصر. وقد اشتركا في انقلاب سنة 1299هـ. وكان ثمّة رجال ينتسبون إلى البهائية والماسونية معاً. أمّا الشخصيات المشاركة في الانقلاب فهي:

- أردشيرجي؛ كان ماسونيّاً وداعياً إلى البهائية بين الزرداشتيين.
- عين الملك هويدا؛ كان بهائيّاً ماسونيّاً.

---

(1) وهو اسم محلّة من محلّات شمال طهران؛ أغلب سكّانها من أهالي طهران الأصليّينَ.

(2) نسبة إلى «رشت»؛ مدينة في شمال إيران على بحر قزوين.

- علي محمّد خان موقر الدولة؛ كان بهائيّاً ومن كبار أعوان بريطانيا في إيرانَ. وكان تابعاً للمنتدى الاستخباريّ «البريطانيّ ـ الهنديّ» في إيرانَ.
- حسن باليوزي نجل موقّر الدولة؛ وهو المؤسِّس لراديو «بي بي سي BBC» باللغة الفارسية، ورئيس الجمعيّة البهائيّة في لندن.
- لطف علي خان گلبادي (سردار جليل مازندراني)؛ عضو منتدى القبضة الحديدية، ومن الناشطينَ البهائيينَ في منطقة «مازندران». أدّى دَوراً فاعلاً في الانقلاب.
- محمود خان جم؛ عضو منتدى القبضة الحديدية، بهائيّ ماسونيّ، أمسى وزيراً بعد انقلاب سنة 1299هـ. ش.

كلّ هذا يبيّن دَور سفارة بريطانيا الفاعل، وشبكاتِها الجاسوسيّة، على الصعيد الرسميّ وغير الرسميّ، في إنجاح الانقلاب.

الفصل الحادي عشر

التمهيد الفكري والسياسي

للدولة البهلوية

ليس ظهور الحكم البهلويّ، وضعف الدولة القاجارية وسقوطها، مجرَّد تغيير سلسلة ملكية ومجيء ملك آخر؛ فالقضيّة أرضيات وأبعاد فكرية كثيرة. ومن أجل فهم الظروفِ التي سبقت وقوع الانقلاب، وعناصرِ الحُكم البهلويّ الفكرية والسياسيّة المؤثِّرة، لا بدّ من تحليل مَحَاوِرَ عدّة ودراستها:

1 ـ الانحراف في ثورة المشروطة وأسبابه:

ثمّة قضايا عدّة تُدرس في هذا الإطار:

أ ـ انسحاب الفكر الدينيّ وعزلُه وخيبة أمل المتديِّنينَ والشعب من حيث المبادئُ العقيديّة.

ولهذا الأمر عشر عوامل هي:

أوّلاً: سذاجة بعض الكوادر العقيدية الأصيلة في ثورة

المشروطة؛ بأن ظنّوا أنَّ استقرار إيران سيلحق انتصارَ الثورة (النهضة) فوراً، ولن تكون عوائقُ تكدِّر صفو الإنجاز بعدها... لذا تمكّن الانتهازيون من التسلّل إلى مواقع النفوذ والسلطة بعد انتصار النهضة، نتيجة غفلة الكوادر!

ثانياً: لقد حال التركيز على مكافحة الاستبداد فحسبُ، دُونَ التعمّق الجذرّيّ في الكثير من المعضلات المهمَّة.

ثالثاً: انشغلت التيارات والأحزاب التي انبثقت عن النهضة، بأمور فرعية ثانويّة ليست من صلب أولويّات الوطن والنهضة.

رابعاً: أدّى شيوع التُّهَمِ والافتراءات إلى تنامي حالة انعدام التقوى والالتزام، في المحيط الاجتماعيّ والسياسيّ؛ ما أدّى إلى انسحاب الكثير من علماء الدِّين والمناضلينَ.

خامساً: انشغال العلماء بالاختلافات الاجتهادية الفكرية أدّى إلى الضياع وعدم الثقة بمشروعية النهضة وأسُسِها. ولقد كان غياب مرجع أعلى ينقاد له الجميع، في حركة النهضة، سبباً في ترسيخ الفُرقة والاختلافات (وقد كان ميرزا الشيرازيّ، في ثورة تحريم التبغ، المرجعَ الذي افتقدت ثورةُ المشروطة أمثالَه).

سادساً: الإفراط في الترويج للحرّية، وجعل مفاهيمها ومفاهيم الشورى والعدالة والمساواة والأخوّة منطلَقاً لمواجهة المؤمنينَ، ومعارضةِ الأسس الدينية؛ فصارت المصطلحات الدينيّة تنفِّر الجماهيرَ من الدِّين عَينِهِ!

سابعاً: تسخير المفاهيم الدينيّة، في ثورة المشروطة، لخدمة الأهداف الحزبيّة الفرعية الضيِّقة. وكانت الصحف تساهم بقوّة في تشويه أفكار الرأي العامّ، وتؤدّي دوراً مُخَرِّباً.

ثامناً: أدّى استشهاد الشيخ فضل الله النوري، وتنحّي الكثير من

العلماء البارزينَ، إلى ظهور حالة من الامتعاض العامّ من الثورة الدستورية. فعندما فقدت الثورة صبغتَها المقدَّسة، زالَ الشعور بالتفاني والاندفاع نحو المطلوب، لدى الجماهير.

تاسعاً: أوجد ضعف تيّارَي ثورة المشروطة الرئيسَين فراغاً واضحاً في الأركان السياسيّة والفكرية للثورة؛ فملأ العلمانيون والانتهازيون ذلك الفراغ!

عاشراً: استطاعت العناصر المنحرِفة، في الثورة، جذبَ اهتمام الجماهير؛ بفعل الكَيدِ الاستعماريّ لصالحهم على أرض إيرانَ، وقلَّةِ التجربة السياسيّة للتيارات الدِّينية. ما أدّى إلى يأس المتدينين من الثورة!

ب ـ قلّة الإحاطة بمآرب الغرْب والاستخفاف بخطَر الاستعمار

لقد استفحل كَيد الاستعمار في الفترة ما بينَ نهضة الحُكم الدستوريّ ومَجيءِ «رضا خان» إلى الحُكم. وكانت حماسة أهل النهضة لمكافَحة الاستبداد طاغيةً على ضرورة التنبُّه لمآرب الاستعمار في إيرانَ؛ لذا لم تأخذ ضرورة التصدّي للخطط الاستعمارية، أثناءَ النهضة، الأولويّةَ اللّازمةَ على الصعيد الوطنيّ. فظهر خطران لم يكونا في الحسبانِ:

الأوّل: الحملة الثقافيّة الغربية، بشعارات منحرِفة وتحاليلَ لا دينيّة نسفَت مفاهيمَ النهضة الدينيّة. فكان طرحُ قيَم العدالة والمساواة والحرّيّة في أُطرٍ علمانية وليبرالية (تغريب تعاليم ثورة المشروطة). بهذا بدأ الجوُّ الفكريّ يتحوّل إلى ألدّ أعداء إيرانَ.

الثاني: نتيجةَ الجهل بكَيد المستعمِر الأجنبيّ، وصلت السلالة البهلويّة المستبدّة إلى عرش البلاد! وكانت هذه السلالة أقسى على إيرانَ من القاجاريّينَ حتّى! ذلك بما أتاحته للاستعمار من استباحة سيادة البلاد.

ت ـ تحوّل الاجتهاد والانتخاب إلى فِصام في الشخصيّة وتقليد أعمًى وسطحيّة

جاء في وثيقة من وثائق أوائل فترة المشروطة (الحركة الدستورية)، بعنوان «لمحة ليليّة»؛ تحذير ينبّه إلى أن قد «تمادَوا في تقليد المثقفينَ بشكل ابتعدوا معه عن الكثير من الآداب، بل استهزؤوا بالمتديِّنِينَ... فما إن يشكّل هؤلاء الجهلاء تجمُّعاً، حتّى تُخزَى البشريّة؛ وما إن يؤسِّسون بنياناً، حتّى يصيرَ أوهنَ من بيت العنكبوت».

وفي وثيقة أخرى، بعنوان «علاج ألَم الإيرانيّينَ»، جاء: «لَيتَهُم لم يتعلَّموا العلومَ والصناعاتِ الجديدة، ولَم يغيِّروا العاداتِ والتقاليدَ الإيرانيّة... جعلونا اليومَ في حاجة إلى الخارج في مستلزَمات الحياة اليومية كافّةً، وجعلونا ندفع الأموالَ الباهظةَ جراء ذلك! بات على الإسكافيّ اليومَ أن يضمّ إلى بيته الشراشف الأجنبية والوسائد العثمانية والكرسيّ الغربيّ...».

2 ـ انتصار العلمانيّينَ على ساحة التصوُّرات السياسيّة في إيرانَ بعد نهضة المشروطة:

كلّما اقتربنا، في تاريخ إيرانَ، من الانقلاب الأسوَد (في بداية العشرينيّات)؛ نشهد ازدياداً في حضور التيّار العلمانيّ في مختلِف ساحات المجتمَع. ويجدر هنا بحثُ ثقافة العلمنة لدى «رضا خان»، في العهد البهلويّ، وشدّته في محاربة المذهب الشيعيّ.

فقد عمد «رضا خان» إلى تمجيد التراث القديم، وبدّل القوانينَ الشرعيّة إلى قوانينَ عُرفيّة «رضاخانيّة» حديثة. ونرى أنَّ المثقَّفينَ الذين أحاطوا بـ«رضا خان» وأخذوا بالتنظير السياسيّ والثقافيّ للنظام

البهلويّ كانوا متأثِّرينَ بأفكار ونظريّات «ملكم خان» و«آخوند زاده»...

وإنَّ نموذج أفكار «ميرزا فتح علي آخوند زاده» يوضح التركيز على محاربة المذهب الشيعيّ من خلال نطاق عمل الحكومة البهلويّة. إذ يقول «آخوند زاده»، قبل «الحُكم البهلويّ» بخمسينَ عاماً، في خصوص ألوانٍ من التراث تتعارض مع الدِّين: «إنَّ ما يسرّنا اليومَ هو أن نتعرّفَ على واجبنا ونفهم أننا كنّا على خطإٍ خلال 1280 عاماً، ثمّ نرجع ونحتفي بأخلاق أسلافنا وما تبقّى من مآثرهم». فإنَّ أسلوب طرح هذه الأفكار ترافِقها خصوصيّاتٌ قد دخلت إلى العهد البهلويّ:

أ - مشروع ملحمة إيرانَ القديمة، والتأسُّف على الحضارة الماضية.

ب - دخول الفكر الغربيّ في فحوى مشروع الحضارة الإيرانية، شكلاً ومضموناً.

ت - مواجهة هذَين الأمرَين للإسلام، فرديّاً واجتماعيّاً.

كذلك نقرأ لدى «آخوند زاده»: «إيه يا إيرانُ، أينَ تلك العظمة وأينَ سعادتك التي كانت على عهد ملوكٍ مثل كيومرث وجمشيد وكشتاسب وأنوشيروان وخسرو وبرويز؟» وقد أراد «رضا خان» ونجلُه «محمّد رضا» أن يصوِّرا العهدَ الحضاريَّ ما قبل الإسلام، متناسقاً مع التجدُّد الغربيّ في الوقت الحاضر.

3 ـ الفوضى والخراب وانعدام الأمن والاستقرار وضعف المؤسّسات القانونية:

في السنوات الأخيرة من العهد القاجاريّ؛ ضعفت الحكومة المركزية واضطربت المؤسّسات القانونية (إلى فوضى الحرب العالميّة

الأولى واحتلال أجزاء من إيرانَ). ومن القضايا المحورية في هذا البحث:

1 ـ مجلس الشورى الوطنيّ المتضعضع.

2 ـ الحكومات غير المستقرّة.

3 ـ الأحزاب والتكتلات السياسية.

4 ـ الصحف والمطبوعات المتنوّعة.

5 ـ نفوذ الأجانب وأتباعِهم في كلّ منطقة.

6 ـ انعدام الوَحدة الثقافيّة بين أوساط النُّخَبِ الإيرانية.

دامت دَورة المجلس الثانية مدَّة عامينِ وشهر وتسعة أيّام؛ وقد أغلق أواخر العام 1329هـ، بعد طرد المستشار الأميركي «شوستر». ثمّ افتتِحت الدورة الثالثة مع بداية عهد «أحمدشاه»، واستمرّت عهد سنةً وسبعة أيّام. وفي الفترة بين اشتعال الحرب العالميّة الأولى وإغلاق المجلس حتّى بداية الدورة الرابعة من المجلس تمّ تشكيل 19 حكومةً حتّى كانت النهاية افتتاح الدورة الرابعة في 21/ 6/ 1921م. فقد كانت معاهَدة «وثوق الدولة» في هذه المدّة، كما وقع انقلاب 21 شباط، الذي زاد من توتّر الساحة السياسيّة وسيطرة الأجانب في إيرانَ. وقد نشط العلماء في الحوزةَ العلمية في «قُم» في العام 1921م في مواجهة تقدم التيار العلمانيّ في الحُكم. ولقد كان للعلماء الكبار مشاركة فعّالة في الساحة السياسيّة الإيرانية، لا سيّما في ثورة العشرين في العراق.

واستمرّت دورة المجلس الرابعة حتّى العام 1923م، وكانت الدورة الخامسة من 11 شباط 1923م حتّى 11 شباط 1925م. ومع وصول «رضا خان» إلى السلطة أثناء الدورة السادسة للمجلس، قام السيّد المدرس مع مَن حولَه في وجه الحُكم الجديد، ولكن كُبتوا

سريعاً! ومع الدورة السابعة للمجلس، اختفى أيّ صوتٍ معارض حتّى أيلول 1941م.

4 ـ صراع الدين والحكومة واتحاد العلمانيّينَ مع الاستبداد البهلويّ:

لقد ائتلَف اتحادٌ بين المُتَفرنجينَ والعلمانيّينَ مع «رضا خان» الذي تولّى حكم البلاد بعد الانقلاب المشهور. وأراد العلمانيّونَ الترويجَ «للحداثة» «والإصلاح»، بالبرامج الثقافيّة واستخدامِ القوّة كذلك! فهؤلاء لم يستطيعوا تحمّل قوّة علماء الدِّين ونفوذهم وكانت هذه القضيّة الدافع النظريّ لانقلاب 22 شباط، كما كان لها دَورٌ رئيسٌ في تقرّب المتفرنجينَ من «رضا خان» بعد نهضة المشروطة.

وقد اتّخذ العلماءُ، في إيرانَ والعراق، ثلاثَ سياساتٍ تجاه تطوُّرات المجتمَع في إيرانَ قبل «رضا خان» وبعده:

الأولى: سياسة آية الله الحائريّ اليزديّ، وتأسيس الحوزة العلميّة في «قُم».

الثانية: سياسة علماء العتبات المقدَّسة (في العراق) تجاه التطوُّرات في إيرانَ.

الثالثة: سياسة العلماء المناضلينَ والسياسيّينَ داخل إيرانَ ضدّ الحُكم البهلويّ.

إنَّ ظاهر القضيّة هو اتّحاد العلمانيّينَ مع الاستبداد البهلويّ. وكان المتفرنجون المطروحون على الساحة السياسيّة، أيّام «رضا خان» في إيرانَ، هم تقي زاده ومحمّد علي فروغي وعلي أكبر داور وعيسى صديق وصدر الأشراف وعلي أصغر حكمت وتيمورتاش ونصرت الدولة وأردشيرجي، وأفراد مثل كسروي وحكمي زاده

وشريعت سنكلجي. قام هؤلاء، من خلال وسائل الإعلام كافّة، بضخّ الفكر العلمانيّ في جسم الهيكل التشكيليّ لنظام الحُكم البهلويّ. وأنَّ طبيعة الحكم البهلويّ قائمة على ثلاث سياساتٍ، هي:

1 - العلمانية في جميع المجالات.

2 - تمجيد الحضارة الفارسية القديمة والفكر القومي.

3 - التجديد بشكلٍ سطحيٍّ ومُبتَذَلٍ.

ولتحقيق هذه السياسات؛ اعتمِدت إجراءات عدّة، هي:

1 - توسيع نطاق هجمات الصحف والمطبوعات الأخرى على الدِّين الإسلاميّ والمذهب الشيعيّ، تحت عنوان مهاجمة الخرافات؛ وتعظيم مظاهرِ التمدُّن الغربيّ ومنجزاتِه التقنيّة تحتَ لواء التنمية والتجدُّد والترقّي.

2 - إقامة مهرجانات الفنّ والتعرّف على الحضارة الإيرانية؛ منها التي أقيمَت في مدينة فيلادلفيا الأميركيّة العام 1927م، وفي لندن العامَ 1930م، وفي لينينغراد العامَ 1935م. فأمّنت الحكومة الدعمَ الماليّ، وحضنت البرامج التثقيفيّة المروِّجة للأيديولوجيا الجديدة: العلمنة، وتمجيد الحضارة القديمة والتجدّد.

3 - تشويه صورة شخصيّة وأفكار الشاعر «الفردوسيّ» (صاحب ملحمة «شاهنامه»). فقد اقترح «تيمورتاش» تشييدَ قبر لـ«فردوسيّ» يشابه قبر الملك كوروش، بُغيةَ تعزيز الابتعاد عن الدِّين وتمجيد الماضي غير المسلم واتّباع التمدّن الغربيّ. فافتُتِحَ مهرجان «فردوسي» في قاعة «دار الفنون» بكلمة فروغي رئيس الوزراء ورئيس الجمعيّة الوطنية، ثمّ افتتِحت مقبرة الشاعر فردوسي في مدينة «طوس». وجرى تجاهل أنَّ الشاعرَ برزَ مع ازدهار الأدب الإيرانيّ في عصر الإسلام!

4 ـ تأسيس «دار الثقافة» لتنقية اللغة الفارسيّة من الألفاظ غير الفارسيّة؛ بهدف إزاحة المصطلحات العربيّة ومعها نزع الإسلام من الثقافة الوطنية الإيرانية. وقد تصدّى لهذا عيسى صديق. ويقول «وثوق الدولة» في هذا المجال: «منذ أن تربّعت الملكية القديمة على بلادنا، قامت الجماعة المنتصرة بسحق لغتنا الوطنيّة وإحلال لغتهم محلّها».

5 ـ القضاء على المكاتب الشرعيّة وإيجادُ تشكيلات القضاء والعدل. وأدّى علي أكبر داور دوراً مهمّاً في هذا المجال. وكان ذلك مع العامِ 1927م. فقد سُلب القضاء من أيدي العلماء مع تأسيس «دار العدل الحديث»... وتحقَّقت آمال العلمانيّينَ في هذا الصدد. وقد اتّجهَت سلطة «رضا خان» في الحكم نحو المركزية والاستبداد بشكل أعمقَ (فحال القضاء لم يكن كذلك في العهد القاجاريّ، بل كان أقلَّ خضوعاً للسلطة الحاكمة). وهذا ضعّف العلماء، وهمّش القوانين الإسلاميّةَ. وقد تمّ تطبيع الفقه الشيعيّ مع قوانين فرنسا وبلجيكا وإيطاليا؛ حتّى اعتمِدت مادّةٌ تقول: «في مسائل الأحوال الشخصيّة لا بُدَّ من الرجوع إلى الأحكام الإسلاميّة». ولقد كان طرحٌ يقضي باستمداد طبيعة القوانين من قواعد المذهب والدِّين، واستمداد أسلوب تطبيقها من قوانين العالَم العامّة؛ حتّى يُحرَزَ الدخولُ في حيِّز التمدُّن الحديث، بدون تهميش هويّة الانتماء العقيديّ الدينيّ.

6 ـ قضيّة تغيير طراز الملابس، أو مسألة السفور (لدى النساء)؛ وقد أدّت إلى كارثة مسجد «گوهر شاد» الدمويّة، وهي من أعنف الحوادث خلال تلك العقود بين الدِّين والدولة. وتُعتبَر مسألة منع الحجاب من أكثر القضايا التي قرّبت العلمانيّة إلى الاستبداد في إيرانَ.

ولقد تمّت المصادقة على قانون توحيد زيّ الرعايا الإيرانيين (قبل الدورة السابعة للمجلس)؛ وأرادوا منها، بحسب دعواهم، أموراً عدّة:

أ ـ خطوة مهمّة على طريق التمدّن والرقيّ.

ب ـ القضاء على العشائر.

ت ـ تحقيق التحوّل الثقافيّ بشكل كامل.

وهذا دلالة أخرى على التعاون الثقافيّ بين العلمنة وسياسة الاستبداد.

ولقد اعتمِدت قبّعة الـ«كاسكيت» ـ «القبّعة البهلويّة المقدّسة» (1935م)؛ وهي تشبه قبّعة الجنود البريطانيينَ. روِّج لها في الصحف، فصار رفعُها عن الرأس علامةَ احترام الصغير للكبير. وتقول الوثائق التاريخية إنَّ الـ«كاسكيت» ومنع الحجاب، هما نتيجة زيارة «رضا خان» إلى تركيا. ولقد كان المطالبون بالحداثة في إيرانَ متحمّسينَ للنموذج التُّركيّ، ولم يعتنوا بالفارِق بين تركيا وإيرانَ، الذي يتمثَّل في:

أ ـ إيران شيعيّة؛ في حين أنَّ تركيا ذات طابع تاريخيّ يتبنّى الخلافة الإسلاميّة (الإمبراطورية العثمانية).

ب ـ لم تكن إيران دولةً صغيرةً انفصلت عن إمبراطورية كبيرة؛ كما هو حال تركيا.

ت ـ كان في إيران، ومنذ الدولة الصفويّة، لحمة بين القوميّة الإيرانية والمذهب الشيعيّ؛ ولم تكن لحمةٌ بين تركيا العثمانية وتركيا العلمانية.

ث ـ إيرانُ لا تجاور أوروبّا ولم يكن لها علاقة مباشرة مع الغرب؛ لكن لتركيا، والدولة العثمانية قبلَها، اختلاطٌ بالغرْب.

ج ـ كان لعلماء الدين في إيران خط سياسي منفصل تماماً عن السلطة، بخلاف علماء الدولة العثمانية وبعدها الدولة التركية. وكان الدور الحسّاس التاريخيّ والوطنيّ لهذَينِ الصنفَينِ (العلماء الإيرانيين والأتراك) يختلف تماماً.

وفي الفترة الفاصلة بين 1928 و1930؛ طرحت قضايا عدّة ممهِّدة لتطبيق مشروع منع الحجاب بشكل عمليّ. وكانت ثمّةَ موانع أخّرت هذا المشروع، منها:

أ ـ سياسة «أمان الله خان» التغريبية في أفغانستان، وحصول الاضطرابات، ثمّ سقوطُه؛ ما أدّى إلى اهتزاز الحُكم البهلويّ.

ب ـ ثورة عشائر منطقة «فارِس» بين عامي 1928 ـ 1930، أدّت إلى انشغال الحكومة بمشاكلها الداخليّة.

ت ـ اعتقاد الشعب الراسخ بالأسُس والأحكام الدينيّة وعدم انسجامه مع سياسات «رضا خان» وأصحاب الفكر العلمانيّ المناهضة للدِّين.

أمّا الممهِّدات لمنع الحجاب؛ فهي:

أ ـ زيارة «رضا خان» لتركيا (تمّوز 1934)...

ب ـ الضخّ الإعلاميّ الممنهَج (الدعاية المعادية للحجاب)، منذ العام 1934؛ حيث ظهرت ثلاثونَ امرأةً بدون حجاب في تجمع علني، واستمرَّ هذا الأمر في المدارس ولدى عائلات الوزراء، ثمّ توسّع إلى الحكّام والمحافظينَ... حتّى تشكّلت الجمعية المركزية للسيّدات مِن قِبل شمس بهلويّ وأشرف بهلويّ (أيّار 1934)؛ ثمّ أعلن الشاه أنَّ السّفورَ زيّ رسميّ للسيّدات، في 7/ 1/ 1935م.

7 ـ إيفاد الطلاب إلى الخارج (أوروبّا).

8 ـ قضيّة الأوقاف والموقوفات وتعطيل المدارس الدينيّة وتخريب المساجد والمواكب الدينية.

9 ـ جعل الشؤون الدينيّة قضايا حكومية تابعة للمركز من أجل علمنة مذهب التشيّع؛ وتأسيس كليّة المعقول والمنقول في مدرسة «سپه سالار»، ومن ثمّ جامعة طهران.

10ـ قانون الزواج والطلاق، والتضييق على مراسم العزاء وصلوات الجماعة وتخريب المدارس العلمية والدينيّة وترويج المشروبات الكحولية وإقامة مواكب الفرح خاصّة في أيّام العزاء، والتشدّد في السماح بالزيارات إلى العتبات المقدَّسة وحذف الأوقات الشرعيّة من وسائل الإعلام وإلغاء الاستفادة من التاريخ القمريّ واعتماد التقويم الشمسيّ، ومن ثمَّ التقويم الملكي الشاهنشاهيّ. وكان من الكتّاب من يبالغونَ، عبر وسائل الإعلام المطبوعة، في تهشيم الأسس الدينيّة وتفخيم الاتّجاه العلمانيّ. حتّى إنّ أحمد كسروي عمد إلى استحداث تقليدٍ يقوم على تجميعِ كتب الأدعية الدينيّة (منها كتاب «مفاتيح الجنان» الذي يتضمّن أدعية أهل البيت (ع)، وديوان گلستان، وديوان حافظ، وديوان مثنويّ)، في يوم محدَّد من السنة؛ ورميِها جميعاً في النار («احتفال حرق الكُتُب»).

وكان كتاب «العقيدة» لأحمد كسروي بمثابة إعلان رسميّ للحرب ضدّ التشيُّع. أمّا مجلّة «همايون» فاستهدفَت، في باطنها، نشر العلمانية والوهّابية في المجتمَع الإيرانيّ. فوصفت زيارة قبور الأئمّة (ع) بـ«عبادة الأصنام»، وفي عدد منها كذلك مجّدت الشاه رضا بهلويّ ووصفته بـ«أنوشيروان العادل». وأجاب الإمام الخمينيّ، في كتاب «كشف الأسرار» عن هذه الشبهات والمقالات، وكذلك أجاب عن كتاب «أسرار ألف عام» (تأليف حكيمي زاده ـ رئيس

تحرير مجلّة «همايون») وهاجمه بشدّة وانتقد الاتّحاد بين هذه الكتلة وسياسة «رضا خان».

وكتب الإمام الخمينيّ في الصفحة 333 من كتابه «كشف الأسرار»، ما ترجمَتُه: «في هذه الأوساط أخذوا بالترويج لعدد من رجال الدين الخاوينَ من العلم والتقوى، أو من التقوى على الأقلّ. ثمّ حفّزوهم على الكتابة والتحدّث خلافاً للدِّين، بذريعة الإصلاحات؛ وطبعوا كتبهم برخصة من دائرة المطبوعات، بأموالهم أو أموال مَن خدعوا. وإذا ما خُنِّف كتاب يخالف ما هم عليه، منعوا طبعه، وفعلوا ذلك مع كتاب «الإسلام والرجعة». لقد ألّف أحد العلماء في «قُم» كتاباً باسم «الإيمان والرجعة» فضح فيه أكاذيب وخيانات سنكلجي، فلَمْ يسمحوا بطبعِه؛ وهو ما زال مخطوطاً».

لقد توسّل «رضا خان» بالتظاهرات الدينيّة قبل أن يسيطر على مقاليد الأمور ويقبض على السلطة السياسية. وكانت هذه السياسة الثقافيّة جذّابة للشعب، في بادئ الأمر، بعد أن واجه الشعب عقدَينِ من الفوضى ومعاداة الدِّين من قِبل الأحزاب والفِرَقِ. وبعد انكشاف وقوف البريطانيّينَ وراء انقلاب 1299هـ (1920م) للعلماء السياسيّينَ، عارضوا «رضا خان» بشكل علنيّ، وحادوا عن دعمهم لسياساته. وقد استخدم «رضا خان» في أوّل حُكمه سياسة الجبروت والقوّة، إلى جانب امتطائه للمظاهر الدينيّة سبيلاً لتثبيت حكمه؛ فاستطاع إرساء النظام بعد الفوضى التي عمّت البلاد بسبب الحرب العالميّة الأولى.

وظلّ بعض العلماء، منذ البداية، غير مقتنعينَ بـ«رضا خان» العسكريّ الذي تمدحُه الصحافة اللّادينيّة والسياسيّون المُوالون للغرب. ومن هؤلاء العلماء الحاجّ نور الله الأصفهانيّ والسيد حسن المدرس...

ومع مطالبة «رضا خان» بالحُكم الجمهوريّ، اشتدّت بقوّة معارَضة العلماء المتوجّسينَ منه منذ البداية؛ فحاول ساعتئذٍ استعطافَ علماء العتبات المقدَّسة في العراق للتقليل من حدّة معارَضة العلماء المخالفينَ لسياساته في إيرانَ. فحاول بعض علماء العتبات المقدَّسة التوصّل إلى سبيل وسط من أجل الحفاظ على بعض الأسُس.

لكن؛ بعد وصول «رضا خان» إلى السلطة، واستشهاد الحاج نور الله الأصفهانيّ (1927م)؛ تمّ نفي السيّد المدرس وقمع القوى الدينيّة كافّة. صارت ميول الكراهية لدى العلماء المخالفينَ لسياسة «رضا خان» أكثر تجذّراً، فلا يمكن العدولُ عنها (ولا سيّما بعد ثورة مسجد «گوهرشاد»).

أمّا الشعبُ، الذي عامله «رضا خان» بالقوّة والشدّة والإرعاب، في ظلّ انحطاط المجتمع، فقد أخذ يبتعد عن رجال الدِّين ويتقرّب أكثر إلى رضا خان، لكن سرعان ما رأى أفرادُ الشعب انعدامَ مصداقيّة رضا خان وخواءه ممّا كان يُعلِنُهُ من مناصرته للدِّين!

وقد أشار الإمام الخمينيّ، الذي عايش بمرارة، وعن قُرْبٍ، تلك الحالةَ الكارثة، إلى ذلك في كلمة له (19/ 11/ 1978م) قائلاً: «لقد وجّهوا ضربة إلى علماء الدِّين في عهد رضا خان بشكل جعل الشعب يقف إلى جانب العلماء... وكان السياسيّون جميعاً في معزل ولا حولَ ولا قوّةَ لهم!»

ويقول الإمام الخمينيّ (21/ 11/ 1978) أيضاً: «جاء رضا خان بانقلاب إلى السلطة، وسيطر على طهران، وكانت ممارساته قسرية، ولم يكن لديه اعتبار للشعب. كان يتظاهر بالتديُّن، ويشارك في أيّام محرَّم في مراسم العزاء الحسينيّ حافي القدمَينِ... وعندما صارت حكومته متينة ثابتة، شهر سيف القمع لأبناء الوطن الذين كانوا صامتينَ لا يَقْوَوْنَ على الاعتراض! وشكّل رضا خان المجلسَ النيابيّ

بالحديد والنار، بدون معرفة الشعب للنّواب! فكانت قوائم المرشحين تنظَّم في السفارات...».

لم تُفلح جهود علماء العتبات المقدَّسة (في العراق) السلميّة، ولا النضال الصداميّ المباشر لعلماء إيرانَ، في إحداث تيّار عارم في وجه مثلَّث «استبداد رضاخان، والاستعمار الغربيّ، وعلمانيّة بعض المنكرين». ولأنَّ الثقافة الغربيّة والأفكار المعادية للدِّين كانت حجر الأساس في هذا المثلَّث، كان لِزَاماً على العلماء اتّباع «المواجهة الثقافيّة» إلى جانب الحوار المُهادِن (من علماء العراق) والصِّدَام المباشِر مع النظام (من علماء إيرانَ).

فكان تأسيس الحركة الثقافيّة الحوزويّة الشيعيّة، من قِبل آية الله الحائريّ، في «قُم»؛ ردّة فعل أمام موجة الإباحية الغربيّة التي أعاقت نهضة الحُكم الدستوريّ عقدَينِ من الزمن، وغلَّت أيدي علماء النجف الأشرف.

يقول الإمام الخمينيّ (وهو أحد ثمار هذه الحوزة، وتتلمذ على يد آية الله الحائري): «استطاع آية الله الحائريّ المحافظة على الحوزات والعلماء، في الوقت العصيب الذي أراد فيه «رضا شاه» القضاء على الحوزة والعلماء. وسلّم آية الله الحائريّ الأمانة إلينا لنوصلها إلى الآخرينَ».

وكان من نتائج تأسيس حوزة «قُم» الثقافيّة أن لُوِيَ ذراع الاستبداد والعلمنة في أيلول 1941م. وإنَّ ثورة «الخامس عشر مِن خرداد» مظهرٌ للبلوغ والرشد السياسيّ. فكانت الحركة الثقافيّة الدينيّة تَعتبر القضايا الثقافيّة هي الأولويّة، ومعها تأسيس المؤسَّسات الثقافيّة الدينية؛ في ظلّ مقاومة المدّ العلمانيّ المتماهي مع الاستبداد السياسي والاجتماعي المجتمَع.

وقد أرسل آية الله الحائريّ، في خصوص منع الحجاب، إلى «رضاشاه»، في 2/ 7/ 1953م؛ يقول: «الأوضاع الراهنة تتعارض مع الشرع المقدَّس والمذهب الجعفريّ، وأدّت إلى قلقي وقلق عامّة المسلمينَ».

وكان ردٌّ من محمّد علي فروغي رئيس الوزراء، فيه: «... أصدرنا أمراً بالملاحقة القانونية لمن يفترون هذا النوع من التُّهَمِ؛ فإذا كان ذلك في عداد الشائعات، فمن الأجدى أن تتحقّقوا منها... وإذا كان في خصوص الزيّ والقبّعة، فمن العَجَبِ أن تصدُر فتاوى في مثل هذه الأمور... وإنَّ الشاه يعمل على الرقّي والتعالي بالحكومة والشعب».

الفصل الثاني عشر

مَلَكيّة مُجنَّد

(من انقلاب 1299هـ ش./1921م حتّى 1320هـ ش.)

في صباح 12/ 2/ 1921م. (1299هـ)؛ استفاق أهالي طهران على انقلاب بعد ليل أرّقهم فيه دوي انفجاراتٍ وطلقاتُ رصاص. فالعاصمة صارت تحت سيطرة الدَّرَكِ. لم يكن «رضا خان ميربنج» معروفاً بين أبناء إيران؛ أخذ يعرض ألوانَ جبَروتِه ويصدر الأحكام العُرفية، وهدّد من يحاول مقاومتَه بإنزال أشدّ أنواع العقاب به! وقام رجال الدَّرَكِ بحملة مداهمات للبيوت اعتقلوا فيها كبار رجالات البلد؛ ومنهم آية الله الحاج جمال الأصفهانيّ وآية الله السيّد حسن المدرس والشيخ محمّد حسين اليزديّ والقائد العامّ وأمير الأمراء نصرة الدولة فيروز، وعدد من الشخصيات السياسيّة. وفي 13/ 2/ 1921م. أصبح «رضا خان» القائدَ العامَّ، وعيَّن ضياء الدين الطباطبائيّ رئيساً للوزراء.

الوزارة السوداء ـ 90 يوماً من حكومة ضياء الدين

في 1/ 3/ 1921م؛ شكّل ضياء الدين الطباطبائيّ حكومة تضمّ عناصر تابعة لسياسة بريطانيا؛ منهم أعضاء جمعية الصحوة الإيرانية

الماسونية، وأشخاص من الفرقة البهائيّة. فالحكومة تشكّلت من: محمود جم (عضو جمعية الصحوة الماسونية) ومسعود كيهان (عضو لجنة القبضة الحديدية) وعيسى فيض (من مؤيّدي السياسة البريطانية) وعلي محمّد موقر الدولة (بهائيّ المذهب) ورضاقلي خان هدايت (عضو جمعية الصحوة الماسونية) وأحمد عامري (الذي انضمّ إلى جمعيّة بهلويّ في عهد رضاخان) ومصطفى عدل وتقي خواجوئي وعلي أصغر مؤدب نفيسي.

وسيطر رضاخان على وزارة الدفاع (بعد أن أقال الوزيرَ من منصبه)؛ فاستطاعَ قمعَ مخالِفيه ومعارضِيه، بدعم من بريطانيا.

عقدت حكومة ضياء الدين «معاهَدة 1921» (بين إيرانَ وروسيا)؛ وقد أجريت مباحثاتُها قبل انقلاب 1299هـ. وبموجبها ألغيَت معاهَدة 1919م (التي كان ضياء مِن مؤيّديها). لكن استمرّت سيطرة بريطانيا على جيش إيرانَ واقتصادِها؛ عبر إبقاء المستشارينَ البريطانيين في المراكز الحساسة..

ولقد كانت إجراءات ضياء الدين العنيفة مع السجناء السياسيين، وتصرفاته السيئة مع أحمد شاه؛ ذريعةً لعزله عن منصب رئيس الوزراء (في حزيران 1921م.)، ثمّ إخراجه من إيرانَ. وتتالى سقوط الحكومات في عهد «رضاشاه» المُمسِك بالسُّطلة، إلى أن تولّى هو رئاسةَ الحكومة (في تشرين الثاني 1923م.).

رئاسة قائد الجيش للحكومة والسعي لتغيير السلطة

فور تولّيه رئاسةَ الحكومة؛ افتتح «رضاخان» المجلس الخامس، وسعى من خلاله إلى إعلان نفسه رئيساً للجمهورية والمسيطر على الأمور كافّة في البلاد. لكن كانت فئةٌ قليلة في المجلس تُعارض خطط «رضا خان»، تعمل بتوجيه آية الله السيّد حسن المدرس.

الجمهوريون الراغبون في المَلَكية

منذ بداية 1924؛ تعالت الأصوات المعادية للحكم القاجاريّ، والمنادية بتغيير نظام الحكم في إيرانَ، ليصير جمهوريّاً لا مَلَكيّاً. وأراد رضا خان بذلك تقليد تركيا التي مرّت بالأمر عينه منذ فترة لم تكن ببعيدة آنذاك. فهيّأ وسائل الإعلام والشرطةَ لذلك، وأوعز إلى الجيش ليمهِّد المحافظات لطرح شعار الجمهورية؛ إلّا أنَّ مساعي علماء الدين والشعب الإيرانيّ أحبطت هذا المخطَّط. وَسَخِرَ الشاعر الإيرانيّ الشابّ «ميرزاده عشقي»[1] في قصيدة له، من مشروع رضاخان إقامة جمهوريّة بدل المَلَكية، وفضح إرادةَ امتطاءِ هذا المشروع لإرساء ديكتاتورية في البلاد.

وفي تمّوز 1925م؛ اغتيلَ الشاعر «ميرزاده عشقي» في وضح النهار، وتحوَّلَ تشييعُه (بجهود السيّد المدرس) إلى تظاهرة سياسيّة ضدّ القائد العامّ (رضاخان). وقد تذرّع رضاخان بمقتل قنصل أميركيّ لإعلان الأحكام العرفية واعتقال رجال المعارَضة وتعذيبهم. كما عمد إلى إقالة أحمد شاه؛ وأجبر أتباعُ رضاخان ممثِّلي المجلس على الإقامة في سرداب بيت القائد العامّ وإطاعة أوامره. ثمّ مُرِّرَتْ مادَّةٌ قانونيّة تقضي بنهاية الحكم القاجاريّ، وتعيين رضاخان رئيساً لحكومة مؤقّتة، ثمّ تسلّط على سدّة الحُكم في إيرانَ بعد شهر واحد.

---

(1) شاعر ذائع الصيت؛ ناضل ضدّ الاستعمار وعملائه. نظم الشعر في أطوار الشعر المثنويّ والرّباعي والغزل والدوبيتي؛ وأعلن في شعره عن أفكاره الثورية.

جزمة العَسكَر وتاج المُلُوكية

عيَّن رضا خان محمّد علي فروغي رئيساً للوزراء، مهمّته تمهيد مقدمات الاستقرار وتتويج الملك. وبعد التتويج عيِّن مستوفي الممالك وبعدَه مُخبر السَّلطنة هدايَت، لرئاسة الحكومة. وأدغم رضا خان فصائل القوات المركزية والانضباط والحرس ووحَّد زيّهم، وأشرفَ على قوَّات الشرطة. وبمساعدة قوّات الجيش والشرطة استولى على أموال الشعب وقتل معارضِيه.

ففي العامِ 1927م؛ اغتال عملاء رضا شاه آية الله المدرس. وفي 1928م؛ وبعد اعتراض آية الله الشيخ محمّد تقي البافقي على ملكية بهلويّ (رضا خان) المُهينة وغير الشرعية إلى روضة السيّدة المعصومة (ع)، دخل رضا شاه الروضة بالحذاء وأخذ يضرب طلبة العلوم الدينيّة والعلماء، وعلى رأسهم آية الله البافقي، وأعلنها حرباً شعواءَ على الدين والعلماء بشكل رسميّ.

وفي تمّوز 1928م؛ صُودِقَ على مشروعٍ يوجِب لبس القبّعة البهلويّة بدلاً من أغطية الرأس المُعتمَدَة في إيرانَ منذ القِدَمِ. وبدأت نهضة آية الله نور الله الأصفهانيّ ضدّ إجراءات رضا شاه، التي تسبّبَت بهجرة العلماء الواسعة إلى «قُم».

سلب ممتلكات الشعب وتشكيل دائرة الأملاك الخاصّة

لقد كان رضا شاه يرغب دوماً في التسلّط على أموال الشعب. وبعد أن صار وزير الدفاع ورئيس الوزراء، اغتصب الأموال العامّةَ وأسّس «دائرة الأملاك الشاهنشاهيّة الخاصّة» لإدارتِها. كذلك استولى على عدد من البساتين الجميلة والمراتع والأراضي الزراعية الواسعة،

وعدد من قُرى البلاد. وتمّ تسجيل أكثر من 6000 قرية في مكتب دائرة الأملاك الخاصّة باسمه شخصيّاً.

وقد استهزأت الصحافة الأجنبيّة بأسلوب رضا شاه المتغطرِس؛ فوصفته بـ«الحيوان» الإيرانيّ الذي لا يأكل إلّا الأراضي.

تأسيس سكك الحديد من أجل تلبية طلبات الأجانب

ساهم إنشاء سكك الحديد في إيران في تنمية الاقتصاد بشكل كبير؛ لكن أطماع روسيا وبريطانيا دخلت على الخطّ! فأرادت بريطانيا إنشاء شبكة سكك حديدية في إيران لربط الشمال بالجنوب. وكان أحمد شاه يعارض ويقول إنَّ إيرانَ تحتاج إلى سكك حديديّة تربط العاصمة بالمَوانئ المهمّة في طول البلاد وعرضها، وتربط المراكز الاقتصاديّة في شرق البلاد وغربها.

لكنَّ الحُكم البهلويّ فرض الضرائب على السكّر العادي والمضغوط (قند)، وبدأ إنشاء سكك الحديد من الشمال إلى الجنوب، وتناسى شرق البلاد وغربها...

الشغف بالغرب

كان من مهمّات الحُكم البهلويّ تدميرُ الثقافة الإيرانيّة المترسّخة في نفوس الشعب. وقد عزّز وصول ملك أفغانستان أمان الله خان إلى السلطة، بدعم البريطانيين، دافعَ العصرنة لدى رضا خان وحاشيتِه. فقد رجع أمان الله خان من أوروبّا برفقة النساء السافرات، وأراد إزالةَ معالِم الثقافة الإسلاميّة بُغية تحديث البلاد وتطويرها.

فتمّت المصادَقة على قانون اللِّباس الموحَّد، في إيرانَ، تقليداً للغربيّينَ، وفُرِضَ الأمرُ بالقوَّة. وفي هذا الوقت؛ افتتِحت الدورة

السابعة للمجلس النيابيّ واعتُقِل آية الله المدرس ونُفِي إلى منطقة «خواف» في خراسان.

رضا شاه ينتقل من إبادة معارضِيه إلى مضايقة مؤيِّديه وقتلهم

كان جهاز الأمن السياسيّ[1] يبيد المخالفِينَ لأوامر الشاه؛ حتّى لو كانوا من أصدقائِه ومرافقِيه. فقد أقصي نصرة الدولة فيروز عن عملِه العامَ 1930م، وسُجن، ثمّ اعتقِل ثانيةً العامَ 1938 وقتِل في السجن. كذلك شأن تيمورتاش (أحد رجال البلاط البهلويّ الأقوياء) العامَ 1933م، وجعفر قلي خان سردار أسعد (وزير الدفاع)، سُجن، وراحَ ضحيةً مع عدد من شيوخ البختيارية نتيجةَ اتفاقيّة بين رضاشاه وشركة النفط الإيرانية ـ البريطانية.

أمّا محمّد حسين آيرم، فقد خشي المصيرَ عينَه، فسافر إلى أوروبّا بذريعة العلاج، ولم يرجع إلى إيرانَ أبداً. وانتحر داور (الذي شكّل مع تيمورتاش ونصرة الدولة مثلَّثاً لوزارة العدل الجديدة وفق رغبة رضا خان) خوفاً من السجن والتعذيب.

إلغاء معاهَدة دارسي وتمديد اتفاقية النفط

في العام 1934م؛ أصدر رضارشاه أمراً بالتفاوض مع شركة النفط الإيرانية ـ البريطانية حول تأخير إيران دفع حصّتها من تصدير النفط، وعدم دفع الحصّة الحقيقيّة في مَوَاضِعَ أخرى. فكانت «اتفاقية

(1) أحد أقسام الشرطة المهمّة أيام البهلويّ، أسّسه محمّد حسين آيرم (وَخَلَفَهُ «ركن الدِّين مختاري»)، وضمّ 400 عضوٍ بشكل رسميّ. كانت مهمته قمع المعارضينَ بأشدّ الأساليب المتوفّرة.

دراسي» أساساً للحوار بين الجانبَينِ. وبسبب إطالة فترة المباحثات وعدم ارتياح البريطانيّينَ؛ دعا رضا شاه إلى إحراق ورقة «اتفاقيّة دارسي»، وعمِل على اتفاقية أخرى أضيفَ بموجبها 30 عاماً على الفترة التي حدّدتها «اتّفاقية دارسي»، من أجل سرقة النفط الإيرانيّ وغصبه. وتمّ تنظيم باقي الاتفاقية لخدمة صالح البريطانيّينَ، وصادق رضا شاه عليها، مخالِفاً بها مصالح إيرانَ.

وفي العام 1935م؛ زار الشاه بهلويّ تركيا، ليطّلع عن كثب على الحكومة العلمانية؛ فتأثّر تأثُّراً شديداً حتّى جعل القبّعة الأوروبيّة «شابّو» مكان القبّعة البهلويّة.

زيارة تركيا والتهجّم على الأسُس الدِّينيَّة والثقافيَّة

ثار أهالي مشهد اعتراضاً على اللباس الموحَّد والقبّعة البهلويّة، في مسجد «گوهر شاد»، فَرُمُوا بالرصاص، فجُرح عدد منهم وقتِل عدد آخر، واعتقِل كبار علماء مشهد[1]!

وفُرِض السفور على النساء في البلاد؛ وقامت أجهزة الجيش والشرطة في حكومة رضا شاه بملاحقة المعارضين السياسيين، والمحجَّبات، أينما وُجِدنَ، ورفِعَت أغطية رؤوسهِنَّ بأسلوب عنيف جدّاً!

---

(1) لقد توقّع أن يؤول أمر التجدّد الذي يريده الشاه بهلويّ إلى هذه الأوضاع؛ فقد قال: «سيجعلون الرعاة من القرى النائية عمّا قريب يظهرون بشعورهم البيضاء وأربطتهم، فيما لا مياهَ أنابيبَ صالحةً للشرب في المُدُنِ كافّة... سيتمّ إقفال أبواب المساجد والحسينيات بذرّيعة منع الخرافات، فيما تنشر الأساطير الغربيّة التي هي رموز لشخصيات وهميّة غربية، لتكوّنَ أفكارَ وعقائد أجيال مقبلة من الذكور والإناث... وسيشاهدونَ حضارة الغرب في الرقص والغناء وغير ذلك من أشكال التحلل الخُلُقي الأخرى...».

الحرب العالميّة الثانية وسقوط رضا شاه

في أيلول 1939م؛ بدأت الحرب العالميّة الثانية بهجوم ألمانيا على بلغاريا، وإعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا. فأعلنت حكومة الشاه فوراً حيادَها. وبعد فترة وجيزة افتتِحت الدورة الثانيةَ عشرةَ لمجلس الشورى الوطنيّ، وتشكّلت حكومة جديدة برئاسة أحمد متين دفتري.

ودخلت روسيا الحربَ، ثمّ اليابان. وفي تمّوز 1941م؛ أدّى هجوم ألمانيا على روسيا إلى وقوف روسيا إلى جانب الحلفاء. وكانت دوَل الحلفاء تتّهم إيران بالمَيل إلى ألمانيا؛ ونظراً إلى حاجة الحلفاء إلى مدّ روسيا بالأسلحة عبر سكك الحديد في إيرانَ، وكذلك للحفاظ على مصادر النفط الإيرانيّة؛ تمّ الهجوم على إيرانَ.

ففي آب 1941م؛ اجتاحت روسيا إيرانَ، من الشمال والشرق، كما هاجمت بريطانيا إيرانَ من الجنوبِ بَرّاً وبحراً وجوّاً. وسقط الجيش الإيرانيّ بعد ثلاثة أيّام؛ فأخليَتِ المواقع العسكريّة، وباتت إيرانُ بدون من يحمي أراضيها، وأوعز الشاه إلى محمّد علي فروغي قبولَ رئاسة الوزراء.

وفي 16 أيلول استقال رضا شاه من السلطة وسافر إلى أصفهان، ثمّ طرِد من البلاد بأمر من البريطانيّينَ. فبات على فروغي تأمين مقدّمات انتقال السلطة إلى وليّ العهد، ونجح في إقناع الحلفاء بالإتيانِ بمحمّد رضا بهلويّ إلى رأس السلطة الإيرانيّة.

لقد فرح الشعب الإيرانيّ بما حلّ بـ«رضا شاه»، فنزلوا إلى الشارع محتفلِينَ بخروج الديكتاتور[1].

(1) وصف الإمام الخمينيّ طردَ «رضا خان» بقوله: «احتفل الإيرانيون بطرد رضا خان =

الشؤون الثقافيّة والاجتماعيّة في العهد البهلويّ الأوَّل (مِن الحداثة إلى تمجيدِ التراث)

كانت مميِّزات وغايات السياسات الثقافيّة والاجتماعيّة في العهد البهلويّ الأوّل على النحو الآتي:

1 ـ اتِّباع العادات والآداب الغربية: كانت الحكومة البهلويّة أوّل حكومة قامت بتطبيق هذه السياسة بشكل فعليّ وواضح، بدعم من بريطانيا التي أرادت من قبلُ أن يقوم عملاؤها ضمن ثورة المشروطة بذلك.

2 ـ الدعاية لتمجيد التراث والآثار القديمة، وسحقِ التقاليد والآداب السائدة في المجتمَع؛ في ظلّ إطاعة السلطان «رضا خان». فصار الشعب في حالة أزمة ثقافية؛ إذ سعى المقرَّبون من الشاه إلى تأليه صورته بين أفراد الشعب حتّى ما عاد الناس يكترثون لمئات السنين من التاريخ الإسلاميّ في إيرانَ، وما لها من مَفَاخِرَ وطنيّة ودِينيّة وإنجازاتٍ علمية وفكرية عظيمة.

3 ـ مناهضة بعض المظاهر الدِّينيَّة والثقافيَّة المحلِّيَّة في إيران: فمن هذا الباب اعتقد الشاه وعملاء الاستعمار أنَّ في الإمكان تطبيق الأمرَينِ المذكورَينِ أعلاه.

= من البلاد، مع كون أرواحهم ما زالت في خطر، فالقوّات الأجنبية كانت ما زالت في إيرانَ... وقلت لابنِهِ الجَهُولِ ألّا يكون كأبيه فيفرحَ الشعبُ بذهابِه كما كان الأمر مع أبيه؛ وقد رأيتم كيف فرح الشعبُ بذهابه هو كذلك أكثر ممّا كان الفرح من قَبلُ لذهاب أبيه!».

أوامرُ مَلَكيّة: هيّا نحو الغرْب

كان يجب أن يُتَوَصَّلَ إلى الغايات الثلاث المذكورة للتّوّ، بعد إتمام إجراءات مُطَّرِدَةٍ (في إطار سياسة التغريب)؛ وهي على هذا النحو:

أوَّلاً: تغيير ملابس الرجال

أراد الشاهُ إزالةَ الفوارق الظاهريّة بين الشرقيينَ والغربيّينَ، في اللِّباس، باباً إلى الترقّي والتقدّم! فكانت القبّعة، في نظر الشاه، هي الفاصلَ الحاسمَ في التحوّل المنشود نحو الحضارة الغربيّة[1]. فصار هذا من أولويات الدولة.

وكان تنفيذ سياسة تغيير الهندام بعنف شديد على مرحلتَينِ؛ في الأولى (1930م ـ 1931م)؛ بدأ ترويج القبّعة البهلويّة لإزالة الظاهر الدينيّ والعُرفيّ من هندام المجتمَع الإيرانيّ. وبدأت المرحلة الثانية مع عودة الشاه من تركيا؛ إذ صارت القبَّعة البهلويّة تسمَّى في المُراسَلات الإداريّة بـ«القبعة المقدَّسة»، فأحِلَّ محلَّها قبّعة تُشبِهُ قبَّعة الجنود البريطانيّينَ.

ثانياً: منع الحجاب

كان العلمانيون، منذ ثورة المشروطة، يعتبرون الحجاب مظهر تخلّف وجهل في إيرانَ. فاتّخذت حكومة بهلويّ قراراً بمنع النساء والفتيات من ارتداء الحجاب. وتمّ إجبار موظَّفي الدولة على الظهور في الشارع مع زوجاتهم وَهُنَّ سافرات! واعتمدَ الشاه سياسة ضرب المحجّباتِ وملاحقتِهِنَّ، وتفتيشِ المَنازل وخزاناتِ ملابس الناس

---

(1) قال رضا شاه لأركان الحكومة: «على الإيرانيّينَ أن يعلَموا أنْ ليسَ ثمّة فارقٌ، من الناحية الروحية والجِسمية والاستعداد، بينهم وبين الأجانب، سوى هذه القبَّعة التي تظهَر على رؤوسِهم؛ فيجب إزالة هذا الفارق».

للقضاء على غطاء الرأس والخمار. وكات هذه ظاهرةً لا مثيلَ لها في تاريخ إيرانَ! فظلَّت نساء عدّة سنواتٍ طِوَالاً في بيوتهنَّ لا يَخرُجنَ احتجاجاً على هذه السياسة الهمجيّة. ويَذكر المؤرِّخونَ أنَّ النساءَ المحجّباتِ كُنَّ يجعلنَ فتحةً من داخل البيوت أو من السطوح لوصل بعضها بالآخَر، ويعقدنَ عبرَها اجتماعات سرّية بعيداً عن مضايقات رجال الشرطة.

ثالثاً: سياسات تقليد الغرب الأخرى

روِّجت الأسماء الغربيّة بين العائلات، وغيِّر نظام التربية والتعليم في إيرانَ، وأوفد الطلّاب الإيرانيون إلى الخارج.

إيرانُ الحديثة والاقتباس الناقص من التراث

أفرطت الحكومة البهلويّة في طرح قضايا تراثيّة للقضاء على الخلفيّة الإسلاميّة للشعب الإيرانيّ. وقد قام الشاه بخطوات عدّة لبيان أنَّ الاهتمام بالتراث هو إنجاز جديد للشعب الإيرانيّ. أمّا هذه الخطوات فهي:

1 ـ **تأسيس مجمع لتنقية اللغة الفارسية**: لقد عمِل على حذف الكلمات العربيّة من اللغة الفارسيّة. ففي العام 1933م؛ استحدِثت جمعيّة وضع الكلمات والاصطلاحات العلمية، حتّى توجِد مرادفاتٍ فارسيّة (كان بعضها معقّداً جدّاً ومُبهَماً!) للمصطلحات العلمية الغربيّة. فصار أغلب المراسلات الإدارية على شكل ألغاز لا تُحَلُّ. وفي هذا الإطار، أضيعَ الكثير من نفائس النصوص الأدبية والعلمية في الأدب والحكمة الإيرانية. كذلك تعسّر فهم مواضيع الكتب الدراسية، وصعب على الناس حفظ الكثير من الألفاظ المستحدَثة. كما عمِل على تغيير الخطّ الفارسيّ سبيلاً للمضيّ نحو الرقيّ الغربيّ!!

2 ـ إقامة الندوات الدَّولية للفنِّ ومعرفةِ التراث: ويحضرها الخبراء الأجانب؛ بُغيةَ التعرّف على الشخصيّة الإيرانية القديمة، التي تتلازم مع الدعاية لنشر فكرة تأليه الشاه.

3 ـ تأسيس جمعيّة تهذيب الأفكار (7/ 1/ 1939م): وهي من أهمّ الخطوات الإعلامية والتربويّة للحكومة البهلويّة في تمجيد التراث في المراكز التعليمية. وكانت تمهيداً لتشكيل حزب سياسيّ أشبهَ بـ«حزب الشعب» التركيّ. كما عمَدت إلى إشاعة الأفكار الزاردشتية، وإلى تحوير استخدام التأريخ الهجريّ القَمَريّ.

4 ـ محاربة رجال الدِّين بشكل مباشر: سلب «رضا شاه» المناصب القانونية والقضائية من رجال الدِّين، وعرقَلَ التعليم الدينيَّ، وهدّم المدارس الدينيّة. كما أنفق أموالَ الأوقاف في غير مَواضعها، وطبَّق مشروع الخدمة العسكرية الإجباريّة لطلبة المدارس الدينية، وحارب القوانين الدينيّة ومراسم العزاء الحسينية وصلاة الجماعة، وأشاع المنكَرات...

5 ـ تأسيس جمعيّة الوعظ والخطابة (1/ 5/ 1937م): بُغية تهميش الدِّين في المجتمَع، وربط المؤسّسات الدِّينية بالحكومة. وكانت مهمّتها إعداد خطباء يدعون إلى سياسات الحكومة البهلويّة. وأوجبَ الشاه أن يكون جميع الوُعَّاظِ «الدِّينيّينَ» من أعضاء هذه الجمعيّة، وأصحابَ إجازة في الوعظ منها، وإلّا فلا يرتدون زيّ العلماء!

6 ـ تأسيس كليّة المعقول والمنقول (29/ 4/ 1935م): إحدى الكليات الستّ في جامعة طهرانَ؛ غايتها مكافحة تعليم الدِّين في الحوزات العلمية.

ردود فعل المجتمَع الدِّينيِّ في إيرانَ تِجَاهَ محارِبي الدِّين الجُدُدِ

قام علماء الدين بنشاطات ثقافيّة وسياسيّة عدّة، ضدّ «رضا شاه»، في جميع أرجاء إيرانَ؛ منها:

1 ـ **النشاطات الثقافيّة وتأسيس الحوزة العلمية في «قُم»**: قام آية الله الشيخ عبد الكريم الحائريّ اليزديّ بتأسيس الحوزة العامَ 1923م. أدّى هذا إلى هجرة عدد كبير من العلماء إلى «قُم» بعدما كانت حوزة النجف الأشرف في العراق هي مَوئِلَ العلماء. فقد مهّد آية الله الحائريّ للتغيير التاريخيّ الكبير، الذي شهدته إيران في ما بعد، إذ تتلمذ على يديه الإمام الخمينيّ. وتحوّلت الحوزة في «قُم» إلى مقرّ لمواجهة النظام الشاهنشاهيّ. كذلك، قام الشيخ عباس القمّي بجمع أحاديثِ الأئمة (ع)، في إطار الأدعية والزيارات، في كتاب «مفاتيح الجنان»، ومعه طبِعَت مئات الكتب من قبل الحوزة الثقافيّة التي أنشأها آية الله الحائريّ، لتوعية المجتمَع حول المبادئ الحقّة في وجه طرح العلمنة.

2 ـ **النشاطات السياسيّة في تلك الفترة:**

- **مقارعات آية الله السيّد حسن المدرس**: انتبه السيّد المدرس سريعاً إلى خطر «رضا شاه» على إيران. وكان له باع وذراع في مواجهة الاستعمار، من أيّام ثورة المقاطعة وثورة المشروطة، وهجوم روسيا وبريطانيا على إيران. فعارض الشاهَ بشدّة حتّى استشهِد إذ اغتيل بأمر من الشاه العامَ 1938م.

- **اعتراضات آية الله الشيخ محمّد تقي البافقي**: وهو الذي دعا

آية الله الحائريّ إلى تأسيس حوزة «قُم» العلمية. وقد أهانه «رضا شاه» عندما أمر بالمعروف ونهى عن المنكَر في حادثة تعرّض الشاه للعلماء والطلاب في حَرَمِ ضريح السيّدة المعصومة (ع)، وفرِضت الإقامة الجبرية عليه في مرقد السيّد عبد العظيم الحسينيّ في مدينة «الرّي»، إلى نهاية حكم «رضا شاه».

- **نهضة آية الله الحاج نور الله الأصفهانيّ (1928م)**: وكان ذلك اعتراضاً على نظام الخدمة العسكرية الإجباريّة، ومن أجل إعادة قانون المشروطة وإيفاد خمسة من العلماء للإشراف على قوانين المجلس، والحيلولة دون انتهاك الأحكام الشرعية، وإيجادِ المكاتب الشرعية. وقد أدّت إلى هجرة العلماء من المحافظات إلى «قُم». وانتهت باستشهاد الشيخ نور الله الأصفهانيّ.

- **ثورة مسجد گوهر شاد الدمويّة (11/ 7/ 1936م)**: حصلت في مدينة مشهد المقدَّسة؛ بقيادة آية الله السيّد يونس الأردبيلي، وآية الله آغازاده الأصفهانيّ، وآية الله الحاج حسين القمّيّ اعتراضاً على سياسة فرنجة إيرانَ وتغيير هندام الشعب، لا سيّما قضيّة منع الحجاب. وأخمِدت في نهاية المطاف بقصف المسجد بوابل من القذائف أردى جميع الحاضرين في الكسجد بين شهيد وجريح، ونُفِيَ العلماءُ الكبار[1].

---

(1) وقد أشار الإمام الخمينيّ إلى هذه النهضات؛ ثمّ إلى النهضة الفردية التي قام بها السيّد القمّي.

الفصل الثالث عشر

إيران إبّان الحكم البهلويّ الثاني

(1939م ـ 1978م)

التدرُّب على السَّلطنة تحت ظلال الأجنبيّ

في العام 1939م؛ أقيلَ رضا خان من منصبه شاهاً للبلاد، وَخَلَفَهُ نجلُه محمّد رضا الذي لم يكن قد بلغ سنّ الاثنين والعشرينَ عاماً بعدُ، بدَعم من الاتّحاد السوفياتيّ وبريطانيا والولايات المتّحدة الأميركية. ولم تكن الجماهير راضيةً عنه ملكاً للبلاد.

ولقد كان عجزُ محمّد رضا في معالَجة مشاكل البلاد سبباً في بسْط النفوذ السوفياتي والبريطاني والأميركيّ عليها. بل وقد سلّم أمور البلاد إلى السفارات، فيما اهتمَّ هو بالتدرّب على ممارسة الشاهنشاهيّة. وقد حصلت في إيران أحداث مروِّعة بين 1939م و1945م، ترافقت مع تطوّرات سياسية، هي:

1 ـ **احتلال إيران ونفوذ السفارات الأجنبية في الدولة:** احتلّ الحلفاء إيرانَ في 27 آب 1939م، بحجّة وجود الطابور

الخامس الألمانيّ فيها، وعدم إغلاق سفارتَي ألمانيا والنمسا. لكن في الواقع؛ بسبب موقع إيرانَ الاستراتيجيّ في تمرير الدعم إلى الاتّحاد السوفياتيّ، والمخزون الهائل من النفط فيها وانعكاسات وجوده على نتائج الحرب، تمّ احتلالها واستغلال إمكانيّاتها الاستراتيجية الاقتصاديّة العسكرية.

ولقد كان تنافس الاتحاد السوفياتي وبريطانيا والولايات المتّحدة الأميركيّة في بسط سلطتهم في حيّز الحكم في إيرانَ، سبباً في وقوع البلاد في مآزقَ سياسيّة واجتماعيّة واقتصادية جمّة، وسقطت الحكومات الواحدة تِلوَ الأخرى.

2 ـ **القحط والمرض وتدهور الاقتصاد**: انقطعت العلاقات التجارية لإيرانَ مع الدول الأوروبيّة، وبات شحن البضائعِ عسيراً، فعانت البلاد في جلب الموادّ الضرورية كالسكر والأقمشة والغلال والموادّ الكيميائيّة والأدوية والأدوات الطبّيّة. ومنذ العام 1940؛ أدّى شحّ القمح إلى أزمة في توزيع الخُبز؛ بسبب عزوف آليّات النقل عبر سكك الحديد عن نقل الموادّ الغذائية المطلوبة لتأمين المعيشة اليوميّة. وفي العامِ 1941م؛ أخرَجت القوات الروسية 100 ألف طنّ من القمح من إيرانَ فضلاً عن ما كانت تشتريه من الحكومة الإيرانية بشكل رسميّ. وفي العامِ 1942م؛ قامت القوات الروسية بإخراج عشرات آلاف الأطنانَ من الحنطة عبر الحدود الإيرانية إلى روسيا. وتدهور وضع الـ«ريال» الإيرانيّ وغاب الأمنُ وشحّت موارد الدولة.

3 ـ **ضعف الحكومة وتشتّت القوى السياسية**: كان تغيّر الحكومات المستمرّ دليلاً على عجز الشاه عن تدبير أمور الدولة، وعلى فرض سلطة الأجانب داخل البلاد. منذ آب 1939م وحتّى شباط 1943م؛ توالت على البلاد تِسعُ حكومات... سقطت كلُّها!

رئيس الحكومة	تاريخ تسلّم الحكم	تاريخ السقوط	فترة الحكم
محمد علي فروغي	آب 1939م	1940م	ستة أشهر
سهيلي	1940م	1940م	خمسة أشهر
أحمد قوام	1940م	شباط 1941م	أقلّ من ستّة أشهر
سهيلي	1941م	1942م	أكثر من سنة بقليل
ساعد	1942م	1942م	ثمانية أشهر
سهام السلطنة بيات	1942م	1943م	حوالى أربعة أشهر
إبراهيم حكيمي	1943م	1943م	حوالى الشهرَينِ
صدر الأشراف	حزيران 1943م	1943م	حوالى الأربعة أشهر
إبراهيم حكيمي	1943م	1944م	حوالى الأربعة أشهر

4 ـ **الفوضى في ظلال الحرّية**: لقد حال الاحتلال الذي أعقب إقالة «رضا خان» عن عرش الشاهنشاهيّة، دونَ تنعّم البلاد بالحرّية المنشودة. فعمّت الفوضى أرجاءَ إيرانَ؛ وتخلّل ذلك نشاط لوسائل الإعلام والأحزاب بحجّة الدفاع عن جناح سياسيّ معيَّن، ما زاد في عدم استقرار البلاد. وقد استفاد الرُّوس والبريطانيّونَ والأميركيّونَ من العمل السياسيّ الذي خاضته وسائل الإعلام والأحزاب. فمنذ 1939م حتّى

1945م، نشر 600 عنوان يخدِم أهدافاً سياسيّةً معيَّنة. وقد تأسس «حزب توده» (الحزب الشيوعيّ) في تشرين الأوّل 1939م وكان آلةً لتأمين مصالح السوفيات[1]؛ كما كان في داخل الحزب تيارات موالية لجهات أجنبية أخرى، ما أدّى إلى انشقاقات حزبية عديدة.

5 ـ **معاهدة الحلف الثلاثيّ وبداية كارثة إيران**: في 29 كانون الثاني 1942م؛ وقّعت القِوى الثلاث، الاتحاد السوفياتي وبريطانيا والولايات المتّحدة الأميركيّة، في مبنى قصر وزارة الخارجيّة الإيرانية، معاهَدةً جاء في فصلِها الأوَّل: «يتعهّد الاتّحاد السوفياتيّ وبريطانيا باحترام وَحدة أراضي إيرانَ وسيادتِها الوطنية واستقلالِها السياسيّ». وجاء في الفصل الخامس: «تلتزم الدوَل الثلاثُ سحبَ قوّاتِها من الأراضي الإيرانية بعد نهاية الحرب في أقلَّ من ستّة أشهر». كانت هذه المعاهَدة مدخلاً للتلاعب في جميع شؤون إيرانَ الداخليّة، واستمرّ هذا الحال إلى ما بعد انتهاء الحرب، وصارت قضيّة خروج القوات الأجنبيّة من إيرانَ مشكلة كبرى!

فقد استطاعت الولايات المتّحدة، العامَ 1940م، أن تسيطر على نظام الشحن داخل إيران، ونقل سكك الحديد من بحر قزوين حتّى الخليج الفارسيّ، بدون أيّ تدخّل من الحكومة الإيرانية. كما أقرّت الدورة الثالثة عشرة للبرلمان الإيرانيّ تعيينَ د. ميلسبوي الأميركيّ

(1) إلى جانب حزب توده، كان ثمّة حزب إيران، حزب بان إيرانيزم (الحزب القومي الإيرانيّ)، حزب زحمتكشان (الكادحينَ)، حزب نيرو (القوّة)، حزب العمّال الاشتراكي الإيرانيّ (سومكا)، حزب آريا، حزب ذو الفقار، حزب قوام الديمقراطي، الحزب الديمقراطي الآذريّ، حزب الإرادة الوطنية...

مستشاراً ماليّاً للحكومة الإيرانية، مع منحه حقّ التشريع؛ فأنهَك الاقتصادَ الوطنيَّ الإيرانيّ بالديون الأجنبية والداخلية، ثمَّ أقيلَ في العامِ 1941م.

أمّا بريطانيا فقد سيطرت على الطُّرُقِ، وأنشأت مؤسّسة كبرى للنقل والشحن البرّي، واستخدمت الشاحنات على مساحة الأراضي الإيرانيّة لنقل العتاد العسكريّ؛ واعتقلَت وسجنَت مواطنينَ إيرانيّينَ بتهمة الانحياز إلى الجانب الألمانيّ، وعزلَت مسؤولينَ وعيَّنَت آخرينَ من وزراء ومحافظينَ.

وأمّا الجيش الأحمر الرُّوسيّ فسيطرَ على الطُّرُقِ الشمالية لإيرانَ وشلَّ أمور الناس، ومارس الاعتقال والسجن، وزعزعَ الاقتصادَ، وهرّب المحاصيلَ الزراعية الإيرانية، وأوجَدَ أزماتِ شحّ الخُبز واستهتَر بحقوق الشعب الإيرانيّ، ونهبَ ممتلَكات المؤسّسات والدوائر الحكوميّة، ونهبَ المُدُنَ والقُرَى وصادر الممتلَكات العامّة، ونزع سلاح قوّات الدَّرَكِ.

6 ـ بَدءُ أعمال الدَّورتَينِ الثالثة عشرة والرابعة عشرة للبرلمان:

بدأت الدورة الثالثة عشرة تحت حكم رضا خان، وكان أغلب أعضاء البرلمان من البلاط البهلويّ؛ جاؤوا بـ«د. ميلسبوري» مستشاراً ماليّاً لإيرانَ وسُلِّمَ شؤونَ اقتصاد البلاد! أمّا الدورة الرابعةَ عشرةَ (1940م) فكانت أوّل دورة بعد انتهاء سلطنة رضا خان؛ صفّى البرلمانُ حساباتِ عَهدِ رضا خان، ورفض وأيّد أوراق اعتماد بعض الأعضاء. وعمل على مكافحة الفساد الماليّ لرجال الدولة وموظَّفيها، ومكافحة أعمال التزوير في الانتخابات، وفضَّ المطالبةَ الروسية بالحصول على امتياز اكتشاف نفط الشمال واستخراجه.

7 ـ **امتياز نفط الشمال وظهور سياسة الموازَنة السلبية**: لقد عُرفت محافَظاتُ آذربيجان وجيلان ومازندران واسترآباد وخراسان (المُتاخِمة للحدود السوفياتيّة)، بـ«منطقة نفط الشمال». وكان الرُّوس يترصَّدون فرصة الحصول على امتياز نفط الشمال من الحكومة الإيرانية. ففي العام 1941م؛ لدى حضور مندوبي شركات النفط الأميركية والبريطانية للحصول على امتياز التنقيب عن النفط في المناطق الجنوبية الشرقيّة (بلوشستان) لإيرانَ، وقاموا بمُباحَثات مع الحكومة الإيرانية لذلك، أرسلت الحكومة الروسية وفداً إلى إيرانَ يطالب بامتياز نفط الشمال، معتمِدةً ضغوطَ الجيش الأحمر و«حزبِ توده» وعددٍ من أعضاء البرلمان. وعملت الصحافة الشيوعية على تحريض الناس على حثّ الحكومة الإيرانية على منح الامتياز للرُّوس، إلّا أنَّ البرلمان الإيرانيَّ سنَّ قانوناً يمنع أيَّ نوع من التفاوُض، رسميّاً أو غير رسميٍّ، مع أيَّ جهة أجنبيّة حول إعطاء امتياز النفط، إلّا بِمُوَافَقَتِهِ. وقد عمل د. مصدّق على إقرار هذا القانون في المجلس النيابيّ بأغلبية الأصوات.

8 ـ **نهاية الحرب وأزمة انسحاب القوّات الأجنبيّة**: بعد استسلام ألمانيا النازيّة وانتهاء الحرب العالميّة الثانية، أقام الحلفاء مؤتمَر بوتسدام[1]، في 17 تمّوز 1945م، وتمّ التوقيع على مذكَّرة بين الأعضاء حول إخلاء إيرانَ من قوّات الحلفاء على ثلاث مَراحلَ:

أ ـ بدء انسحاب القوات الروسية والبريطانية من طهران فوراً.

ب ـ يبقى قسم من القوات البريطانية في عبادان والمناطق النفطية

---

(1) بوتسدام: مدينة في ألمانيا قرب العاصمة برلين.

جنوب إيران؛ ويبقى قسم من القوات الروسية في الشمال الشرقيّ والشمال الغربيّ لإيرانَ.

ت ـ بعد تنفيذ المرحلتَينِ «أ» و«ب»؛ تخلي القوات البريطانية والروسية كل الأراضي الإيرانية في زمن واحد.

وفي آب 1943م؛ طالبت إيرانُ الولاياتِ المتّحِدة وروسيا وبريطانيا بإخلاء الأراضي الإيرانية؛ وتملّصت روسيا في ذلك، فتحوَّلَ الأمر أزمةً دوليّة، إلى أن حُلَّ الإشكال هذا بضغوط بريطانية أميركية وبمساعٍ من قبل الحكومة الإيرانية.

9 ـ **فتنة آذربيجان وكردستان**: قام مؤيّدو حزب توده الشيوعيّ، في آذار 1943م، بتحرّكات انفصالية في آذربيجان، وقام الشيوعيون بتأسيس حزب سياسيّ جديد باسم الحزب الديمقراطيّ الآذريّ (آب 1943م) يطالب بالحكم الذاتي لآذربيجان، ما يعني المسَّ بوَحدة أراضي إيرانَ. وكان الحزب الديمقراطيّ الآذري يؤدّي دور الطابور الخامس للاتّحاد السوفياتيّ، وكان يؤيِّد الجيشَ الأحمرَ علناً. وقد وقعت اشتباكات بينه وبين القوات الحكوميّة (العامَ 1943م)، وكانت عناصر قوقازية إلى جانب الشيوعيينَ (وقد لبسوا اللِّباسَ المَدَنِيَّ، لكنّهم من الجيش الأحمَر)، وقد أمدّتهم روسيا بالسلاح. وتمّ تجريد معسكر تبريز من سلاحه، ثمّ أحدثت العناصر المسلّحة خللاً في خطوط الهاتف والبرَقِ بين طهران وتبريز وباقي مُدُنِ آذربيجان... وسيطروا على مدينتَي سراب وميانه. وعزّزت الحكومة الإيرانية معسكر تبريز، لكن العساكر أجبروا على التوقّف في منطقة شريف آباد (في قزوين) من قبل الجيش الروسيّ.

وشكّل الحزب الديمقراطي الآذري المجلس التأسيسيَّ، بغية الانفصال عن إيرانَ، العامَ 1943م. وشكِّلت حكومة انفصالية برئاسة «جعفر بيشه وري» (زعيم الحزب). وقام الروس بإنشاء النادي الثقافيّ الكردستانيّ السوفياتيّ، ثمّ تأسيس حزب آخر في كردستان، ليقوم بحركة انفصالية أخرى في كردستان إيرانَ، على غرار ما حصل في آذربيجان، بهدف فصل كردستان إيرانَ عن الوطن الأمّ (كما كانوا يَنْوُونَ لآذربيجان).

وانتهت فتنة آذربيجان بشنَّ الجيش الإيرانيّ هجوماً شاملاً على مواقع الحزب الديمقراطيّ الآذريّ (العامَ 1946م)، فهرب زعماؤه إلى الاتّحاد السوفياتيّ، واعتقِل مَن تبقّى من أعضائه ومؤيِّديه.

عودة التيارات والشعائر الدينيّة

سنحت الفرصة لعودة نشاط التيارات الدينيّة في المجتمَع، بعد قمع عهد رضا شاه، فعادت مواكب العزاء الحسينية واستعادت المرأة حرّية ارتداء حجابها، كما نشطت من جديد مجالس الوعظ والإرشادات الدينية، وبدأت الكتب الدينيّة والمدراس الدينيّة تستعيد عافيتها ونشاطها المعهود. ساعد ذلك في تأميم النفط لاحقاً وما رافقه من حركة وطنية إيرانيّة.

وظهرت على الساحة السياسيّة في إيرانَ تيارات دينيّة جديدة لمجابهة تيارات الضلال والانحراف (من الفكر الإلحاديّ والاستعماريّ). فمثلاً؛ ألّف الإمام الخمينيّ كتابَه «كشف الأسرار» في مثل هذه الأجواء الجديدة. وتهيّأت الظروف لوجود كبار علماء النجف و«قُم» في الساحة السياسيّة الإيرانية، وانتقلت المرجعية العامّة إلى إيرانَ بعد وفاة آية الله السيّد أبو الحسن الأصفهانيّ، فَخَلَفَهُ آية الله البروجرديّ.

وبان في تلك الفترة دخول إيرانَ في طور دينيّ جديد سيكون له دور كبير في التطوّرات السياسيّة والاجتماعيّة الإيرانية.

الدورة الخامسة عشرة للبرلمان في ظروف التأرجح السياسيّ

كان تنافس الحلفاء على خيرات إيران للاستفادة منها، قد خلّف أزمات كبرى في المجتمَع الإيرانيّ، وتوالت حكومات هزيلة على البلاد لمدّة ثلاث سنينَ. في ظلٍّ هذه الأجواء تشكّلت الدورة الخامسة عشرة للبرلمان، وكانت مصيرية في تاريخ البلاد.

قامت هذه الدورة بأمور عدّة، هي:

أ ـ حسم موضوع نفط الشمال (الذي سبّب أزمة بين الاتّحاد السوفياتي وإيرانَ).

ب ـ القضاء على فتنة آذربيجان.

ت ـ إنهاءُ الفقر والمرض ومشكلة الخُبز، بعد أن سبّبتها الحرب.

وقد حاول أحمد قوام، رئيس الوزراء، السيطرة على البرلمان، فاعتقل آية الله الكاشانيّ؛ فأدان د. محمّد مصدّق وعدد من النواب هذا الاعتقالَ، وتدخّل الحزب الديمقراطيّ التابع لأحمد قوام في انتخابات الدورة الخامسة عشرة للبرلمان.

وقد أحدثت تشكيلة ذلك البرلمان تغييراً مهمّاً في تاريخ البلاد. وكانت تركيبة المجلس على النحو الآتي:

1 ـ القوى الإسلاميّة (المعارِضة للقوى الأجنبية) معتمِدةً على رجال الدين (وأبرزُهم السيّد الكاشانيّ).

2 ـ حَمَلَةُ الشهادات العُليا (وكوّنوا في ما بعدُ الجبهة الوطنية، بإدارة د. مصدّق ذي سياسة «التوازن»).

3 ـ الحزب الديمقراطي التابع لأحمد قوام السَّلطنة رئيس الوزراء (الذي حصل على أغلبية مقاعد البرلمان)، والذي واصل سياسة الأجانب في البلاد.

4 ـ حزب توده الشيوعيّ، الذي حصل على بعض المقاعد، وأراد حسم موضوع نفط الشمال لصالح الرُّوس؛ وعمل على الانفصال عن إيرانَ.

وقد صمد البرلمان هذا أمام التهكّم الروسيّ الناوي الحصولَ على امتياز نفط الشمال الإيرانيّ؛ فسنَّ قانوناً يمنع ذلك. كذلك؛ حجب البرلمان الثقة عن حكومة أحمد قوام السلطنة، فسقطت!

من التدريب على المُلك حتّى أحلام الإمبراطوريّة

لم يكن لمحمّد رضا بهلويّ أيُّ شأن في السُّلطة من العام 1939م حتّى 1945م. زار بريطانيا في العام 1945م، فتولّدت لديه أحلامٌ جديدة؛ فقرّر إجراء إصلاحات في قِمّة الحُكم قبل أن تقوم القاعدة (الثورة الشعبية) بذلك. واستحدِثت موجة جديدة من التيارات السياسيّة المستبِدّة. قامت الحكومة بعرض مشروع قانون تأسيس مجلس الشيوخ على البرلمان (مجلس الشورى) لتحقيق إرادة المَلِكِ (الشاه)؛ ليصير النظام البرلمانيّ الإيرانيّ شبيهاً بالنظام البريطانيّ والأميركيّ... وبدأت ملامح ديكتاتورية جديدة تظهر.

وطرح الشاه موضوع إصلاح الدستور وإيجاد مجلس تأسيسيّ لذلك؛ وحلّ مجلسَي الشورى والشيوخ (العامَ 1946م)، فصار البلاط الشاهنشاهيّ فاعلاً من جديد في الساحة السياسيّة للبلاد.

المجلس السادس عشر، تأميم النفط

بعد انتهاء فترة المجلس الخامس عشر، اعتصم د. محمّد مصدّق ومعه شخصيات سياسيّة، في البلاط المَلَكِيّ، استنكاراً لتدخّل الحكومة لتزوير الانتخابات. وكان قد تضعضع البلاط إثر اغتيال منظَّمة «فدائيان إسلام» (بقيادة السيّد مجتبى نواب صفويّ) عبدَ الحسين هجير (وزير البلاط) الذي كان يدير عمليّة التزوير. وألغيت دورة البرلمان السادسة عشرة من دائرة طهران. ودخل د. مصدّق ومعه نوّابُ البرلمانَ، عن دائرة طهرانَ، في انتخابات أجريت لاحقاً.

وفي 15 حزيران 1948م؛ عاد السيّد الكاشانيّ من منفاه إلى طهران، بعد استقالة حسن علي منصور (رئيس الوزراء) وتسلُّم «رزم آرا» مَقاليدَ الحُكم العامَ 1948م. لكن السيّد الكاشانيّ عارضَ «رزم آرا» العميل للأجانب، ودعا إلى مسيرات كبرى في ميدان «بهارستان» في طهران (أمام مبنى المجلس). وذكِر في البيان الختاميّ للمسيرات موضوع تأميم النفط للمرّة الأولى.

وبعد أن اغتالت منظَّمة «فدائيان اسلام» رئيسَ الحكومة «رزم آرا» (1948م) مُهِّد السبيل لتأميم النفط، وأعلن السيِّد الكاشانيّ ألّا سبيل أمام الحكومة سوى تأميم النفط... فكان التصويت (1948م) على مشروع ذلك بعد 50 عاماً من بدء استخراج النفط الإيرانيّ! وصادق عليه مجلس الشيوخ. وبدأ عهد الحركة الوطنية لتأميم النفط.

الحركة الوطنية لتأميم النفط

بعد إعلان تأميم النفط؛ قامت بريطانيا بإرعاب الإيرانيّينَ، إذ بعثت بقطعاتها الحربيّة إلى المياه الإيرانيّة. وقامت الحكومة بإعلان منع التجوّل في العاصمة وضواحيها. وعمّ الاضطراب جميع المُدُنِ

والمراكز النفطيّة، ما أدّى إلى مقتل عدد من البريطانيّينَ والعمّال الإيرانيّينَ، واسقالت حكومة حسين علاء. ثمّ عرِضت رئاسة الحكومة على د. مصدِّق الذي اشترط المصادقة على مشروع قانون ذو النفط، ذو البنود التسعة، بغية تأميم النفط؛ للقبول برئاسة الوزراء. فتمّ ذلك وترأّس مصدّق الحكومةَ، وعمل على البدء بعمليّة التأميم وفق القانون، ورفع يد الشركة البريطانية عن النفط الإيرانيّ. وقد ساند السيّد الكاشانيّ الحكومة ودعا الشعبَ إلى ذلك. وفي 29 نيسان 1949م؛ حصلت حكومة د. مصدّق على ثقة المجلس، وباشرت عملها تحت قيادة رئيسِها د. مصدّق.

وشهدت المرحلة الأولى من فترة الحكومة الوحدةَ الوطنيةَ والنجاحَ وثقة الشعب بالقادة؛ فيما هاجمت الصحف اليسارية (التابعة لحزب توده الشيوعيّ) الحكومةَ الوطنيَّة التي حرمت االاتّحاد السوفياتي من النفط الإيرانيّ، لكن لم يكن دعمٌ لليساريّينَ كما يأملونَ، بُغيةَ إحداث أيّ تغيير.

وقامت الحكومة الجديدة بإنشاء الشركة الإيرانية للنفط التي رفعت شكوى ضدّ الحكومة البريطانية لدى المحكمة الدولية «لاهاي»، فرفعت الحكومة البريطانية شكوًى ضدّ الحكومة الإيرانية لدى المحكمة ذاتِها. وقد كُشف عن مستندات في منزل ضابط بريطانيّ اسمُه ريتشارد سيدان، تدلُّ على جرائم الحكومة البريطانية في إيرانَ، وعلى العملاء والخَوَنَةِ الإيرانيّينَ، من الأوساط الصحافية والسياسية.

الدورة السابعة عشرة للبرلمان، من الوحدة إلى التشتّت

رأى الذين أزعجتهم الحركة الوطنية لتأميم النفط أنَّ مصالحهم في خطر؛ فقاموا بجهود لعرقلة الانتخابات التشريعية، فاعتصموا في

مبنى المجلس. كذلك أثار حزب توده أعمال شغب واضطرابات، مهاجماً مصدِّق. ودأب السيّد الكاشاني على المحافظة على وحدة الشعب. فقال في ذكرى استشهاد الإمام الصادق (ع): «يسعى الأعداء لتحقيق الفُرقة بين المواطنينَ، ليبيدوا اللحمة التي تعطِّل مشاريعهم المخالِفة للسيادة الوطنية». وأغلقت حكومة مصدِّق القنصليات البريطانية وفروع المجلس الثقافيّ البريطانيّ في إيرانَ، التي قد تحوّلت إلى بؤر تآمر ضدّ إيرانَ. وفي أيّار 1950م؛ افتتِح المجلس بحضور 70 من أعضائه في جوٍّ مِلؤُه التأزّم.

انتفاضة 21 تمّوز 1950م

أعلن مصدّق استقالته بعد اجتماع له مع الشاه. وكان السببُ الخلافَ حول منصب «وزير الدفاع». ولم تأتِ هذه الاستقالة بعد مشورة قادة الحركة الوطنيّة. فأعلن السيّد الكاشانيّ أنَّ قوام السلطنة خائن للشعب، فيجب أن يتنحّى عن الحُكم ليعود مصدِّق إلى مواصلة الحركة الوطنيّة. أمّا قوام السلطنة فأصدر بياناً قال فيه: «إنَّ السياسة من اليوم فصاعداً منفصلة عن الدِّين»؛ متحدِّياً السيِّدَ الكاشانيَّ.

فأمر السيّد الكاشانيّ الشعبَ بالثورة ضدّ الشاه، على أساس الإسلام، ودعا القوات المسلَّحة إلى الالتحاق بصفوف الأمّة. وهدّد الكاشانيّ بثورة عارمة يقودُها نحو البلاط إن لم يعد مصدِّق إلى الحُكم؛ فقال: «أقسِم بالله الذي لا يزول، إن لم يذهب قوام السلطنة، سأعلن الجهادَ وسأحضر بنفسي مع الشعب مرتدياً كفني». فأصدر قوام السلطنة أمراً باعتقال السيّد الكاشانيّ وحلّ البرلمان. فقامت انتفاضة 21 تمّوز.

اشتبكت الجماهير مع القوات المسلَّحة؛ فسقط قتلى وجرحى.

فاضطرَّ الشاه إلى أن يقيل قوام السلطنة، خوفاً من وقوع ثورة كبرى. فانتصرت الحركة وعاد مصدِّق إلى الحُكم.

المرحلة الثانية من حكومة مصدِّق وبدايات الخلاف

تزامنت ثورة 21 تمّوز مع حُكم محكمة «لاهاي» لصالح إيرانَ. فعمّت الأجواء الإيجابيّة وانتخب السيّد الكاشانيّ رئيساً للمجلس من قِبل الأعضاء. لكنَّ هواة الفِتَنِ أرادوا زرع الفُرقة في أوساط الحُكم. فعمدوا إلى انتخاب مَن قمع الشعب خلال ثورة تمّوز أعضاءَ في حكومة مصدِّق.

كذلك؛ ازدادت مطالبات الناس للحكومة بحلّ المشاكل المعيشيّة اليوميّة. وكان في أثناء هذا، عملاءُ بريطانيا وروسيا والولايات المتّحدة يعملون سرّاً وعلناً لنشر الفتنة بين الناس، وإبعاد الشعب عن مسير الحكومة.

الحركة الوطنية لتأميم النفط في نهاية الطريق

ثمة عاملان أساسيّان كانا سبباً في تصعيد الخلاف في الأوساط الحاكمة:

1 ـ رفض المجلس طلبَ الحكومة تمديد تفويضها في التشريع.

2 ـ حلّ المجلس من قبل الحكومة.

وترافق مع هذا كلام بعض الشخصيات الحكوميّة على الفصل بين الدين والسياسة؛ ما هيّأ المناخ لأهل الفِتَنِ من مناوئي الحركة الوطنية وعملاء الاستعمار، ليستغلّوا الأمرَ لضرب جهود الوحدة الوطنية التي عملت من أجلها الحركة الوطنيّة.

فأساء هؤلاء إلى الأمن العامّ، بإضرام نار الفوضى في أرجاء

البلاد. كذلك، عمد كثير من التجار إلى الإضرابات المتتالية التي شلّت الحركة الاقتصاديّة، وقام مُريدو الفتنة باغتيالات، وتوجيه ضربات قاسية للشؤون المالية للدولة، وإيجاد الاشتباكات اليومية، وبثّ الشائعات عن طريق الصحافة والمنشورات...

كلّ ذلك هيّأ لانقلاب 19 آب 1952م؛ ليتمّ القضاء على إحدى الانتفاضات الشعبيّة الكبرى في تاريخ إيرانَ المعاصر.

انقلاب 19 آب 1952م

كانت بريطانيا تحاول إقناع الولايات المتّحدة الأميركية بالتدخّل العسكريّ في الشأن الإيرانيّ لإنجاح الانقلاب. وكان لدى الولايات المتّحدة أطماع في النفط الإيرانيّ، لكن كانت تدعم حكومة مصدِّق. وعندما تمّ اتفاق الولايات المتّحدة مع بريطانيا في خصوص الانقلاب، وصار لها التفوّق العسكريّ على الرُّوس الذين كانوا عائقاً أمام الطَّمَعِ الأميركيّ في إيران؛ تخلّت الإدارة الأميركية عن دعمها لحكومة مصدِّق.

وأعلن المندوب الأميركيّ في مجلس الأمن أنَّ نفط إيران شأن دوليّ، فللقوى الدولية حقّ التدخّل فيه. وأطلق الأميركيون اسمَ «T. P. AJAX» على عمليّة الانقلاب، وأرسلوا كروميت روزفيلت لتنفيذه. وأرسل البريطانيون العميل كريستوفر وودهاوس المسؤول عن ملفّ إيرانَ في الاستخبارات البريطانية «6MI» ليرأس عمليّات الانقلاب (التي أطلقوا عليها اسمَ «عمليّات الجزمة»). وكان ثمّة شبكة استخباريّة ناشطة داخل إيرانَ، يديرها شابور ريبورتر وأسد الله علم؛ كانت مهمّتها القيام بعمليات الانقلاب والتنسيق بين CIA و6MI.

شابور ريبورتر هو ابن «أردشير جي» (من الشخصيات المريبة في تاريخ إيرانَ المعاصر). وكان له ولأبيه علاقة بشبكة استخبارات

يديرها «لورد روتشيلد» صاحب النفوذ الصهيونيّ المعروف. وكان يتمتّع بمكانة خاصّة في6MI وCIA، لا سيّما في الشأن الإيرانيّ. وأطلق على العمليّات التي أدارها ريبورتر اسم «عمليّات الصفصاف الآمِن».

اتّجهت هذه العمليات على الصعيد الثقافيّ (سياسيّاً وإعلاميّاً) إلى قمّة حزب توده الشيوعيّ، وإلى حزب «زحمتكشان»، وحزب القوة الثالثة وحزب إيران والحزب القوميّ الإيرانيّ؛ فاستطاعت هذه العمليّات تحضير أرضية تنفيذ أهداف الشبكة.

فكانت أعمال الشغب في 14 تمّوز 1949م نتيجة العمل الاستخباريّ الغربيّ، وَقُبَيلَ زيارة هاريمن، الممثّل الخاصّ للرئيس الأميركيّ هاري ترومان لإيرانَ. فقد قام حزب توده الشيوعيّ، بتحريض من عملاء شبكة «الصفصاف الآمِن»، باحتجاجات كبرى على زيارة هاريمن. وقامت الأحزاب الأخرى المختَرَقة باعتراض تظاهرات حزب توده. فعمّت الحوادث الدمويّة البلادَ، ما رسّخ فكرة الانقلاب العسكريّ في أذهان رجال الإدارة الأميركيّة.

وبعد وصول آيزنهاور إلى الرئاسة الأميركية، والأخوَينِ دالس إلى وزارة الخارجيّة والـCIA، في الولايات المتّحدة الأميركية؛ تثاقلت الأحداث داخليّاً وخارجيّاً على الحركة الوطنية لتأميم النفط. وكان التنسيق بين «سِير ونستون تشيرشل» (رئيس وزراء بريطانيا؛ محلَّ كليمنت إتيلي المعتدِل، بُغية تنفيذ الانقلاب) وآيزنهاور قلب الأمورَ ضدّ المصالح الوطنية الإيرانيّة. ولقد كان تشيرشل وزير الحربية البريطانية الذي نفّذ نقلاب 1299هـ (بالتنسيق مع أردشير ريبورتر).

وكان اغتيال العقيد أفشار طوس رئيس الشرطة في حكومة مصدِّق، والجرأة على السيّد الكاشانيّ بإلقاء قنبلة على داره؛ تمهيداً

لحدث الانقلاب المتوقَّع. وقد قال غلام حسين صديقي (وزير الداخليّة يوم الانقلاب): «كنت أتوقّع حدوثَ أمر خَطِرٍ منذ بداية العامِ 1950م». وفي 30 تمّوز 1951م؛ القى كلمةً في مدينة «كرج» قربَ طهران حذّر فيها من وقوع انقلاب. كما تناقلت الصحف أخباراً مفادُها احتمالُ وقوع انقلاب يطيح بالحكومة.

وبدأت المرحلة الأولى من الانقلاب في 15 آب 1952م؛ ونزلت الجماهير مساءً إلى الشارع لتأييد الحكومة، بعد أن ذاع خبر هروب الشاه إلى بغداد. وطالب د. حسين فاطمي (وزيرُ الخارجيّة) بإنهاء العهد المَلَكيّ في إيرانَ، فردَّ حزب توده بمظاهرات منتظِمة أخافت الناسَ من وقوع البلاد تحت الحُكم الشيوعيّ. أمّا قادة الجبهة الوطنية؛ فقد تركوا الناس أمام مدّ حزب توده، بدون أن يناصروا الشعبَ ويستنفِروه تصدِّياً لما كان سيقوم به الانقلابيون في ما بعدُ.

وقبل يوم من وقوع الانقلاب؛ بادر السيّد الكاشانيّ إلى تحذير مصدِّق من انقلاب على يد الأميركيّينَ. لكنَّ الردَّ البارد لرئيس الحكومة مصدِّق حال دون التأهّب للمقاوَمة. وإنَّ التمعُّنَ في ما قاله صديقي يُثبت أنَّ الحكومة لم تكن على استعداد للتصدّي للانقلاب. فتغيير ثلاثة قادة للشرطة في صبيحة 18 آب يثبت عشوائيّةَ الحكومة أمام الانقلابيّينَ، مع كَونِ رجالها عالِمِينَ بأمر وقوع انقلاب!!

وفي مساء 18 آب؛ تعاون أوباش طهران على إنهاء حكومة مصدِّق الذي أصرّ على تسليم نفسه للحكومة العسكريّة.

أسباب تراجع الحركة الوطنية

1 ـ غياب القيادة الموحَّدة.

2 ـ غياب الأهداف الموحَّدة.

3 ـ فصل الدين عن السياسة والتضييق على الطاقات المتديّنة.

4 ـ تأجيج الخلافات وبثّ الشائعات السياسيّة من قِبل المرتبطينَ بالبلاط.

5 ـ غياب المعرفة الحقيقيّة لماهيّة العدوّ؛ وتسلّل شبكات التجسّس البريطانية والروسية والأميركيّة.

وقد قال د. صديقي، في هذا المجال، إنَّ العوامل تتمثّل بـ:

1 ـ حيثيّات وخصائص المجتمَع الإيرانيّ، وأوضاع وشؤون الطبقات الاجتماعيّة؛ سواء سكان المدن والأرياف والقبائل، وتباينهم في تقاليدهم وتضارب مصالحهم وعدم نضجهم السياسيّ نتيجةَ تلك الأوضاع.

2 ـ الموقع الجيوسياسيّ (الاستراتيجيّ) لإيرانَ، وتاريخ علاقاتها الدولية والتقلّبات السياسيّة التي حدثت في تلك الأوضاع، واتّجاهات الدوَل العظمى سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً، وتضارب المصالح، والمنافسات والمؤامرات والمطامع العديدة، داخليّاً وخارجيّاً.

3 ـ تأثير عمل الشركات الدولية الكبرى في الشؤون السياسيّة والاقتصادية داخل حدود بلادها وخارجها.

4 ـ التصوّر البعيد عن الواقع، لوجود خلافات أساسيّة بين الدوَل الرأسماليّة ذات الدخل في الشؤون السياسيّة والاقتصاديّة، والاعتماد على ذلك التصوّر الخاطئ[1].

---

(1) ظنَّ مصدِّق أنَّ الولايات المتّحدة لن تقف إلى جانب بريطانيا في وجه مصالح إيران الوطنيّة.

5 ـ القضايا الخاصّة بنظام الحُكم المَلَكيّ المشروط ونواقص وإبهامات القوانين الدستورية لهذا الحُكم.

6 ـ عدم وضوح حدود صلاحيات المَلِكِ، وموقعِه القانونيّ، وتداخل تلك الصلاحيّات مع متطلّباته الشخصيّة (اعتداءاته على حقوق الشعب).

7 ـ غياب الأحزاب السياسيّة الوطنية ذات التأثير؛ من حيث المشارَكة في الانتخابات التشريعية والإشراف على السياسات الداخليّة والخارجيّة للبلاد.

8 ـ المشاكل الخاصّة بإجراء انتخابات حرّة، الناجمة عن تداعيات الأوضاع السيّئة للمجتمَع الإيرانيّ، واستغلال القوى الأجنبيّة لذلك.

9 ـ ضعف الأسس والهويّة البرلمانية، والانحراف الخُلُقيّ والسياسيّ لبعض النوّاب.

10ـ قلّة عدد السّاسة المؤهَّلين ثقافيّاً، الواعينَ بالسياسة الداخليّة والخارجيّة الدوليّة.

11ـ تضارب أفكار مصدِّق الوطنيّة مع الموانع الداخليّة والدولية.

12ـ الجبهة الوطنيّة عينُها، وطريقة تأسيسها، وحيثيّات أعضائها فرديّاً وتنظيميّاً.

13ـ افتقار حكومة مصدِّق للدراسات والتقديرات اللازمة.

14ـ التركيبة السياسيّة لأعضاء البرلمان السابع عشر، وتأثر بعضهم بالتيارات السلبية، وإضعاف الحكومة بشتّى الوسائل.

15ـ الدعاية المضلِّلة من قِبل بعض التنظيمات السياسيّة المرتبطِ بعضُها بالخارج.

16ـ العمل الجماعيّ المنظَّم لمناوئي الحركة (أعضاء مجلس الشيوخ وضباط الجيش المتقاعدينَ وكبار الإقطاعيّينَ وبعض المدراء...).

17ـ أخطاء المسؤولين (مداهناتهم عند اتّخاذ بعض القرارات).

18ـ مصاعب انقطاع مبيعات النفط الإيرانيّ، وتجميد ودائع إيرانَ بالليرة الإسترلينيّة في البنك البريطانيّ، وعدم تسديد الاتحاد السوفياتي ديونَه لإيرانَ.

19ـ الدعاية المعادية لـ«مصدِّق»، وإيجاد الاضطرابات بين طبقات الشعب.

الوضع الإيرانيّ بعد انقلاب 18 آب 1952م

برز الدور الأميركيّ قوّةً جديدة على الساحة الإيرانيّة؛ وأبدى محمّد رضا بهلويّ انتماءً أكثر تجذّراً إلى الولايات المتّحدة التي أعادته إلى الحُكم عبر الانقلاب العسكريّ...

وتعرّضت، بعد الحرب العالميّة الثانية، المصالحُ الاستعماريّة للخطر؛ فقد ظهرت حركات التحرر على المسرح العالَميّ، ورفعت الشيوعية شعار مكافحة الفقر ونجاة الشعوب وحكم العمّال والفلّاحينَ وكادحي المجتمَع.

واستطاع عدد من شيوعيّي أميركا اللّاتينيّة وأوربّا وآسيا الوصول إلى الحُكم، عبر انقلابات عسكريّة أو حركات اجتماعيّة (مسقطينَ الحكومات الموالية للولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا). فكان لإيرانَ أهمّية استراتيجيّة قصوى في نظر الولايات المتّحدة، إذ إنَّ إيرانَ تحدّ الاتّحاد السوفياتيّ الذي قد يشكّل خطراً على مصالح الغرب الاستعماريّ في إيران (لا سيّما لجهة النفط). فصارت إيرانُ مسرحَ

الاختبارات الأميركيّة لأساليب مواجهتها للمدّ الشيوعيّ والنفوذ الروسيّ معه.

وفي ظلِّ هذه الأوضاع؛ برزت بوادر حركة حزيران 1963م، مع ظهور دور الإمام الخمينيّ زعيماً لحركةٍ دينيّة ووطنيّة كبرى، وبداية عهد جديد لإيرانَ.

إيران مسرح اختبار المشاريع الأميركيّة في آسيا والشرق الأوسط

أوّلاً: مشروع الإصلاح الزراعيّ:

عرض الرئيس الأميركي جان كينيدي، العامَ 1960م، على العالَم مشروعاً أسماهُ استراتيجيّة السلام والاتّحاد من أجل التقدّم. وكان في ظاهر الأهداف الأساسيّة الإصلاحُ الزراعيّ، وتقسيم الأراضي الزراعية بين المزارعينَ والفلّاحينَ. لكنّها كانت فعلاً أطروحة للحيلولة دونَ نفوذ الشيوعية وقيام الثورات الاجتماعيّة ضدّ الحكومات الموالية للغرب، وإيجاد الأرضية المناسبة لتغييرِ النُّظُمِ السياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة المحلّيّة التقليديّة.

وكانت الحكومة الأميركية تؤمن بضرورة إجراء بعض الإصلاحات في إيرانَ؛ فقامت حكومة د. إقبال (1959م)، بتقديم مشروع قانون إصلاحيّ إلى البرلمان، كما سنّت قانون «من أين لك هذا؟»، لكن الولايات المتّحدة ظلّت غيرَ راضية. فتسلّم جعفر شريف إمامي الحكومة من منوشهر إقبال، بشعار مكافحة الفساد، ومنح الأحزاب حرية العمل، بعد اتفاق بريطانيا والولايات المتّحدة والبلاط الإيرانيّ. ثمّ تسلّم علي أميني رئاسة الوزراء العامَ 1961م، بضغوط أميركية ليقوم بالإصلاحات المقصودة من قبل الأميركيّينَ.

وكان العامُ 1961م عامَ النزاع على السلطة بين الشاه وأميني. فلأنَّ الشاه كان يعتقد أنه قادر على إجراء الإصلاحات اللازمة، دون أيّ أحد آخرَ، زار وزوجته الولايات المتّحدة لمدّة 45 يوماً كانت فترةً استثناءً في العُرف السياسيّ. وعاد الشاه مرتاحاً لبدء العمل على عزل أميني وقد تمّ له ذلك في 1962م، وكان بحجّة الخلاف على الميزانية العسكرية للبلاد، وحلَّ محلّه أسد الله علم رئيساً للوزراء منفِّذاً لأطروحة الإصلاح الزراعيّ في إيرانَ، وهو الموثوق به نظراً لتاريخ أسرته في خدمة المصالح الغربية.

أمّا برنامج الإصلاحات الذي أعدّه فريق مستشاري وزارة الخارجيّة الأميركية، أمثال جان بولينغ، فكان:

1 ـ على الشاه توجيه معارضة الشعب نحو الوزراء ملقياً اللوم عليهم، ويتبرّأ من المسؤوليّة.

2 ـ أن يبتعد عن مواقفه الغربيّة السافرة.

3 ـ أن يقوم ببرنامج إصلاحيّ زراعيّ ظاهريّاً.

4 ـ أن يعارض الشركات النفطيّة، لكن يُبدي أنها تحت سيطرته.

ثانياً: قانون المجالس المحلية

كان المشروع الثاني لإيجاد أرضية مناسبة للسياسة الأميركية في إيرانَ. تمّ طرحه على البرلمان العامَ 1962م. هاجم من خلاله الشاه الهويّة الدينيّة للشعب، وتضمّن القانون بنوداً تتحدّى الهويّة الدينية؛ على النحو الآتي:

أ ـ إلغاء شرط الإسلام للناخبينَ والمنتخبينَ.

ب ـ إلغاء اليمين بكلام الله المجيد (القرآن الكريم).

عارض علماء الدين الأمرَ؛ وكان مِن بينهم شخصيّة فذّة معروفة هي «الإمام روح الله الخمينيّ».

ثالثاً: ثورة الشاه البيضاء:

وكانت هذه الثورة ثالث المشاريع الاختبارية الأميركية لتأصيل النفوذ الأميركي في إيرانَ. ففي كانون الأوّل 1962م؛ أعلن الشاه أسساً ستّة، تحت عنوان «الثورة البيضاء»:

1 - إلغاء نظام الإقطاع.

2 - سنّ قانون تأميم الغابات.

3 - بيع أسهم المصانع الحكومية دعماً للإصلاح الزراعيّ.

4 - إشراك العمّال في أرباح المعامل الإنتاجية والصناعية.

5 - تعديل قانون الانتخابات.

6 - تنفيذ قانون التعليم الإجباريّ العامّ عبر الشرطة العلمية (سپاه دانش).

وقد ساعد الإعلام في إنفاذ هذه الأسُس ليؤمِنَ بها الشعب...

رابعاً: إعادة قانون الحصانة القضائية أو «كابيتولاسيون»

في تمّوز 1962م؛ سنَّ حسين علي منصور رئيسُ الوزراء، قانوناً يعطي الجنود الأميركيينَ حصانة قضائيّة (قانون «كابيتولاسيون») تُناقِض السيادة، سياسيّاً وقضائيّاً. ومع العام 1962م؛ لمع نجم الإمام الخمينيّ زعيماً قويّاً ذكيّاً واعياً، فكان يدقّق في حيثيّات التحوّلات المعاصرة وأسبابِ فشل الحركات الإسلاميّة. واكتسب الخمينيّ خبرة من حركة الميرزا الشيرازيّ (ثورة التبغ)، وثورة الدستور، وانتفاضة مدينة «قُم»، وكفاح السيّد حسن المدرس، والحركة الوطنية لتأميم النفط.

أدخل الإلمام العميق للإمام الخمينيّ بكيفيّة وجوب إدارة مواجهة الاستبداد، وقيادة الأمّة، المجتمعَ الإيرانيَّ في عهد جديد: «عهد الثورة الإسلاميّة والجمهوريّة الإسلامية».

مراحل عهد الثورة الإسلامية

1 - **ما بين تأليف كتاب «كشف الأسرار» وانتفاضة 4 حزيران:** أولى تجارب العمل السياسيّ للإمام الخميني، كان كتاب «كشف الأسرار» (1939م - عند طرد الشاه رضا بهلويّ الأب). فعارض سياسة الشاه المعادية للدِّين. كذلك عارض قانون مجالس الولايات، حتّى نُفي من إيران وهاجر إلى النجف الأشرف.

وقد طَوَتْ هذه التجربة السياسيّة ثلاث مراحل هي:

أ - **معارضة مشروع قانون مجالس الولايات:** فقد عقد الإمام الخمينيّ اجتماعاً مع كبار علماء «قُم»؛ أرسِلت بعدَه برقية إلى الشاه. واتفق على توعية أئمةِ المساجد والواعظين على المنابر أفرادَ الشعب حول مساوئ هذا القانون. فتراجع الشاه مُوْكِلاً قرارَه إلى الحكومة التي ألغت القانون خوفاً من المدّ الشعبيّ ضدَّها. ودخل الإمام الخمينيّ قلوب الجماهير زعيماً حازماً لا يعرف المهادَنة.

ب - **معارضة الثورة البيضاء:** أصدر الإمام الخمينيّ، بالتعاون مع المراجع والعلماء في «قُم»، بياناً عارض المشروعَ والاقتراعَ عليه. وأصدر الخمينيّ بياناً منفرداً نبّه فيه من استهداف هذا المشروع للبنود الخاصّة بالدين في القانون، وطلب من الشعب الامتثال لنداء الإضراب الذي عمّ طهرانَ و«قُم» وسائرَ المُدُنِ. وردّدت الجماهير: «الاقتراع الكاذب مخالِف للإسلام»؛

وسقط عدد من أفراد الشعب على يد قوّات الشاه. فادّعت الحكومة أنَّ معارضي الثورة البيضاء هم كبار الإقطاعيّينَ. وذهب الشاه إلى «قُم» فَلَمْ يَستقبلْه أيّ من العلماء، فألقى غاضباً كلمةً أهان فيها العلماءَ. ثمّ جرى الاقتراع وادّعى الشاه مشاركة أغلبية الشعب، وتلقّى برقيّات تهنئة من الرؤساء والقادة في أوروبّا والولايات المتّحدة على «الثورة البيضاء». وردّ الإمام الخمينيّ بإعلان أعياد النوروز عزاءً عامّاً... وقام جلاوزة الشاه بقتل عدد من طلاب العلوم الدينيّة وغيرهم من أبناء الإيرانيّينَ في «قُم»، وكان مثل ذلك في تبريز. فأصدر الإمام الخمينيّ بياناً بعنوان «حبّ الشاه يعني الهمجيّة والسرقة»، تعرّض فيه لكلّ أركان الحُكم البهلويّ، واصفاً دعامات النظام بأصل تخلّف الشعب وبؤسه. وهذه الدعامات حدّدها بـ«الولايات المتّحدة» و«الاستبداد المَلَكيّ» و«إسرائيل». وفي 1963م؛ دخلت الحركة الإسلاميّة في إيرانَ طوراً جديداً؛ فقد أطلق الناس للمرّة الأولى هتاف «الموت للديكتاتور»! ثمّ ألقى الإمام الخمينيّ في المدرسة الفيضيّة خطاباً هاجم فيه الولايات المتّحدة وإسرائيل بقوّة، فألقى أزلام الشاهِ القبضَ على الإمام الخمينيّ وساقوه إلى طهران. فخرج آلاف الجماهير في مختلف مدن ومحافظات البلاد يهتفون «الموت أو الخمينيّ»؛ فسقط الآلاف شهداء وجرحى. وتوّجه علماء «قُم» إلى طهرانَ فاضطُرَّ الشاه إلى الإفراج عن الإمام الخمينيّ ومَن معه مِن العلماء المعتقَلينَ، واستقبلته جماهير الشعب في «قُم» بسعادة عارمة.

ت ـ **معارضة قانون الحصانة القضائية**: أعلن الإمام الخمينيّ، الذي صار زعيم الأمّة الأوحد، أنَّ هذا القانون يتعارض مع

استقلال البلاد. فنظّم معارَضةً واسعة لهذا القانون. وفي تشرين الأوّل 1963م؛ ألقى الخمينيّ خطاباً عارض فيه النظامَ المَلَكيّ وسيطرة الأجانب على البلاد، وقال: «إنَّ قلبي مكبوت... لا عيدَ لإيرانَ بعد اليوم... لقد باعونا... سحقوا كرامتنا»، فضجّ الناس بالبكاء متأثِّرينَ. وبيَّن الإمام أبعادَ قانون الحصانة القضائيّة، وتعرّض لهجوم الاستعمار الأميركيّ والسوفياتيّ والبريطانيّ والإسرائيليّ. فاعتقل النظامُ الإمامَ ونفاه إلى تركيا في 3 تشرين الثاني 1963م. فأقفلت المحالّ التجارية أبوابَها وأضربت الأسواق وعمّت التظاهرات البلادَ، لكن النظامَ استطاع السيطرةَ على الأمر. وبدأت مرحلة جديدة من الحركة الإسلاميّة في إيرانَ.

2 ـ **الإمام الخمينيّ: من الهجرة صَوبَ النجف حتّى بداية الثورة الإسلاميّة**: كانت الفترة ما بين 1964م و1977م فترةَ صبر وترقّب، فيما تمادى النفوذ الأميركيّ في كلّ أركان حُكم محمّد رضا بهلويّ، وسيطرت سياسة القمع الشاهنشاهيّ. كانت سمات هذه المرحلة السياسيّة والعقيدية والعسكريّة على النحو الآتي:

أ ـ سياسيّاً/ عقيديّاً؛ أرسى الإمام الخمينيّ القواعد النظريّة لتأسيس الدولة الإسلاميّة للمراحل المقبلة عبر دروسه الفقهية بعنوان «ولاية الفقيه» (1976م). وشرح أتباعُ الإمام طروحَه الفكرية للناس، لا سيّما الطبقات المثقّفة والجامعيّينَ. وكان يمثّل العلّامة المطهَّري وآية الله بهشتي ود. مفتح وآية الله الطالقاني تيار الحوزة العلمية في «قُم». ومثَّل د. علي شريعتي جيل الجامعيّينَ في إيرانَ، وكان له الدورُ البارز المؤثِّر في بثّ الفكر الاجتماعيّ للإسلام، وفكرة تأسيس الدولة الإسلاميّة وتوعية الجماهير (لا سيّما جيل الشباب الصاعد) لحقائق الدِّين.

ب ـ عسكريّاً؛ بعد هجرة الإمام إلى النجف الأشرف، قامت منظَّمات عدّة، ذات غايات متباينة، بالعمل المسلَّح ضدّ نظام الشاه. إلّا أنَّ منظَّمة الأمن «السّافاك» أحبطت مساعي هذه الجهات التي لم تحظَ بشعبيّة كبيرة تدعم مسارَها. وقد قامت المنظَّمات الإسلاميّة المؤمنة بنهضة الإمام الخمينيّ، باغتيال حسن علي منصور رئيس الوزراء الذي سنَّ قانون الحصانة القضائيّة، ونفّذ أمر نفي الإمام الخمينيّ إلى الخارج. وقد نفّذ الاغتيال أربعة من جمعيّة «المؤتلفة الإسلامية»؛ هم محمّد بخارائيّ وصادق أماني وورضا صفّار هرندى ومرتضى نيك نجاد، ونالوا جميعاً شرف الشهادة. ثمّ قمع نظام الشاه حركات المقاومة بعنف، وقام بالإصلاحات المنشودة أميركيّاً، وقد أنفَق الشاهُ عائدات النفط على شراء السلاح والعَتاد، لتنفيذ المآرب الأميركية. وقد تولّى أمير عبّاس هويدا منصب رئاسة الوزراء، منذ 1964م حتّى 1977م، فأنفق الملايينَ من أموال الشعب على الاحتفالات التي تناسى بها البلاطُ فقرَ وشظفَ حال الشعب الإيرانيّ. وكانت احتفالات مرور 2500 عام على الإمبراطوريّة الفارسيّة واحتفالات الثورة البيضاء وأعياد ميلاد وليّ العهد وأمّ الشاه العِبءَ القاصم لظهر الدولة. فانهار الاقتصاد الإيرانيّ، وقام نظام العمولات («الكوميسيونات») في الاقتصاد، داخليّاً وخارجيّاً، والطاعة المطلَقة للسياسات الأميركية في البلاد على الصعيدَينِ الإقليميّ والدَّوليّ. فصارت إيرانُ مستعمَرةً أميركيّة. وبعد إنهاك المعارضة أقدم الشاه على محو المظاهر الإسلاميّة، فاعتمد (منذ العام 1973م) التقويمَ الشاهنشاهيّ بدل التقويم الهجريّ الشمسيّ، فوصف الإمام الخمينيّ من النجف الأشرف هذا العمل بـ«أخبث الخيانات في حقّ معتقدات الشعب المُسلِم».

ولدى اندلاع الحرب العربية ـ الإسرائيليّة، ارتفعت أسعار النفط، فازدادت واردات الحكومة الإيرانية، فأنفقها الشاهُ في شراء الأسلحة فيما كابد إيرانيّو القرى والمحافظات شحَّ المياه ونقصَ الطاقة الكهربائية ووعورةَ الطُّرُقِ وسوءَ خدمات الصحة والتعليم. وبذلك بدأت أولى ترانيم الثورة الإسلاميّة.

تداعي النظام البهلويّ

أسباب اندلاع الثورة الإسلاميّة في إيرانَ:

1 ـ **شيوع الفساد المالي والاقتصادي في شتّى نواحي المجتمَع:** سبّب الجشعُ والطمعُ وسلب ثروات الأمّة من قِبل الأسرة الحاكمة، وبعض أمراء الجيش والوزراء وأعضاء مجلس الشيوخ والنوّاب، شرخاً اقتصاديّاً كبيراً بين طبقات المجتمَع. فازداد السخط الشعبيّ على النظام البهلويّ.

2 ـ **روَاج الفساد الخُلُقِيّ ومحاربة المظهر الإسلاميّ العامّ:** قام النظام البهلويّ على معاداة الإسلام والعفّة، ونشر الفساد الخُلُقِيّ في المجتمع عبر وسائل الإعلام المتنوِّعة، وإيجاد مراكز الدعّارة للشباب وترويج المخدِّرات التي كانت أشرف بهلوي (أخت الشاه) وشابور غلام رضا (أخو الشاه)، يُديرانِ شبكات توزيعِها. فاقتنع الشعب الإيرانيّ المُسلِمُ بضرورة القيام بالتغيير الجذريّ والأساسيّ ـ الثورة!

3 ـ **الفساد الإداريّ وعدم كفاءة المدراء في المجتمَع والمؤسّسات الحكوميّة:** اضطرب النظام الاجتماعيّ وشاعت البيروقراطية الإدارية وتفشّى التضخّم والرشوة، والمَيل عن العدالة. كذلك انعدم الأمن في الأعمال... كلّ ذلك ولّد حقداً شعبيّاً (إسلاميّاً) على النظام البهلويّ.

4 ـ **تماديّ النظام في قمع الشعب، وتفشّي الرُّعب**: كان انعدام الثقة للشعب بالنظام التابع للسياسة الأميركيّة، سبباً في اعتماد النظام القمعَ الشديد لأفراد الشعب. وازداد عدد السجون، والتسلّح العسكريّ والبوليسيّ بشكل كبير. وكثُرت الخلايا التجسسيّة (منها خلايا «السافاك») لكشف المعارَضة واصطيادها؛ ليحافظ النظام القائم على ديمومته! وقد اغتال «السافاك» المفكِّرَ آية الله الغفاريّ، واعتقلَ ونفى علماء الأمّة. فصار حتماً وجوبُ التخلّص من هذا النظام.

5 ـ **اتّساع دائرة نفوذ الأجانب في كلّ أركان النظام**: كان الشاه قد أعلن أنّه مَدِينٌ للأميركيّينَ في تولّيه حُكمَ البلاد. فبسط اليد الأميركية في جميع الأركان السياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة والثقافيّة للبلاد. فكان تطبيق مشروع الإصلاح الزراعيّ والثورة البيضاء وقانون مجالس الولايات... بل حتّى إعادة اتفاقية الحصانة القضائيّة للأميركيّينَ. فصارت إيرانُ شُرطِيَّ المصالح الأميركية في منطقة الخليج الفارسيّ. وكثُر الأميركيّون مِن ذوي الاختصاصات المتنوّعة في إيرانَ. وكان الشعب غير راضٍ عن هذا الوضع الهدّام للكيان الإيرانيّ، والمهمِّش للهويّة الإسلاميّة التي يؤمن بها الشعب. كما خصِّصَت قناةٌ تلفزيونية خاصّة للأميركيّينَ، لترويج الثقافة الأميركيّة، وإيجاد علاقات واسعة مع النظام الصهيونيّ المحتلّ للقُدس الشريف بأوامر أميركية.

6 ـ **تأسيس حزب البعث («رستاخيز»)**: كانت إيرانُ مع النظام البهلويّ مضطرِبةً متقلِّبة، فيما كان الأميركيّون يريدونها ساحة أمان لهم في الشرق الأوسط؛ فبات ضروريّاً لدى النظام الحاكم إيجادُ تنظيم شامل يستقطب الناسَ كلّهم ويُغري النخبة الثقافيّة والسياسيّةً لتشارك فيها، فيعمّ الاستقرار والانسجام

محلَّ الاضطرابات. فأسّست العناصر الموالية للنظام «حزبَ البعث»، وجعلوا الانتماء إليه إجبارياً لكلّ أفراد الشعب! فأفتى الإمام الخمينيّ بحرمة الانتماء إلى هذا الحزب، منذ بداية تأسيسه.

7 ـ **المجال السياسيّ المفتوح (نار في هشيم)**: لقد ضيّق الغضب الشعبيّ الخناق على الشاه وأعوانه. وفي 1979 فاز الحزب الديمقراطيّ الأميركي في الانتخابات الرئاسية الأميركية. ونظراً إلى النفوذ السوفياتيّ في بلدان العالَم الثالث، رفع الحزب الديمقراطيّ الأميركيّ شعار «حقوق الإنسان والمجال السياسيّ المفتوح»، واضعاً الحُكم البهلويّ في مناخ جديد. فاضطرّ الشاه إلى رفع الشعار إيّاه. وقام الرئيس كارتر بزيارة إيرانَ، لِيُشرِفَ هو شخصيّاً على حُسنِ أداء هذا المشروع. وأنهى الشاه رئاسة أمير عبّاس هويدا للحكومة (بعد 13 عاماً أمضاها هويدا في المنصب)، وعيَّن مكانه جمشيد آموزكار العامَ 1977 للحدّ من النقمة الشعبيّة، فحالة «المجال السياسيّ المفتوح» لم تمكِّن الشاهَ من السيطرة على الأوضاع، فضلاً عن كونها شرّعت أبواب مرحلة جديدة للجهاد أمام الإمام الخمينيّ والحركة الإسلاميّة.

8 ـ **وفاة شخصيات محبَّبة لدى الناس بشكل مثير للشكوك**: توفّي علي شريعتي بشكل مفاجئ في لندن، ثمّ توفّي السيّد مصطفى الخمينيّ النجل الأكبر للإمام في ظروف غامضة. وتعرّض مجلس عزاء عن روح السيّد مصطفى لهجمات رجال الشُّرطة! فوصف الإمام الخمينيّ وفاةَ نجله بـ«أحد ألطاف الله الخفيّة للثورة». فازداد سخط الشعب على النظام البهلويّ.

9 ـ **نشر مقال ضدّ الإمام**: نشَرت صحيفة «اطّلاعات» (6/ 1/

1978م) مقالاً بعنوان «إيران والاستعمار الأحمر والأسوَد»، وجِّهت من خلاله إهاناتٌ إلى الإمام الخمينيّ، فاشتعل لهيب الثورة الإسلاميّة في إيرانَ. وفي 8/ 1/ 1978م؛ تظاهر أهالي مدينة «قُم» احتجاجاً على المقال وهم يهتفونَ «يعيش الخمينيّ» و«الموت للحُكم البهلويّ». وسقط عدد منهم شهداء برصاص الشرطة، فأعلن علماء طهران الحداد العامّ لفترة أسبوع، تلا ذلك تظاهرات مدينة تبريز في ذكرى أربعينيّة شهداء «قُم»، ليعود سقوط الشهداء والجرحى! وامتدّت التظاهرات من تبريز إلى باقي المُدُنِ الإيرانيّة التي شهدت سقوط المزيد من الشهداء... فكلّما سقط شهيد في مدينة قام أهالي مدينة أخرى بتأبينِه... حتّى سقط، في نهاية المطاف، النظامُ البهلويّ الجائر.

10ـ **عجز رجال الحُكم عن تلبية مطالب الشعب**: فكان الإمام الخمينيّ يدعو إلى مواصلة التظاهرات ضدّ الحُكم الطاغي المُحبَط حتّى يتهاوى فيسقط. فظلّ الخمينيّ حريصاً على امتلاء الشوارع بالمظاهرات.

11ـ **الحكومة العسكرية ومنحدَر السقوط**: بعد إقامة صلاة عيد الفطر المبارك (1977م) في طهران، أمَّها د. مفتح؛ جالت الشوارع تظاهرة عامّة كبرى ضدّ النظام البهلويّ. فأعلن النظام قيامَ حكومة عسكرية لقمع الجماهير. فكانت مجزرة 7 أيلول 1977م، التي سقط فيها عدد مَهُولٌ من الرجال والنساء والأطفال شهداءَ؛ سبباً في تعزيز الزَّخمِ الشعبيّ لإسقاط الحُكم البهلويّ.

12ـ **هجرة الإمام الخمينيّ إلى باريس وإخفاق الحُكم البهلويّ**: تفاوض النظام في إيرانَ مع النظام البعثيّ في العراق، ليضغَط

على الإمام الخمينيّ ليترُك زعامته للمعارضة الشعبيّة العارمة. فأدّت هذه المفاوضاتُ إلى هجرة الإمام الخمينيّ إلى باريس، وقد وضعت إمكانيّات هائلة تحت تصرّفه. فاستفاد الإمام من الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى، لإيصال نداء الجماهير المُسلِمَةِ في الثورة المبارَكة، بما يلاقيه من الجَور، إلى مَسامع العالَم.

13ـ **حادثة 3 تشرين الثاني 1977م**: تحوّلت المدارس والجامعات في إيرانَ إلى مراكز انطلاق الثورة الإسلاميّة. فقام الطلاب وتلاميذ المرحلة الثانويّة بتظاهرة ضخمة في جامعة طهرانَ في 3 تشرين الثاني 1977م. فحوّلها النظام العميل إلى حمّام دم! فخرج الناس في اليوم التالي متظاهرينَ ضدّ الجريمة التي وقعت، فأسقطت حكومة شريف إمامي (الذي استلم رئاسة الوزراء تحت شعار «المُصالَحة الوطنية»)، فحلّت محلّها حكومة الجنرال أزهاري العسكريّة، أمّا الشاه فظهر على التلفزيون يقرّ بما ارتكبه نظامُه، ويدعو العلماءَ إلى إعادة الهدوء والاستقرار إلى البلاد.

14ـ **شهر محرّم والعلاقة بين الثورة الإسلاميّة وثورة كربلاء**: علم الشاهُ، مع سَير المسيرة العاشورائيّة لعام 1978م، أنَّ سقوط النظام بات قريباً جدّاً؛ إذ هتفت الجِماهير في كلّ يوم «استقلال... حرّيّة... جمهوريّة إسلاميّة». فلم يعد أحد يتصوَّر خموداً لنار تلك الثورة.

15ـ **هروب الشاه من إيرانَ وسقوط حُكم أسرة البهلويّ**: بعد خيبة حكومة الجنرال أزهاري، عيَّن الشاه شابور بختيار رئيساً للوزراء على أساس مقترح أميركيّ ـ بريطانيّ. وبعد التفاوض مع قادة الجبهة الوطنيّة، على أمل أن يسيطر بختيار على

الأوضاع (من خلال وعود ببعض الأمور الهامشيّة، مثل حرّية الصحافة وإطلاق بعض السجناء السياسيّينَ وحلّ مديريّة «السّافاك» وهروب الشاه من إيران خديعةً ابتدعَها بختيار)؛ ظلّ الإمام الخمينيّ مواظباً على مبدإ إنهاء الحُكم المَلَكِيِّ القائم، فشكَّل مجلس الثورة الإسلاميّة، مواجهاً بذلك كلّ الألاعيبَ السياسيّة.

16ـ **عودة الإمام الخمينيّ إلى الوطن وبزوغ فجر الدولة الإسلاميّة:** أربك إقدام الإمام الخمينيّ على العودة إلى إيرانَ، العميلَ بختيار وحُماتَه الغربيّينَ، وأوقعهم في أزمة كبيرة. ففي الأربعين الحسينيّ 1357هـ؛ طالبت جميع فئات الأمّة بعودة القائد المحبوب إلى الوطن. فاستسلم بختيار، بعد مماطَلة أيّام عدّة، فتمّ فتحُ مطار مهرآباد الدَّوليّ لاستقبال الإمام بعد السنينَ العجاف.

17ـ **دخول الإمام الخمينيّ إيرانَ وتهاوي النظام البهلويّ:** شهدت طهران في 31/ 1/ 1978م أعظم استقبال في التاريخ لقائد شعبيّ ودينيٍّ محبوب. فاتّجه لدى وصوله إلى المطار، إلى مقبرة «بهشت زهرا» (جنَّة الزهراء) حيث مثوى الشهداء الأخير، ليلقي تحيةَ الوفاء، ويعاهدَهم عبر خطاب مهمّ، معلناً نهاية العهد المَلَكِيِّ غير الشرعيّ ودكتاتوريّة البهلويّ. وسرعان ما تحوّلت مدرسة «رفاه» في طهرانَ، إلى قلب إيرانَ النابض، فقد أقام الإمام هناك. وفي 3/ 2/ 1978م؛ تمّ تعيين المهندس بارزگان رئيساً للحكومة الثورية المؤقَّتة. وفي 7/ 2/ 1978م؛ حضر عدد من ضبّاط القوة الجوية للقاء الخمينيّ، فكانت الضربة الأخيرةَ التي توجَّه إلى النظام البهلويّ المحتضَر. أثار هذا اللقاء حفيظةَ بعض الضبّاط في قوّات الحَرَسِ المَلَكِيِّ

المعروفة بـ«فِرقة الخالدِينَ»، فهاجموا القوّة الجويّة. فأعلن بختيار الأحكامَ العرفيّة وحظر التجوُّل، فردّ الشعبُ الإيرانيُّ بالسيطرة على الجيش ومعسكراتِه والمراكز الحكوميّة، فأشرقت شمس الثورة الإسلاميّة في 11/ 2/ 1978م، وسمِّيَت الأيّام العَشَرَةُ هذه بـ«عشرة الفجر».

الفصل الرابع عشر

نظرة إلى التجربة السياسيّة ــ الثقافيّة للماسونيّة (البنّاؤون الأحرار) في إيرانَ

الماسونية من الجمعيات التي أثارت الكثير من الجدل منذ نشأتها حتّى وقتنا الحاضر، لخصوصيّتها الفريدة. يَعتبر مؤيِّدو الماسونية وأعضاؤها أنها إطار منظَّم يرمي إلى الترقّي بالإنسان في حركته التربوية من أجل حياة شريفة. أمّا معارِضوها فيرونها مُفعَمَةً بالأسرار لتحقيق أهداف الاستعمار والإمبريالية والصهيونيّة، ولاستقطاب الناس إليها.

ومن الواضح أنَّ توسّع حركة الماسونية في العالَم الثالث كان دائماً مرتبطاً بتوسّع حالات الاستعمار للبلدان الضعيفة.

أوجد محفل الماسونية في مصر مع احتلال نابوليون لها؛ وكان للماسونية نشاط في الهند وجنوب أفريقيا يتماهى مع نفوذ الاستعمار في هاتَينِ الدولتَينِ. وفي إيرانَ، من خلال الاتصالات مع فرنسا وبريطانيا خلال حُكم «فتح علي شاه»؛ عمدت هاتان الدولتان إلى

جذب الإيرانيين إلى محافل الماسونية بشتّى الوسائل ليتسنّى لهما احتلال الهند وأماكن أخرى في قارّة آسيا.

ولقد تمّ قبول ميرزا حسن خان إيلجي، وميرزا ملكم خان، وعسكرخان أفشار رومي، وآخرينَ، في المحافل الماسونية للعمل على تحقيق الأهداف الماسونية. فصارت إيرانُ تدريجيّاً ميداناً للماسونيّة في المجالات السياسيّة والاقتصادية والثقافية.

نبذة تاريخية عن نشأة الماسونية في العالَم

«ماسونيّة» أو «فري مايسنري» (باللغة الإنكليزية)، و«فران ماسونيري» (باللغة الفرنسيّة)؛ وفي كلتا اللغتَينِ تعني «البَنّائين الأحرار». وفي اللغة الفارسيّة تسمّى «فراموشخانه» و«فراماسون» و«فريمشن» و«فريمسن» و«البنّاء الحرّ». كما أنَّ اللغة العربيّة تَستعمل الألفاظَ «الماسونية» و«البَنّاء الحرّ» و«الماسونيّة الحرّة» و«الفرمصونيّة».

ولا تزال نشأة هذه المُفرَدة وتطوُّرُها أمراً غامضاً. وقد فسَّرَ اعتمادُ الاسم هذا بأنَّ بُناةَ هذه المحافل كانوا من الأشخاص الذينَ استُثْنُوا من مسؤوليّة خدمة أشراف المجتمَع ومسؤولي الكنائس؛ فصار اسمُهم «البُناة الأحرار»! كما قيل إنَّ شرط قبول أيّ عضو جديد هو ألّا يكونَ عبداً[1]. وقد دأب أعضاء الماسونيّة على اعتماد عنصر السرّيّة والغُموض لجذب السُّذَّجِ إلى هذه المحافل واستغلال طاقاتهم لتنفيذ الأهداف والمآرب المنشودة.

ويدّعي الماسونيّون أنَّ نشأة هذه المحافل تعود إلى زمن أبي البشر آدم (ع) ـ بحسْب ما ادّعى أديب الممالك فراهاني؛ إذاً هو

(1) إسماعيل رائين، **فراموشخانه وفراماسونرى در إيران**، ج1، ص39.

يقول إنَّ الخالقَ تعالى شأنُه، والأنبياء والرُّسل والأئمّة كلّهم من الماسونيّينَ! فآدم أوّل ماسونيّ بين جميع البشر[1]! ويدّعي آخرون أنَّ زمن بناء الأهرامات في مصر هو زمن انطلاق الماسونيّة. ويقول غيرهم إنَّ بناء معبد نبيّ الله سليمان (ع) كان بدايةَ تبلور المحافل الماسونيّة. وثمّة مَن يقول إنَّ العامَ 4004 قبل ميلاد المسيح (ع) هو بداية نشأة الماسونيّة. ويقول آخرون إنَّ خمسمئة عام قبل ولادة المسيح (ع) فقط هي زمن نشأة الماسونية؛ ويدّعي هؤلاء أنَّ في زمان خَلَفِ «رومولوس» باني مدينة روما، ازداد الاهتمام بالصنّاع، لا سيّما في مجال البِنَاءِ، من أجل ترميم مباني المدينة، فتبلوَرَت المحافل الأولى للماسونيّة، وكانت تلك المَحافلُ محلّ استراحة العاملِينَ في البناء[2]. وذكر هؤلاء أنَّ تلك المجموعة كانت نقابيّة صرفة؛ وللحفاظ على حقوق أعضاء النقابة تمّ تشريع قوانين وضوابط خاصّة بها، ويمكن إرجاع تلك الادّعاءات إلى كهنة الدرويد (Druids)، أو الكالديين (Culdees)[3]، أو إلى رهبان اليهود أو الأسينيين[4] الذين عاشوا في الفترة ما بينَ 140 قبل الميلاد و68 للميلاد، إضافة إلى الأديان التي كانت موجودة في مصر القديمة

---

(1) إسماعيل رائين، المصدر نفسه، ص 456.

(2) The Constitution and laws of the supreme Grand Chapter, PA, 1927, p7.

(3) درويد دينٌ ممزوج بأساطير السحرة وعبادة الشمس؛ كان سائداً بينَ شعبَي السلْت (Celt) والغال (Gaul) في البرتغال وإيرلندا. والكالديون هم سكّان صوامع إصلاحيون عاشوا في إيرلندا في أواخر القرن الثامن والقرن التاسع الميلاديّ (موسوعة أميركانا، 1963، ج9، ص350 ـ 351؛ وكذلك ج8، ص294 ـ 295).

(4) الإسنيون يهود متعصّبونَ كانوا يدّعونَ انتسابَهم إلى هارون أخي موسى (ع)، ويعيشون في الصحاري بعيداً عن سائر اليهود، ويَعتبرونَ أنفسَهم شعب الله المختار، وسائر الشعوب أبناء الظّلَام (موسوعة أميركانا، 1963، ج1، ص514 ـ 515).

آنذاك، مثل أخناتون وإيزيس وأوزيريس (Osiris ـ Isis)[1]، والكاباليسم (القبالاه Kabala) اليهوديّ[2]، والغنوصية (Chnosticism)[3] والهندوسية (Hinduism) والثيوسوفيسم (Ttheosophysm)[4] والميترائيّة (Mithraism) وأديان أخرى. ويدّعي محمود هومن رئيس المجلس الأعلى للعقيدة الإسكاتيّة، إضافةً إلى ما تمّ بحثُه آنفاً، أنْ «نحن ورثة الفلسفة اليونانيّة القديمة، لا سيّما فيثاغورس[5]، وورثة عِلم علماء الدِّين الزرادشت»!

ويعتقد ماسونيون آخرون أنَّ الفكرةَ تبلوَرَت بين متخصِّصي الفنّ المعماريّ، ويعزُونَ نموَّ المحافلِ الماسونيّة[6] إلى فترة بناء الكاتدرائيّات والكنائس الضخمة (900م إلى 1600م)، ؛ ويدّعي هؤلاء أنَّ العمّال والمقاولين والمهندسين أرسوا قواعد خاصّة بهم للحفاظ على مصالحهم وحقوقهم، كما أنَّ أماكن حفظ وتخزين موادّ وأدوات البناء، وتبادل الأحاديث حول مسائل ومشكلات المهنة، سمِّيَت بـ«المحافل»[7]! وأقام الألمان خمسةَ محافلَ سمَّوها «هابت

---

(1) أخناتون هو الثامن عشر من سلسلة فراعنة مصر، الذي روّج لدين يمكن اعتبارُه توحيديّاً. وإيزيس كان مظهراً للسِّحر والألوهيّة، يدلُّ على الوفاء والأمّ الحنون، أمّا أوزيريس فهو أخو إيزيس وزوجها الذي قتل بتآمر من أخيه (المصدر نفسه، ج15، ص 411).

(2) القبالاه مذهب عرفانيّ يهوديّ يرتكز على تفسير غامض ومليء بالأسرار للنصوص الدينيّة اليهودية.

(3) هو مذهب عرفانيّ مسيحيّ، كان سائداً في القرن الثاني للميلاد.

(4) تركيبة من الدِّين والفلسفة والعِلم؛ وهو مذهب لا يتّبع عقيدةً خاصّةً.

(5) وثائق مؤسّسات دراسات التاريخ الإيرانيّ المعاصر: مقالة «هوشنگ ظلى» حول تاريخ الماسونيّة.

(6) The world book Encyclopedia, V 13, p, 208.

(7) رائين، ص 48 ـ 50.

هوتن» لتعليم المتدرّبينَ الجُدُدِ. وكانت هذه المحافل السبب الرئيس في تطوير «جمعية البنّائين» في بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدوَل[1].

وقد دخل أشراف بريطانيا إلى تنظيمات البنّائين الأحرار. ومع دخول أفراد من غيرهم (لدرء خطر انقراض هذه التنظيمات)، بدأت عبارة «ماسون» تُتداول بين البنّائين. وأدّى الحريق الضخم في مدينة لندن 1666م إلى تمركُز البنّائين، من مختلِف أقطار أوروبّا، في تلك المدينة. فازدهرت المحافل الماسونيّة بعد ذلك.

وتسبّبت أعمال الشغب في لندن 1717م، في أن يميل كُثر، من الأشراف البرجوازيينَ، إلى إيجاد جمعيّة معتدلة تكبح جماحَ الاضطراب في المدينة. كان الهدف الدعوة إلى الأصول الأخلاقيّة للحدّ من الفوضى.

لكن لو كانت الماسونية عبارة عن البناة والمهندسينَ، فكيف استطاعت هذه النقابة أن تتحوَّل إلى جمعية سياسيّة وثقافيّة سرية اجتازت حدود القارّات في فترة وجيزة؟ كذلك، لِمَ تكترث الماسونية بالأحداث السياسيّة الداخليّة في بريطانيا، منذ نشأة المحفل الماسوني البريطانيّ الكبير؟

ويعزو الباحث في شؤون الجمعيّات السرية والحركات الهدّامة، محمّد عبد الله عنان، هذا الموضوع إلى أعمال الشغب والعصيان الكبيرة التي اجتاحت مدينة لندن 1717م.

ويمكن فهم نشأة الماسونية وأسباب ترسّخ مفاهيم وشعارات وعلامات اليهودية والصليبيّة من خلال البحث في التطوُّرات التي اجتاحت بريطانيا 1714م ـ 1717م، ومجيء عائلة هايسبرغ إلى السلطة بمساندة المحافل اليهودية والصليبيّة.

---

(1) رائين، ص 48 ـ 50.

وكان أوّل محافل الماسونية (في لندن) بعد ثلاث سنوات من تولّي عائلة هابسبرغ الألمانية الحُكمَ في بريطانيا. كان يريد هذا المحفلُ تثبيت هذه العائلة في السلطة، وهي ذات العلاقة الغامضة لا سيّما بالجمعيّات الرأسمالية؛ وحصل له ذلك. فاستطاعت هذه العائلة رفع الحواجز والمَوانع أمام من أنشطة تلك المحافل في أرجاء العالَم.

كان د. جيمز آندرسن وجون تيوفيل دزاغوليه، من طلائع هذه الحركة، حتّى إنّه ظُنَّ أنهما أسّسا هذه الحركة[1]. فقد نظّم آندرسن دستور الماسونية، فيما استقدم دزاغوليه العائلة الألمانية الحاكمة في بريطانيا إلى هذه المحافل؛ أدّيا إلى تغيير نوعيّ في عمل جمعية البُناة. فلم يقتصر عمل تلك التنظيمات على تعليم فنون البناء والهندسة، بل تعدّى إلى الدعاية ونشر البرجوازية والليبرالية.

ويسمّي الماسونيون تلك الفترة بـ«الفترة الماسونية النظرية»، أمّا الفترة السابقة فسمِّيَت «الماسونيّة العَمَلِيَّةَ».

وتتحدّث فقرة في ملفّ «سيامك فرزد» (أحد الأعضاء المؤثّرينَ في الماسونية الإيرانية) عن ذلك التحوّل: «إخواني؛ إنَّ مجموعة من الذين الْتحقوا بالتنظيم لهم مكانة ممتازة من حيث الحرّيةُ والعِلمُ... أوجدت تطوّرات نقابة البنّائين، تدريجيّاً، جمعيّة البنّائين الأحرار التي رفعت شعار البناء، وأضفت الجانب الروحانيّ على نشاطها»[2].

لم تكن كلمة «الماسونية» متداوَلة قبل 1717م (عام تأسيس

---

(1) محمد عبد الله عنان؛ **تاريخ جمعيتهاى سرى وجنبشهاى تخريبى**، (= تاريخ الجمعيات السرية والحركات المخرِّبة)، ص 106.

(2) مؤسّسة دراسات تاريخ إيرانَ المعاصر، وثائق سيامك فرزد، كراسة قبول العضو في الدرجة الأولى.

المحفل الكبير في لندن)؛ بل كانت كلمة «مايسنري» (نقابة البُناة). وقد سعى دزاغوليه، بإضافته «franc» (أي الحرّ) إلى الـ«ماسونية»، لإضفاء تاريخ عريق على تنظيماتِه الجديدة، مع لفظة «فراماسونية»، وجعل أهدافها مكتومة[1]. ويبقى تأثير مذهبَي القبالاه والرزكروا اليهوديَّينِ (اللذَينِ انتشرا في أوروبّا خلال القرن السادس عشر والسابع عشر بشكل كبير) على الماسونيّة وتطوّرِها سرّاً لم يُكشَفْ.

القبالاه (أتباعُه الـ«كاباليست») مذهب عرفانيّ يهوديّ (القرن الثالث عشر الميلاديّ)، تبلور في أوروبّا من خلال كتاب «ZOHAR». وإسحاق كور من زعماء هذا المذهب. وكان يعيش في جنوب فرنسا (1160م ـ 1235م)[2]. وقد أقام موسى بن نهمان («بنهمانيدس») تلميذ إسحاق، مركزاً نشطاً للتصوّف اليهوديّ في كاتالونيا الإسبانية؛ أدّى المركز دوراً مهمّاً في إيجاد فرقة القبالاه[3]. ويدّعي مفكِّرو هذا المذهب أنه تكملة للتوراة، فقد أوحى الله النبيّ موسى (ع) مضامينَ المذهَب شفهيّاً لينقلها إلى الخواصّ من قَومِه. وانتشر هذا المذهب في جميع أنحاء العالَم في القرن الثالث عشر الميلاديّ، واستغلّ فكرة اقتراب ظهور المسيح الموعود فجيّش الأفراد لخوض الحروب الصليبيّة لاحقاً.

ونرى تأثير هذا المذهب اليهوديّ في التنظيمات الماسونيّة الإيرانيّة، في وثائقها الفلسفيّة المتبقّية. كافي كرامب، صاحب درجة 30 في تنظيمات اسكتلنده، يشير إلى أنَّ القبالاه كان له تأثير في

---

(1) عوض الخوري، **تبديد الظلام أو أصل الماسونية**، بيروت، 1995، ص 45 ـ 46.

(2) Judaica, vol 6, p. 535; vol 9, p. 35 - 36.

(3) Ibid, vol 10, p. 526; vol 12, p. 776 - 782.

أغلب المجموعات السرية في أوروبّا خلال القرنَينِ السادس عشر والسابع عشر[1].

هاجر جون تيوفيل دزاغوليه (1683م ـ 1744م) نجل القسّ جون دزاغوليه، إلى بريطانيا بصحبة والده بسبب الاضطهاد الدينيّ. تعلّم في المدرسة التي كان يملكها والدُه. وبعد وفاة والده ذهب إلى أوكسفورد. 1710م حصل على الحُكم الخاصّ بتعيينه نائباً للقسّ والإجازة الجامعية في العلوم والصناعة. اشتهر في أوروبّا بتقديمه لأسلوب التجارة العلميّة العلنيّة.

في بدايات القرن ال18؛ أسّس دزاغوليه جمعيّةَ الماسونيّة، ووضعها في خدمة الأشراف البريطانيينَ الذين كانوا ينشدون الحداثة[2]، فأصبحت أنشطة المحافل الماسونية حرّةً بالكامل. وأضحت في خدمة مطامع الاستعمار في الشرق. وقد أدّت الخلافات داخل المحافل الماسونية إلى انشقاقات، منها تلك التي اتّجهت إلى اعتماد الدرجات العليا. وبعد توسّع الماسونية الإنكليزيّة في أوروبّا وأميركا (أوائل القرن التاسع عشر) سعت للمحافَظة على الهند، من خلال السيطرة على إيرانَ!

الماسونية وانتشار الثقافة الغربيّة في إيرانَ المعاصرة

للصراع بين الشرق والغرب تاريخ قديم؛ ولم يسجِّل التاريخ

---

(1) مؤسّسة دراسات تاريخ إيران المعاصر. ملف إيرج هدايت، دراسة حول القبالاه (كراس)؛ وكذلك انظر: عبد الله شهبازى، **زر سالاران يهودي وبارسى، استعمار بريتانيا وايران**، تهران، مؤسسه مطالعات وپژوهشهاى سياسى، 1379. ج4.

(2) اسماعيل رائين، **فراموشخانه وفراماسونرى در ايران**، ج1، ص60 ـ 64.

نصراً حاسماً لأيّ من الطرَفَينِ، ما يدلُّ على توازن القوى بينهما، من خلال الأدوات والأساليب. وكانت في القِدم، الهجمة الثقافيّة ليست بأولوية كما هي اليوم.

وقد أدّى ظهور الإسلام إلى تولّد مراحل صراعات جديدة بين الشرق والغرب. ولاقى الإسلام قبولاً في مختلِف بقاع العالَم. ومالت حصيلة الصراعات المتأتية من اهتمام المسلمينَ بالغرب، إلى كفّة المسلمينَ. فظهرت لدى المسيحيّينَ عقدةُ الهزيمة أمام المسلمينَ، ما أدّى إلى الكثير من الصراعات في الأقطار الإسلاميّة.

وتأثّر المسيحيون بالدين الإسلاميّ الغنيّ، عندما دخل قارّة أوروبّا؛ فكان النهوض في القارّة بعد فترة انحطاط. فقويَت الدول الغربيّة بذلك، في فترة ضعف فيها المسلمون. وساعدت الاكتشافات الجغرافيّة لأماكن من العالَم غنيّة بالموارد والثروات الطبيعيّة، على توجّه الغرب نحو الاستعمار، للاستفادة من هذه الثروات، ما أدّى إلى بروز طبقة جديدة في أوروبّا، هي «البرجوازية» لوجودها في المُدُنِ. من خصائص هذه الطبقة الاهتمامُ بالحداثة، فتقدّم العِلمُ أكثرَ فأكثرَ في قارّة أوروبّا. ومع وصول هذه الطبقة إلى السلطة؛ لم يقتنع أهلها بالدور الثانويّ في المسائل الاجتماعيّة. لذا؛ وعن طريق شعار «حرّية، أخوّة، مساواة»، توجّهت الطبقة البرجوازية إلى الإقطاعيّينَ والأشراف والكنيسة. وكان للتنظيمات الماسونية الأثرُ البارز في إيجاد التغيّرات الاجتماعيّة. فتحوّلت «الماسونية العَمَلية» إلى «الماسونيّة النظريّة». وتحوّلت تلك التنظيمات إلى تنظيمات سياسيّة تخدم الطبقة البرجوازيّة. وقد دخل بعض من مفكّري «عصر التنوير»، مثل جان جاك روسّو وفولتير ومونتيسكيو، في التنظيمات الماسونيّة؛ كما دخل بعض أعضاء الماسونية إلى الحركات السياسيّة والاجتماعيّة المهمّة، كالثورة الفرنسيّة والأميركيّة، التي كانت حركات برجوازيّة.

وأعطى انتصار الحركة البرجوازية في الغرب، وبعد ذلك الثورة الصناعية في بريطانيا ومختلِف الدوَل الأوروبيّة؛ موقعاً ممتازاً للدوَل الغربية، على الصعيدَينِ العسكري والاقتصاديّ. فساعد هذا على تعزيز أمر الاستعمار الذي يؤمّن أسواق تصريف المنتَجات الغربيّة، كما يؤمِّن مَوَاطِنَ الثروات الطبيعيّة الأساسيّة في عمليّة إنتاج السِّلع.

فبدأ نشاط السفن المجهَّزة بالمدافع، والاعتماد على قوّة البارود. وانتشرت تجارة الرَّقيق. فبدأت حركات المقاومة لدى الشعوب المستضعَفة؛ فانكبّت الدوَل الغربيّة، بعد كلّ احتلال، على سلسلة من الإجراءات الثقافية. فصارت تدريجيّاً أجيالٌ برمّتها، في الدوَل الضعيفة، ذاتَ ثقافة تتماهى مع نوايا الاستعمار. فاكتفت القوى الاستعمارية بالإشراف على الأوضاع من بعيد! سُمِّيَ هذا «الاستعمار الجديد»، فيما سمّي الأسلوب القائم على السيطرة المباشرة على الدوَل الضعيفة «الاستعمار القديم».

تجسّدت المحافل الماسونية في «الاستعمار الجديد»؛ وخدمت الأهداف التوسّعية للاستعمار. عملت هذه المحافل على تعليم أهالي الأقاليم المستعمَرة ثقافةَ التماهي مع ما يريده الغرب، لِيُديروا هُم، مَحَلِّيّاً، شؤونَ البلاد نيابةً عن الأجنبيّ المعتدي!

فأنشئت مئات المحافل الماسونية في الهند، بعد احتلال بريطانيا لها. وكذلك بعد احتلال نابوليون لمصر، عمّت المحافل الماسونيّة وبدأت العمل على الفور.

وبسبب كفاءة النشاط الماسونيّ؛ عمدت الدول الغربيّة إلى إنشاء محافل الماسونيّة في إيرانَ، بدون احتلالها عسكريّاً. وأصبحت تلك المحافل رموزاً للبرجوازيّة، تعمل على استمرار نهب ثروات البلدان الضعيفة.

وقد قال مونتيسكيو، أحد روّاد عصر المعرفة: «هذه المخلوقات ذات البشرة السوداء والأنوف المُفلطَحة، تجلب القليل من الانتباه! من الصعب علينا أن نصدِّق أنَّ الله يتجلّى في هذه الهيئة السوداء البشعة، وهو عَينُهُ يتجلّى في الروح الطاهرة»[1]. لذا؛ يتبيَّن أنَّ المساواة التي كانوا ينادون بها في أوروبّا، إنّما تلك بين طبقة الأشراف والإقطاعيّينَ التي كانت البرجوازيّة تنشدها. والحرّية عنوا بها التحرّر من الكنيسة والنظام الإقطاعيّ، اللذَينِ اعتبرتهما الطبقة البرجوازيّة سبب التخلّف.

وبعد أن ترسّخت البرجوازيّة؛ سعت إلى استعمار البلدان ذات الأيدي العاملة الرخيصة، ومنها الدوَل الإسلاميّة، لا سيّما إيرانَ. وهذه المرّة لم تكن عقدة المسيحيّينَ تجاه المسلِمِينَ حاضرةً في مدّ الاستعمار، ولم يُرِدِ الاستعمار أن يكون «الفاتحَ المسيحيّ للعالَم»، بل كانت تراودهم فكرة الأهداف المادّية.

وفي هذه الهجمة؛ وضعت الكنيسة ذاتها في خدمة الاستعمار، مع الماسونيِّينَ. فسارع الدعاة المسيحيّون إلى الالْتحاق بالعسكريّينَ والسياسيّينَ والجواسيسِ الغربيّينَ للدعوة إلى المسيحيّة[2]. يبدو العداء للإسلام جليّاً في تصريحات فولتير؛ الماسونيّ ولاعب الميسر وآكل الرِّبا[3]. فقد ساهم هو في خدمة مصالح البرجوازيّينَ. فقد كتب فولتير إلى «كاترين الثانية»، إمبراطورة روسيا (التي كانت في حالة حرب مع الخليفة العثمانيّ مصطفى)، يقول: «هذه حقيقة! كنت

---

(1) عبد الهادي حائري؛ **نخستين رويارويى انديشه گران إيران با دو رويه تمدن بورژوازى غرب**، طهران، امير كبير، 1367، ص 95.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، 98.

أطلب على الدوام من خالق الشمس أن يَجعلَ رايةَ محمَّد في يَدِ هذه المَلِكَةِ»[1].

خلفيات دخول الماسونية إلى إيرانَ

دخلت الماسونية إيرانَ عن طريق الدوَل الأوروبيّة، ونمت فيها تحت حماية الغرب. تعود علاقات إيرانَ بالدوَل الغربية، إلى حُكم آق قويونلو (الخروف الأسود)، وهي عائلة تركيّة حكمت إيرانَ، تزامناً مع فتح القسطنطينية على يد الإمبراطورية العثمانيّة. ولدى أوج الصراع بين الأوروبيّينَ والعثمانيّينَ، أغلقت قناة السويس بسبب فتح القسطنطينيّة، فأغلِق الطريق البحريّ أمام الأوروبيّينَ، ففكَّروا بإقامة علاقة مع حكومة آق قويونلو بهدف فتح جبهة جديدة خلف خطوط القوات العثمانية. لكن لم تكن تلك العلاقة قويّةً. وخلال حكم الصفويين، سعت بريطانيا للاتفاق مع إيران ضدّ العثمانيين، مع إقامة علاقات تجارية.

في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، حين كانت المنافَسة الاستعمارية في أوجها بين روسيا وبريطانيا وفرنسا؛ حوّلت الأهداف التوسّعية الروسية إيرانَ إلى ميدان تسرح فيه كما شاءت.

وكانت المنافسة بين فرنسا وبريطانيا، ورغبة فرنسا في ضرب مصالح بريطانيا في الهند؛ حَدَتَا الدولتَينِ على إنشاء علاقة قويّة مع إيرانَ، للوصول إلى الهند. وكانت إيرانُ وقعت تحت تأثير سياسات الروس والبريطانيّينَ. وقد توجّه الكثير من حكّام إيرانَ إلى فرنسا بعدما يئسوا من مساعدة البريطانيّينَ لهم ضدّ روسيا.

---

(1) المصدر نفسه، 99.

وفي العام 1222هـ؛ كانت معاهدة فينكنشتاين بين إيرانَ وفرنسا التي جهّزت الجيش الإيرانيّ للحرب ضدّ الروس. أرسل فتح علي شاه، عسكر خان أفشار أرومي رئيساً للسفارة الإيرانيّة في باريس (1224هـ). لكن عسكرخان اصطِيدَ ليدخل إلى محفل باريس الماسونيّ (order of Paris)[1]. فعاد إلى إيرانَ لإنشاء محفل الماسونيّة في أصفهان[2]. وأدّى فشلُه إلى عودة إيرانَ إلى بريطانيا من جديد.

فأرسل البريطانيون «سِير هارفارد جونز» الذي أبرَم معاهَدة شاملة بين إيرانَ وبريطانيا 1224هـ. فعيِّنَ ميرزا أبو الحسن ايلجي سفيراً لإيرانَ في بريطانيا. ودعي إلى المحفَل الماسونيّ (العام 1810م). وكان «سِير غور أوزلي» سفير بريطانيا في إيران، مهمّته إنشاء محفل ماسونيّ في إيرانَ (وقد حصل على رئاسة المحافل الماسونيّة في المنطقة)[3]. وكانت هذه نقطة تحوّل مهمّة في تاريخ الهجمة الثقافيّة الغربيّة على هذا البلد. كذلك؛ كان على أوزلي إبرام اتفاقيّة مع شاه إيرانَ لوضع حدّ للنفوذ الروسيّ والفرنسيّ فيها، والسعي لضرب العلاقات الإيرانيّة الأوروبيّة. كما كان عليه معرفة المصادر المالية والعسكرية لإيرانَ، وعدد الجنود والنظام العسكريّ، وحجم الضرائب وطريقة جبايتها في زمن الحرب والسِّلم، والفنون الصناعيّة، والعادات والتقاليد والأمور التجاريّة والآثار التاريخيّة في إيرانَ. كذلك؛ كان عليه السعي للحصول على خرائط للأقاليم وبقايا الآثار الإيرانيّة، والوثائق النادرة؛ وأسلوب تعامل الشخصيات المرموقة

---

(1) اسماعيل رائين، **فراموشخانه وفراماسونرى در ايران، مؤسسه تحقيقاتى رايين،** 1374، ج1، ص 309.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه. ص320.

ذات الصلة بشاه إيرانَ، والحفاظ على شركة الهند الشرقيّة والمواطنين الذي يمضون حياتهم باسم هذه الشركة.

أراد ملك بريطانيا جورج الثالث القضاء على الثقافة الإيرانيّة، فطلب من السفير ما طلب؛ لضمان استمرار سيطرة بريطانيا على إيرانَ. واستطاعت بريطانيا إخراج 769 كتاباً (بالفارسيّة والعربيّة) من إيران، لدراسة طبيعة ثقافة هذا البلد، كما ألّف ثلاثة كتب عن إيران بعد عمليّات التجسّس التي استهدفت فهم طبيعة البلاد.

ونجح أوزلي وأبو الحسن خان إيجلي من جذب كثير من رجال البلاط الإيرانيّ إلى المحفل الماسونيّ[1]. وساهما في عقد معاهَدات غلستان وتركمن جاي، ما أدّى إلى اقتطاع أجزاء من أراضي إيرانَ. فصرفت الحكومة البريطانيّة راتباً شهريّاً لإيجلي لِمَدَى العُمُرِ.

وقد قال أوزلي: «لأنّا نهدف إلى المحافظة على الهند؛ فإنّني أرى أن نُبقِيَ إيرانَ في تخلُّفها وبربريَّتِها، ونستمرَّ في سياستنا معها على النحو الذي هي عليه»[2]!

وقد أسس عبّاس قلي خان العامَ 1313هـ. ش، محفلاً ماسونيّاً تحت اسم «جامع البشرية» كان فعّالاً خلال الثورة الدستورية. وكانت تلك التنظيمات تستند إلى أفكار ملكم خان. وأنشأ بعض الإيرانيّينَ محفل «نهضة إيرانَ» مع بعض الفرنسيّينَ. كذلك جمعيّة «الأخوّة» العامَ 1316هـ. ش، بدأت أنشطتها الماسونية تحت غطاء «التكيّة» (الخانقاه).

ومع أواخر عهد بهلوي؛ كان 50 محفلاً قد أنشئ في إيرانَ،

---

(1) المصدر نفسه، ص 29 ـ 31.

(2) المصدر نفسه، ص 322 ـ 330.

تضمّ أكثر من ألفَي عضو جلّهم من وجهاء المجتمَع في شتّى الميادين، وكان الجهد منصبّاً على هتك الثقافة الإيرانيّة وإلحاق البلد بالغرب وأفكاره وهيمنته.

مبادئ الماسونيّة وتعاليمها

تركّزت فكرة الماسونية على نسخ قدسية الدين ومفهومه الإلٰهيّ؛ خصائصها:

1 ـ أصالة العقل والإدراك البشريّ في مقابل أمام الوحي الإلٰهيّ.

2 ـ أسلوب المعرفة التجريبيّة.

3 ـ مبدأ التقدّم والرقيّ.

4 ـ البحث عن مفهوم جديد للطبيعة (التعبير الرياضيّ الكمّي غير المعنويّ).

إنَّ غلبة هذه الرؤية الكونيّة في الغرب أدّت إلى طرد الدين من المجتمَع وظهور الأنسنة. فاعتُبر الإنسانُ الأساسَ في الوجود. وقد تمّ، في إطار الماسونيّة، الحديث عن حرّية الدِّين والمعتقَد، ثمّ طُرحت فكرة عبادة الخالق بدون التعلّق بالأديان. ومن ثَمّ، نُشِرَت أمورٌ غامضة في ما يخصّ الاعتقادَ بوجود الخالق، عن طريق نشر الأساطير المسيحيّة واليهوديّة؛ ما أدّى بالكثيرين إلى إنكار وجود الله، فصارت المفاهيم الطبيعيّة هي التي تمثّل شأن الخالق وتحلّ محلَّه.

تعاملت الماسونية مع الدين على النحو الآتي:

1 ـ حذف الدين والتصريح بعدم الاعتقاد بالخالق.

2 ـ حذف الدين بطريقة مستترة، تدريجيّاً.

فالتعامل الأوّل بدأه غراند أوريان في فرنسا، ولم يُثمِرْ. فقد قال

أوريان: «أطلق الإنسان اسم الله على القوى التي لم يكن في وسعه أن يوضّحها طوال التاريخ. ومع ازدياد مستوى الثقافة والفكر الاجتماعيّ، غدا تعريف اسم الله مختلفاً؛ فقد تراجعت حدود القدرة الإلٰهيّة مع بروز أجوبة منطقيّة ومعقولة للحوادث الطبيعيّة الخارقة»[1].

ونقرأ في نشرة الماسونيّينَ الأتراك، في خصوص الأديان ونظريّة داروين ما يلي: «اعتقد البشر الأوائل بالقوى الميتافيزيقيّة، بسبب مواجهتهم لقوة حوادث الطبيعة. فظهرت الأديان الأوّلية نتيجةً لتلك الأوهام»[2]. كما نقرأ فيها: «أثبتت نظريّة داروين أنَّ أغلب حوادث الخلق ليست من عمل الخالق»[3].

الماسونية وإلغاء الدِّين

كتبت نشرة «معمار سنان»: «إنَّ ظهور عقيدة بقاء الأرواح قديم قِدَمَ عقيدة وجود الله... فهل هناك حياة بعد المَوت؟ لم يتمكّن البشر من الإجابة عن هذا التساؤل حتّى الآنَ»[4].

أمّا حركة التعامل الثاني للماسونية، مع شأن الأديان والإيمان بالله؛ فهي على النحو الآتي:

في البداية يُقال إنَّ المقصود بالباني الكبير للعالَم هو الله. فتُعلن حرّية ممارسة الشعائر الدينية. ثمّ تبدأ طروح الاعتقاد بالله بدون التزام تعاليم الأديان أو اتّباعها والأنبياء. ثمّ تنشر تعاليم ممسوخة لليهودية

---

(1) **فراموشخانه وفراماسونری در ایران**، ص23.

(2) گروه تحقیقات علمي، **فراماسونری ویهود**، ترجمة جعفر سعيد، تهران، 1368. ص 189.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

والمسيحية بين الناس بطريقة غير مباشرة، وفي إطار سرِّي. وأخيراً يبدأ المسّ بأصل الاعتقاد بوجود الخالق، من خلال طرح نظريات مشوّشة، وعلى نحو استخدام لفظ «طبيعة» و«قوّة» بدل لفظ «الله».

في كتاب «الحوار الماسونيّ»، تأليف د. إيشينداغ (الماسونيّ التركيّ)، نقرأ: «لا تتدخّل الماسونية في الإيمان لدى الأفراد، وكذلك أفكاره السياسية... لكن، في المراحل اللّاحقة، ومع التقدّم في المناصب الماسونيّة، يتمّ تربية الأفراد عبر الإيحاء بالأصول والمبادئ، ثمّ يتمّ تشذيبُهم وصقلُهم، وتغييرُهم في النهاية... فتصل شخصيّة الماسونيّ إلى العرفان. فيصير الماسوني يعمل لتغيير عقائد الإنسان، عبر الحكمة والعِلم والعقل... فالماسونية مؤسّسة لصنع الإنسان[1]... ويتميّز الماسونيّ بالنظام والآداب».

تقول المادّة الأولى من دستور الماسونيّة: «في ما يخصّ الخالق والدين؛ على الفرد الماسونيّ أن يتّبع قانون الأخلاق وفقاً لشخصيّته. فلو استوعب الماسونيّ هذا الفنَّ جيِّداً، لن يكونَ ملحداً على الإطلاق، ولن يمكنَ اعتبارُه شخصاً يتصرَّف بطريقة مغايرة لضميره»[2].

يقول ميرزا ملكم خان (الماسونيّ المعروف): «أغنى انتشار العلوم في الدوَل الأوروبيّة الناسَ عن الدين، فسعوا للحصول على الأخلاق الحميدة من العقائد والعبادات وهما شرطان متلازمان لأيّ دين»[3].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص266.

(3) اسماعيل رائين؛ **فراموشخانه وفراماسونرى در ايران**، مصدر سابق، ج2، ص117.

إنَّ ما اقتبِس عن إيشينداغ وملكم خان هو مبادئ أساسيّة يُعتنى بها بشدّة في المحافل الماسونيّة الفرنسيّة.

وفي مذهب دمولاي، أحد فروع العقيدة الإسكاتية الذي يهيّئُ الأفراد للدخول إلى المحافل الماسونيّة[1]، يُقال للعضو: «كان أسلافنا على معرفة بأنَّ حرّية الدين والبلد واكتساب العِلم، سوف تؤثِّر إذا ما اتّحدت. لذا؛ نشعِل سبع شموع في هذه الخنادق الثلاثة، كي تكون رمزاً للفنون السبعة لهذا المذهب: محبّة الأبناء، طأطأة الرأس أمام كلِّ مقدَّس، الاحتشام، المحبّة، الوفاء، العفاف، حبّ الوطن»[2].

وفي طقوس الدرجة الأولى:

- أستاذ المحفل: أخي المشرف الأوّل... لماذا نسمّي أنفسنا «البُناة الأحرار»؟
- المشرف الأوّل: لأننا نعمل كالأحرار في تشييد بناء عظيم.
- أستاذ المحفل: ما هو نوع البناء؟
- المشرف الأوّل: أسلافنا سمّوه معبد سليمان، ويقصدون به معبد الإنسانيّة.
- أستاذ المحفل: أخي المشرف الثاني، ما هو نوع الصخور التي نستخدمها في هذا المبنى؟
- المشرف الثاني: الإنسان هو مادّة البناء هنا.

---

(1) حامد الگار، **ميرزا ملكم خان**، ترجمة جهانگير عظيما، طهران، انتشارات مدرس وشركت سهامى انتشار، 1369، ص 104.

(2) في إيرانَ كان هذا المذهب يسمّى «رابطة سقراط»، ويتبع المجلس الأعلى للعقيدة الإسكاتية في إيران.

- أستاذ المحفل: ما هي المادّة اللازمة كي تتّصل صخور المعبد ببعضها البعضُ؟

- المشرف الثاني: هي البريق الإنسانيّ والأخوّة بين الجميع[1].

هذه هي فلسفة الأنسنة، فلا دينَ فيها! وبعد أن يلتزم المتقدّم للعضويّة بالمبدأ العامّ؛ يؤخذ إلى حلقة الأخوّة؛ حيث يُقال: «هذه الحلقة من الأخوّة تشكّل السلسلة الكبيرة للأخوّة العالَميّة، وتوصل أفراداً من كل قوم وبلد ودين بعضهم ببعض... في كلّ مكان في العالَم ستجدون الأخوّة لتشدّ أزرَكُم»[2].

وفي الدرجة الثالثة؛ يُقال للمنتسِب الجديد: «نحن أحرار لأنّنا تخلّصنا من قيود الأفكار والعقائد الباطلة ونشيد البناء الكبير للإنسانيّة»[3]. وهنا تكون مرحلة إنكار الأديان، لا إنكار الله. وتعود جذور هذا النوع من الفكر إلى مرحلة التنوير، وأشخاص مثل فولتير وروسّو. فالنظرية اللّاهوتيّة التي طَرَحَهَا فولتير، واجه بها النظرة الكنسية للّاهوت؛ محوِّلاً إدراك الإنسان من السماء إلى الأرض. فيحيا الإنسانُ بالاعتماد على العقل بدون مساعدة الوحي. ويرى ديكارت أنَّ العقل البشريّ قادر على أن يسوق الإنسانَ إلى السعادة بدون إرشاد الوحي الإلٰهيّ[4]. ويطرح بيكن موضوع عدم حاجة الإنسان إلى الوحي، من خلال فكرته القائمة على مادّية مفهوم التقدّم في حياة الإنسان؛ فالعقل يوصل الإنسانَ إلى التقدّم المنشود[5].

---

(1) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيرانَ المعاصر، دفتر أساليب العمل في ورشات رابطة سقراط، ص 25.

(2) **مكتب هاى فراماسونرى**، ص 37.

(3) المصدر نفسه، ص 46.

(4) المصدر نفسه، ص 77.

(5) سيدني بولار، **انديشه ترقى**، ترجمه اسد بور بيرانفر، تهران، امير كبير، 1354.

ويقول إيمانويل كانط، الذي تأثّر كثيراً بالماسونيّة: «على كلٍّ منّا أن يوظّف عقله بحرّية مطلقة؛ فهذا ضمانة التقدّم... فالممنوع هو الاتّفاق على نظام دينيّ ثابت لا يَسمح لأحد في أن يشكّ فيه»[1].

يقول محمود هومن، القائد الكبير ذو الصلاحيات في المجلس الأعلى لإيرانَ، في احتفال للمذهب الإسكاتيّ (1349هـ): «عملي أنا (الماسونيّ) أن أكون صبوراً حليماً للتفكير في راحة العائلة الإنسانية. الصبر أن أكون راضياً بأن يتعلّم كلّ منّا من الآخر، وهو العمل الذي قام به كوروش. فعدم الاعتراف بالآخر يخلّ بسلامة الإنسانيّة... يجب إزالة الفواصل بين كلّ إنسانٍ وآخرَ»[2].

ويَعتقد جوزيف نيوتن (الذي كان عالماً دينيّاً) أنَّ الماسونيّة متقدِّمة على الكنيسة[3]، فبِنَظره «هي الدِّينُ بذاته». ويقول سيامك فرزد، العضو في أكثر من محفَل ماسونيّ، في حديث حول فلسفة الوجود: «حينما نتصوّر أنَّ التفوّق ما هو إلّا ما نؤمن به، نكون قد سلكنا الطريق الخاطئ، وهو طريق الجزْميّة (الدُّوغمائيّة). إنَّ التعدّدية هي الحاكمة وينبغي أن تكون كذلك»[4].

ونقرأ في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمرانَ: 19). ويقصَد بالإسلام هنا جميع الديانات التوحيديّة التي تدور في فلك تسليم الإنسان لله، وتتجلّى بصورة كاملة في الدِّين الإسلاميّ الحنيف. كما نقرأ في القرآن كذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ

---

(1) المصدر نفسه.

(2) گروه تحقيقات علمي، **فراماسونرى ويهود**، ص 197.

(3) المصدر نفسُه، ص 261.

(4) وثائق مؤسّسة تاريخ إيران المعاصر، كرّاس التعريف بكتاب الصناع لجوزيف نيوتن، ص 14.

رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (الفتح: 28). وليس هذا الكلام الإلٰهيّ نشراً للجزْمية على الإطلاق؛ بل هو توضيحٌ لأصالة حركةٍ عالَميّة من أجل التحرُّر والخلاص.

ويتحدّث محمود هومن عن «العصر المحوريّ للتاريخ» (نظريّة كارل ياسبرس)، الذي تجلّى في الفترة 800 إلى 200 قبل الميلاد؛ «إذ أحضر لاوتسه في الصين مبادئَه، كما كان كونفوشيوس في ذلك الزمان، وبوذا كان في ذلك الزمان، وزرادشت في إيرانَ. وجميع أنبياء بني إسرائيل (ع) كانوا في ذلك الزمان... وما توفّر للناس بعد تلك الفترة الزمنية، كان نتيجة لمجهود أولئك الأفراد في ميادين العالَم والحياة. ولو أردنا أن نعرف المعنى العميق للنظام والفوضى، علينا أن نعيد تلك المفاهيمَ إلى مرحلة العصر المحوريّ للتاريخ مرّةً أخرى، ذلك أنَّ بعدَها امتَزجت الحركات الثقافيّة بالتعصّب[1]» (!) بهذا الكلام يَعتبر هومن أنَّ الدِّينَ في تضادٍّ مع النظام العالَميّ.

وإنَّ الدرجة الأعلى من الدرجة الثالثة هي درجة الأستاذيّة. ولا يعترف المحفَل المتّحد الكبير في بريطانيا، إلّا بالدرجات الثلاثة الأولى، بينما اعترف بدرجة «القنطرة المَلَكِيَّةِ» بعد الثالثة فقط. وأمّا المحافل المرتبطة بالمذهب الإسكاتيّ، فتعترف بثلاث وثلاثينَ درجةً[2].

وفي درجة «القنطرة المَلَكية» (Royal Arch)، يقدَّم مفهوم خاصّ عن الله تعالى يختلف عن المفهوم المقدَّم في الدرجات الثلاث الأولى. ففي هذه المرحلة يصبح اسمُ الله تعالى «يه ـ بال ـ أون» (jah - bul - on)؛ وهذا الاسم مركَّب من أسماء ثلاث شخصيّات:

---

(1) گروه تحقيقات علمي، **فراماسونرى ويهود**، ص 189.

(2) المصدر نفسه، ص 191.

«يه» مِن «يهوه» ربّ اليهود، و«بعل» من (baal) ربّ الولادة عند الكنعانيّينَ (ويرمز إلى الشهوة والسِّحر)، و«أون» (on) مشتقّ من أوسيروس ربّ العالَم الآخر في مصر القديمة[1].

وفي الدرجة الرابعة، لدى المذهب الإسكاتي، وتحمل اسم «الأستاذ حافظ الأسرار»؛ يقول أستاذ التشريفات في تقديمه للعضو الجديد: «لاحظتُ الاهتمامَ الأبويَّ من قِبَله لتعليم الطلّاب، وكيف كان يحرِّرهم من قيود الخرافات التي أحضروها معهم من عالَم غير ماسونيّ»[2].

وأمّا الرموز الماسونيّة، البارزة في هذه المرحلة، فهي «العَين» التي ترمز إلى الشمس (وكانت رمزاً للألوهيّة عند مَن سَلَفَ). ويقول زرادشت إنَّ الضياء والظلّ هما نداءان خالدان في العالَم. و«الكتابة الهيروغليفيّة المصريّة» التي فيها عبارة «iri» (وكانت على شكل عَينٍ أثناء الطقوس الدينيّة ـ وهي تشكِّل القسم الثاني من اسم «osiris»، بمعنى «الشمسيّ»، وهو أصل البرّ والإحسان)[3]. فقد تمّ مَنحُ الشمسِ مرتبةَ الألوهيّة في هذه المرحلة.

وفي الدرجة الثانية عشرة، يقوم «الأستاذ الكبير صاحب العظمة» ببثّ الأفكار المنحرِفة الملوَّثة بالشِّرك لـ«المراقب الفخور الثاني». ويدور نقاش بينهما يشتمل على عقيدة تساوي الشِّرك بالتَّوحيد،

---

(1) للاطّلاع على درجات الماسونية؛ انظر مقال «درجات عالى فراماسونرى وتشكيلات شوراى عالى آيين اسكاتى در ايران»، تاريخ معاصر ايران، كتاب ششم، مؤسّسة پژوهش ومطالعات فرهنگى بنياد مستضعفان وجانبازان.

(2) استفن نايت، برادرى، ترجمة فيروز خلعتبرى، تهران، شباويز، 1368، ص 294 ـ 295.

(3) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيرانَ المعاصر، ريتوئل درجة 4 للمذهب الإسكاتيّ، ص 5.

فتعترفَ بالله الواحد الذي لا يتغيّر، ومعه بآلهة أخرى ذات تسميات متعدّدة متفرِّقة بين الشعوب.

وفي الدرجة الرابعة عشرةَ، «الباني الأكبر المنتخَب»؛ يفسَّر معبد سليمان رمزيّاً بـ«الرؤية الكونيّة» (وفيه تنسيق مع الواقعيّة)، وأمّا أخلاقيّاً، فيفسَّر بـ«الواقع الناشئ بين الأفراد الذين تحرَّروا مِن الظُّلم». ويرمز وقوع الناس في الأَسْرِ (في بابل) بعد هدم معبد سليمان، إلى الظُّلم النابع من العقائد الجزْميّة؛ ومن الناحية الأخلاقيّة، هذا يعبِّر عن فقدان الحرّية[1].

ويعترف الماسونيّونَ بالواقعيّة ويبتعدون عن المثاليّة؛ فجميع الـ«ماورائيّات» أمور لا يكترث لها الماسونيّ. فيما توظَّف الواقعيّة، في بعض التيّارات الفكرية في الإسلام، لصالح المثاليّة؛ ويظهر هذا لدى العلّامة الطباطبائيّ والعلّامة المطهَّري.

وفي الدرجة الرابعة عشرة كذلك؛ يُطرح التقسيم الـ«قاباليّ» للكَون. فالكون، هنا، يحوي عشرة أكوان. والكون العاشر هو المَلَكوت («الإمارة» ـ الإنسان أميرٌ له مُلكُ كلِّ شيء في مجال فِكره، ويجب أن يُحكم سلطته على الكون الواقعيّ في نطاق إمارته)[2].

ويقدِّم المؤمنون بالـ«قابالاه» الربَّ من خلال أربعة حروف رمزيّة تُنقش على ثلاثة أضلاع ذهبيّة... ويجب ألّا يَرِدَ على لسان أحد أبداً. أمّا الحروف فهي: «ي ـ ه ـ و ـ ه».

وفي الدرجة الثامنة عشرة؛ يسمّى رئيس المحفل «العلام»، يشدّد

---

(1) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيرانَ المعاصر، ريتوئيل درجة 12، ص 13 ـ 14.

(2) المصدر نفسُه، درجة 14. ص 3 ـ 4.

على اعتماد مبدإ أصالة المادّة، عند الرواقيّينَ. ويبدأ المتطوّع، في سيره نحو الإحسان، بالبحث عن حروف الأسرار (I. N. R. I.) التي هي في المذهب الإسكاتيّ رموز العبارة: «Natrd - Igne - Integra - Renovatur»، ومعناها أنَّ النار تجدّد الطبيعةَ بأكملها (وهي نظرة الرواقيّينَ إلى التغيّرات الطارئة في الكَون)[1]. فَوَفقَ النظريّة الرواقيّة؛ النار هي التي تخلق وتدمّر الكَون.

وفي الدرجة الثانية والعشرين، «أسوار المائدة المستديرة ـ أسوار ليبانوس»؛ تُشرَح معاني رموز أدوات النجارة. فيتعلّم الماسونيّ فيها مصارعةَ عقائده الدينيّة. فـ«المنشار» يفتح الطريق نحو الهدف. و«المنجر» (الآلة التي تزيل النتوءات عن السَّطح) يزيل أضرار الجهل والخرافات، ويساعد على تثقيف الإنسان. و«الفأس» يضرب بها الماسونيّ التعصّب والخرافات والظُّلم والبطالة والكسل، ليُرشد الإنسان إلى نور الحقيقة والأفكار النيِّرة[2].

وفي مسيرة الدرجة الثامنة والعشرين، «فارس الشمس»؛ يؤدّي الماسونيّ القَسَمَ: «إنّني أقسم أمام معمار العالَم الكبير، الواهب للنار الأزلية المقدَّسة التي تطهِّر كلّ شيء، الذي يبعث النور والصفاء، ويرشدنا إلى نور الحقيقة؛ أن أجهَدَ في إزالة جميع الأحكام السابقة والخرافات والتعصّب، من نفسي ونفوس الآخرين، وأن أعمل لنشر الحرّية المعنويّة والأخلاقيّة للإنسان؛ وأن أحفظ سرّ ما تعلّمت»[3].

وفي الدرجة التاسعة والعشرين والثلاثينَ؛ يبدأ الماسونيّ بعبادة

---

(1) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيرانَ المعاصر، ريتوئيل درجة 18، ص 22.

(2) المصدر نفسه، ص 31 ـ 32.

(3) المصدر نفسه، ريتوئيل درجة 21، ص 11.

الأصنام بدلاً من عبادة الله تعالى. ففي الدرجة التاسعة والعشرينَ، يلقِّن «إسكاتيش الكبير لاندريه المقدَّسُ» العضوَ الماسونيَّ: «انطباع الماسونيّ عن الله انطباع عِلميٌّ أقرب إلى العقل... فالله ليس إلّا الطاقة».

وفي الدرجة الثلاثينَ، ينبّه «الفارس كادوش» العضوَ الماسونيّ إلى أنَّ تعاليم هذه الدرجة قد لا تتوافق مع الوجدان الدينيّ! ولعلّ عقيدةَ العضوِ تختلف عنها. ويقول د. إشينداغ، عن هذه الدرجة: «لا يمكن القبول بمسألة الحياة بعد الموت في العقيدة الماسونية، لأنّها عقيدة عقلانيّة. وإنَّ التوحيد في الرؤية الماسونيّة يتمظهر في السلطة المطلَقة الحاكمة على كلّ الكائنات. فيمكن تسميتُها «الطبيعة» كذلك»[1].

وفي هذه المرحلة؛ ترفَع الستائر، ويُعرَض الهدف الماسونيّ الأساسيّ على الماسونيّ المتطوّع: «الطبيعة لها معمارها (خالقُها)، وقد يُسمّى القوّة المطلَقة أو الله أو القوّة المقدَّسة أو القوّة العامّة أو الكائنات أو الأفلاك... إنَّ الإيمانَ بدون فهم عِلميٍّ يشكِّل جزْميّةً رجعيّةً باطلةً ليس إلّا»[2].

وإنَّ أحد الواجبات الأساسيّة والإنسانيّة للماسونية، هو قبول فلسفة التطور «Evolution» التي تنسجم مع العلم الحديث والعقل والتكامل؛ وعلى الإخوة إشاعة هذا الواجب بين الناس لرفع مستواهم العلمي[3].

---

(1) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيران المعاصر، خلاصة طقوس درجات 19 ـ 30، ص 14.

(2) گروه تحقيقات علمي، **فراماسونرى ويهود**، ص 181 192.

(3) المصدر نفسُه، ص 183.

ويفسِّر الماسونيُ الكمالَ الأعلى على النحو الآتي: «جميع الكائنات، التي تتشكلّ من اجتماع ذرّات، تُنتج بمجموعها قوّةً مطلَقة... والمادّة والطاقة باقيتان، لا تزولان».

إشاعة اليهودية والمسيحية المنحرِفة

إنَّ الأفكار الرمزية التي يتعاطاها الماسونيّ وُجِدَت في زمن شيوع الديانتَينِ اليهودية والمسيحيّة. وإنَّ درجات المذهب الإسكاتي تنقسم إلى:

1 ـ الدرجات 1 ـ 14؛ أساس تعاليمها يقوم على بناء معبد، وقتل حيرام، ومعاقبة قاتليه، وإعادة بناء المعبَد... (وهو ما اقتبس من اليهودية المُحرَّفة).

2 ـ الدرجات 14 ـ 33؛ تعاليمها مقتبَسة من تقاليد الفروسية المسيحيّة واليهودية.

وتتزيَّن المحافل الماسونيّة بالشمعدانات الخُماسيّة، والسيف الملتهِب؛ وطقوس قراءة التوراة ومزامير داود (لا سيّما في حفلات تأسيس وتقديس المحافل)، وتناول الخبز والشراب في مراسم الليالي العرفانيّة، وهي مقتبَسة من المسيحيّة، والمسيحيون اقتبسوا هذه المراسم من الميترائية.

وأمّا التعاليم الماسونيّة التي يُكرَزُ بها عطفاً على هاتين الديانتَينِ، فهي تجسيد الذات الإلٰهيّة (في الدرجة الثانية والعشرين)، والاعتقاد بأنَّ المسيح ضحّى بنفسه لإنقاذ البشرية (في الدرجة السادسة والعشرين)، واعتماد منهج تعميد الأسنيّينَ؛ وهُم فرقة عرفانية يهودية ـ عيسويّة ـ إيرانيّة (في الدرجة السابعة عشرة).

وقد أدخل علماء اليهود، عبر التاريخ، الأساطيرَ وتعاليمَ

الكنعانيّينَ والفلسطينيّينَ والسومريّينَ والبابليّينَ، إلى الديانة اليهوديّة. وفي عصر ازدهار الثقافة والحضارة اليونانية؛ أدخل الفيلسوف اليهوديّ فيلون الثقافة الفلسفيّة والعقليّة اليونانيّة إلى الديانة اليهوديّة.

وبعدها، في عصر التنوير (في أوروبّا ـ العصر الحديث)؛ لبست التيارات اليهودية لباس الليبرالية، وأحدِث إلى الديانة اليهودية، لتتحوَّل إلى مذهب إنسانَويّ. وإنَّ الإسرائيليّات في الأحاديث والروايات الإسلاميّة تدلُّ على مساعي اليهود لتحريف الإسلام كذلك. لكن يعتقد المسلمون بأنَّ القرآنَ الكريمَ ضمانة من الله لا يُحرَّفُ، ولم يكُن أن حرِّف القرآنُ فزال عمَّا كان عليه من نصّ. كما قد عمِل على حذف أجزاء الكتاب المقدَّس التي تقول إنَّ المسيح اضطهِد من قِبل اليهود الذين حاولوا قتلَه. وقد أعلن القسّ «سِير جيوماندز» في مؤتمر إصلاح شؤون الفاتيكان، أنه حدث تغيير في برامج الماسونيّينَ، وطالب بتغيير موقف الكنيسة السابق. أقرّت الكنيسة حذفَ ذلك القِسم من الإنجيل الذي يُدين اليهودَ بقتل السيّد المسيح (ع)، في ختام المؤتمَر.

وذكرت صحيفة «لوموند» الفرنسيّة أنَّ كتاباً طبع حول مؤامَرة اليهود لقتل المسيح، عُمِلَ على جمعِه ومَنعِ نَشرِه[1]!

وتعمل الماسونية على إضفاء الشرعيّة على الصهيونيّة، وعلى جذب العرب والمسلمِينَ إلى التعامل والتطبيع مع الصهاينة الإسرائيليّينَ. وإنَّ فلسطينَ مهدُ هذه الحركة الماسونيّة، وبيت المَقدِس عاصمة معنويّة للإنسانيّة[2]. ويرى الماسونيّون إسرائيلَ نموذجاً للمجتمَع المتسامِح والمتكامل، ونموذجاً لائقاً للديمقراطيّة واللّيبراليّة في الشرق.

(1) فراماسونرى ويهود، ص 445.

(2) روزنامه إيرانَ، السنة الأولى العدد 1، الرقم 130، تيرماه 1374هـ. ش، ص 14.

يقول محمود هومن: «باتِّباع مبدإ الشعور الدائم بالتاريخ (الذي «ابتكرَه» الصهاينة لأنفُسِهم)؛ نستطيع القَول إنَّ شوق العودة إلى صهيون، ما نعيشُه نحن اليومَ، هو عَينُهُ الوارد في أناشيد الزَّبور»[1].

إنَّ إضفاء صفة التاريخ على التيّار الصهونيّ، ووصف احتلال فلسطين بالحدث التاريخيّ الكبير؛ يأتي بإيعاز من المحافل الماسونيّة. وإنَّ الصهيونيّة، خلافاً لما تروِّجه لها الماسونيّة حول تكريم الإنسان ومساواته بأخيه الإنسان، تعتقد بتفوُّق القوميّة اليهوديّة (فالعالَم لليهود فَحَسْبُ؛ وباقي البشر حيوانات[2]! والله يتجسَّد في جسم الإنسان اليهوديّ[3].

ويعمل الماسونيّون على تفخيم التراث التاريخيّ التاريخيّ الـ«لا دينيّ» القديمِ للأمَم، وتعظيم شأن منجزاتِه غير الدينيّة. فتدعو، مثلاً في إيرانَ، إلى الَميترائيّة والزاردشتية؛ وهو توجُّهٌ أدّى إلى اعتماد تسمية المحافل الماسونيّة في إيرانَ «كوروش» و«مازاد» و«ميترا» و«داريوش» و«كسرى» و«باسارغاد»...

ويقول «مستر همفر» الجاسوس البريطانيّ في الدول الإسلاميّة، في كتابه «كيف نقضي على الإسلام»: «من الضروريّ أن نجعلَ المُسلِمِينَ يهتمّون بتراثهم القديم العائد إلى ما قبلَ الإسلام، وأن يُحيوا الشخصيات والأبطال التاريخية في ما قبل الإسلام؛ كإحياء الفرعونية والفراعنة في مصر، والزاردشتية في إيرانَ، والبابليّة في العراق»[4].

---

(1) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيرانَ المعاصر، تقرير لجنة نشرة المجلس الأعلى، رقم 2، ص9.

(2) المصدر نفسه.

(3) گروه تحقيقات علمي، **فراماسونرى ويهود**، ص 16.

(4) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيران المعاصر، تقرير لجنة نشرة المجلس الأعلى، رقم 2، ص 11.

دور الماسونيّينَ في الغزو الثقافيّ الغربيّ لإيرانَ

لقد عادى «آخوند زاده» الإسلامَ واعتبرَه سبب تخلُّف المسلمينَ، بدون أن يتعمَّقَ في دراسته! وكان يخدم النظام القيصريّ في روسيا، داخلَ إيرانَ. وكان يوصي الإيرانيّينَ بإنشاء محافل الماسونيّة في إيرانَ. وكان يدعو إلى البروتستانتيّة في الإسلام، ليُقالَ إنَّ القِيَمَ الإنسانيّة العظيمة نشأت من الإسلام[1]، ولم يأتِ بها السفير الأجنبيّ إلى البلاد! واستطاع التأثيرَ على عدد كبير من الأشخاص؛ منهم «مستشار الدولة»، و«جلال الدِّين ميرزا» الذي كتب إليه «آخوند زاده» يقول: «... التقدّم يحصل بالليبرالية، واللِّيبراليّة تحتاج إلى التحرّر من أغلال العقائد الباطلة...»[2]. وكان آخوند زاده كذلك يدعو إلى الزاردشتية والنزعة الوطنيّة ذات التعصّب أو الشوفينيّة.

وكان ملكم خان «ناظم الدولة» من مروِّجي الثقافة الغربيّة في إيرانَ. وقد ادّعى الإسلام لكن مات مسيحيّاً. وادّعى أنه أسّس البروتستانتيّة الإسلاميّة (تغريب الإسلام)، ودعا إليها، وقد أثّر في كثير من الإيرانيّينَ. وله ماضٍ غامض؛ فقد ساعد على منح الأجانب امتيازات عدّة في إيرانَ. ويقول: «المسيحيّة تمكّنت من أن تنتقي من الفكر اليونانيّ والاتِّجاه المنطقيّ والمادّيّ، وأن تَنَالَ قبول الناس...»[3]. وفي مجال آخر يقول: «أنا من أصل أرمنيّ مسيحيّ، نشأت بين المسلمينَ، رأيي هو رأي الإسلام، ودرست الأنظمة

---

(1) فريدون آدميت، **انديشه ترقى وحكومت قانون در عصر سپه سالار**، طهران، خوارزمي، 1351.

(2) فتح علي آخوند زاده، **الفباى جديد ومكتوبات**، جمع حميد محمّد زاده، تبريز، احيا، ص 172.

(3) حامد ألگار، **ميرزا ملكم خان**، ص12 ـ 13.

الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة للغرب... وتعرّفت على المذاهب المسيحيّة وعلى الماسونيّة؛ ثمّ وضعت مشروعاً مزجتُ فيه العقل السياسيّ الغربيّ بالفكر الدينيّ الشرقيّ. وعلمتُ أن لا مجالَ لتغيير إيرانَ لتصيرَ أوروبيّة؛ فقدّمتُ الازدهار المادّي في إطار دينيٍّ، خدمة لأبناء وطني. وتحدّثتُ عن تجديد الإسلام انطلاقاً من جوهر الذات الإنسانيّة التي هي مظهر العقل والكمال»[1].

وبنى ملكم خان محفلاً ماسونيّاً العامَ 1276هـ؛ وعرض من خلاله برامجه الخاصّة لإشاعة الثقافة الغربية، والدعايةِ للغرب. كما وضع كرّاساً يتضمّن مشروعاً لتغيير النظام التعليميّ في إيرانَ (مراحل ابتدائية ومتوسّطة وعُليا)، بعيداً عن تعليم القرآن الكريم واللغة العربيّة[2]. وكان يسعى للحدّ من دَور علماء الدِّين في التعليم، مع إصلاح السلطة القضائيّة وتقديم اللغة على الدِّين لتعزيز الوَحدة الوطنيّة، وتشجيع الاستثمار الأجنبيّ.

وأسّس ملكم خان علاقات متينة مع رجال البلاط، ودخل «دار الفنون» لجذب الجامعيّينَ إلى تنفيذ مشروعه؛ فانخرط كثير من الأكاديميّينَ في المحفل الماسونيّ الذي أسّسه هو[3]. ولقد صعب عليه تنفيذ كثير من مشاريعه أثناء حياته، نظراً إلى الظروف... إلّا أنَّ أتباعَه أكملوا مسيرتَه في عهد «رضا شاه».

لقد سيطر محفل «اليقَظة» على شؤون البلاد، بعد سقوط محمّد

---

(1) حامد ألگار، **ميرزا ملكم خان**، ص 103.

(2) فرشته نورايى، **بررسى انديشه هاى ميرزا ملكم خان ناظم الدولة**، تهران، حبيبى، 1352، ص 52.

(3) محمّد مدد بور، **تجدد ودين زدايى در فرهنك وهنر منور الفكرى إيران از آغاز پيدايى تا پايان عصر قاجار**، دانشگاه شاهد، 1373، ص 423.

علي القاجاريّ وطرح مشروع فصل الدِّين عن السياسة (من قِبل أعضاء هذا المحفَل). وبعد الثورة الدستورية؛ تحكّم الماسونيون بشتّى مجالات الدَّولة. فإنَّ «مدرسة العلوم السياسيّة» التي كانت تخرِّج الكوادرَ التي تدير شؤونَ البلاد، قد تأسّست على يد الماسونيّينَ (تحديداً ميرزا نصرالله النائينيّ ـ مُشير الدولة). وكان أساتذة هذه المدرسة من الماسونيّينَ؛ أمثال محمّد علي فروغي و«مسيو ميرل» و«محمّد حسين فروغي» و«أردشير جي» و«رجب علي منصور»... (وهُم مِن مؤسِّسي محفَل «اليقظة»).

وكان محمّد علي فروغي يقول إنَّ إيرانَ كالرِّداء الذي تحرِّك بريطانيا كُمَّهُ، فإيرانَ محتاجة إلى بريطانيا؛ كما كان يعتقد بضرورة الاقتباس من الأجانب لا سيّما الأوروبيّينَ، «ولهذا السبب أمضيت عُمُري بتعريف أوضاع الأوروبيّينَ، وقد ألّفتُ كتاب «مسيرة الحِكمة في أوروبّا «ترسيخاً لهذا الأمر»[1]. وكذلك د. وليّ الله نصر شبّه إيرانَ بأغصان العلَّيق التي لا تنمو بدون الجدار البريطانيّ.

وقد تسبّب الماسونيّون في انقلاب 1920م في إيرانَ؛ وجنِّد «رضا خان ميرزنج» لذلك، مع سيّد ضياء الدين الطباطبائيّ. ثمّ أصبح روّادُ الماسونيّة في إيرانَ، أعضاءُ «اليقَظة»، مستشارينَ لـ«رضا خان» بعد أن صار شاهاً لإيرانَ.

ومع تأسيس المجمَع العلمي العامَ 1936م؛ ترأّسه محمّد علي فروغي، وبدأ وضعَ المفردات الفارسيّة للمصطلَحات العِلميّة الأجنبيّة، وساعده في ذلك وليّ الله نصر وغيرُه ...[2].

---

(1) اسماعيل رايين، **فراموشخانه وفراماسونرى**، ج1، ص 453.

(2) مؤسّسة مطالعات وپژوهش هاى سياسى، **ظهور وسقوط سلطنت پهلوى**، تهران، مؤسسه اطلاعات، 1369، ج2، ص 41.

وقد تمّ تغيير اسم «دار المعلِّمينَ» إلى «دار التعليم العالي»، وترأّسه الماسونيّ أبو الحسن فروغي، وكان الأساتذة فيها محمود هومن ومحسن فروغي وغيرُهما...؛ لإشاعة الثقافة الـ«لا دينيّة» الغربيّة.

كذلك تأسست منظَّمة «سروش دانش» (= نداء العِلم)، ثمّ تغيّر اسمُها إلى «مركز ثقافة إيران الحديثة»؛ على يد الطلّاب الإيرانيّينَ العائدين من الغرْب حاملِينَ الأفكار الغربيّة الجديدة. وهدفوا إلى تحقيق «حرّية المرأة» و«نشر الحضارة الغربية» و«فصل الدِّين عن السياسة»، وقد نالت إعجاب «رضا خان». كانت مهمّة المركز إعطاء تسويغات ثقافيّة لمبادرات النظام البهلويّ، عبر صحيفة «ايران جوان» (إيران الحديثة)، وعبر المحاضَرات التي كانت تُلقى في المَجالس والمُناسَبات. ثمّ أصبحت هذه المؤسّسة التنظيمَ العلنيّ للماسونيّينَ؛ فترأّسها علي أكبر سياسيّ عضو جمعية التسليح الأخلاقيّ، وكان أغلب أعضائها من المَحافل الماسونيّة.

وقد تمّت إعادة تنظيم «محفل اليقَظة»، وتشكيل «محفل بهلوي»، بعد أن الْتَحَقَ الشاه بمجموعة الماسونيّينَ؛ فتنامت المحافل الماسونية في إيرانَ. فتمّت السيطرة الماسونية على الحكومة والمجلسَينِ؛ فحكومتا إقبال وهويدا هما حكومتان ماسونيّتان... فتسلّطت الماسونيّة لثلاثة عقود من الزمن على شؤون إيرانَ.

وكذلك هيمنت الماسونية على الجامعات، فصارت محافل «أمير كبير» و«مشعل» و«مهر» مراكزَ جامعيّة للماسونيّينَ. وكان هوشنگ نهاوندي رئيسُ جامعة بهلوي في شيراز وطهران، ماسونيّاً كما كان أنوشيروان پويان رئيسُ الجامعة الوطنية كذلك[1].

---

(1) منظَّمة الوثائق الوطنيّة الإيرانيّة، گنجينه اسناد، اسنة 1، الدفتر 1، ص22.

وفي مرحلة النفوذ الأميركيّ في إيرانَ، أيّام محمّد رضا بهلويّ، تأسّست جمعيّة «المركز التقدّمي» السياسيّة، وترأسها ماسونيّون أمثال حسن علي منصور. وكانت نتيجةُ سيطرة هؤلاء على الحُكم، المصادقةَ على قانون الحصانة، وعشراتِ الاتفاقيّات التي جعلت البلادَ أسيرةً للولايات المتّحدة.

وقدّمت حكومة أسد الله عَلَم مشروع قانون مجالس المحافظات، الذي يطرح أفكارَ الحرّية الدينيّة التي تدّعيها الماسونيّة. فقد حُذف في هذا القانون القَسَمُ على القرآن الكريم للمرشّحين في الانتخابات، وحلّ محلَّه القسم بالدِّيانات السماويّة. وهذا يلغي الاحتكامَ إلى الإسلامِ في الدولة الإيرانيّة، فتصدّى لذلك الإمام الخمينيّ مع علماء «مَشهَد» و«قُم» وغيرِهما، وأحبطَ هذا المخطَّط الأميركيّ ـ الماسونيّ.

إشاعة الوطنيّة الشوفينيّة

بدأت هذه الحركة مع آخوند زاده وملكم خان وآغاخان كرماني؛ ثمّ أصّلها بعدهم «فروغي» و«بيرنيا»... هدفت الحركةُ إلى الترويج لفترة ما قبل الإسلام في إيرانَ، وإظهار الإسلام عاملاً مخرِّباً للحياة في البلاد. فكانت «رسالة الملوك» التي كتبها جلال الدين ميرزا (أحد تلاميذ آخوند زاده وملكم خان)، تحكي عن ملوك ما قبل الإسلام، بلُغة فارسيّة أصيلة.

كذلك؛ «مسرح الحبّ والرجولة» ألّفه أبو الحسن فروغي، يمجّد إيرانَ القديمة. وكتاب «مِن برويز حتّى جنكيز»، تأليف «تقي زاده»، وكتاب «إيرانَ القديمة» لحسن بيرنيا، والقاموس البهلويّ لمؤلّفه «برويز ناتل خانلري»...

كلّ هذه المؤلَّفات عظّمت حكومات ما قبل الإسلام في إيرانَ؛ وأسفت لسقوط الدولة الساسانية على يد المسلمينَ.

وقد وصف فروغي الشاهَ «رضا خان» بأنه من مستوى الملوك الساسانيّينَ والإخمينيّينَ. وبالَغَتْ وسائل الإعلام في التعظيم بعدها لشأن «رضا خان»، واعتبارِه وارثَ عرش إيرانَ، واعتبارِ دولتِه الفتيّة واضعةً لأسُس الحداثة والسعادة ...[1].

وكان الماسونيّون يجبَرون، في المحافل، على اعتبار الشاه إلها متجسداً، وأن يؤدّوا القَسَمَ أمامَ العَلَم، على النحو: «أيها العَلَمُ الإيرانيّ العظيم! أقسِم أمامَك رمزاً لحرّية وطني، أن أحافظ على شرف ورفعة بلادي، وأن أكونَ مستعِدّاً للدفاع عن حقوق وطني، وأن يكون شعاري الدائم: الحريّة في ظلّ القانون؛ الحفاظ على السُّنَنِ القديمة إن كانت إلهيّة أو أمراً شاهنشاهيّاً؛ الأخُوَّة والمساواة؛ إطاعة العلماء»[2].

ويقول محمود هومن: «... إنَّ لبلادنا رئيساً واحداً هو الشاهنشاه (= ملك الملوك)؛ ووفق هذه الآيديولوجيا، وهي سُنَّتنا منذ ثلاثة آلاف عام، فإنَّ الشاه هو الحامي والحارس لإيرانَ، وهو أبو الشعب الإيرانيّ... وهو ما يجعل إيرانَ تحيا؛ والشاهنشاهيّة عطاءٌ إلهيّ»[3]. فاعتمِد شعارُ «الله، ثمّ الشاه، ثمّ الوطن»[4].

ويتكلّم هومن على مفهوم الوطن، فيقول: «لا تختلف أخلاق

---

(1) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيران المعاصر، ملف «فراماسونرى وظهور وسقوط سلطنت بهلوى»، ج2، ص 516.

(2) مجلّة مهر، الأعداد 7 ـ 12.

(3) وثائق مؤسّسة دراسات تاريخ إيرانَ المعاصر، دفتر أساليب العمل في ورشات رابطة سقراط...، ص 28.

(4) المصدر نفسه، كلمة الرئيس الأعلى للمذهب الإسكاتي في احتفال طريقت، العامَ 1351هـ، ص 1 ـ 2.

الإيرانيّينَ عن أخلاق اليونانيّينَ، لكنَّ تاريخ هؤلاء يختلف عن تاريخ أولئك، وهذا يخلق تمييزاً في إطار المفهوم العامّ للأخلاق، مؤدّياً إلى تعيينِ مفهوم الوطن»[1].

ويدعو هومن إلى تركيز الشعوب على النقاط الإنسانيّة في تاريخها، وهذا يساعد على توحيد الشعوب؛ فهذا أساس مشروع الحكومة العالَميّة للماسونيّة (الـ«كوزموبوليتينيّة» ـ وتَضمّ السلطةَ التشريعية والتنفيذية والقضائيّة، وتكونُ بعيدةً عن الإيمان بالله). والغريب المُضحِك أنَّ الماسونيّينَ يطرحون «الوطنيّة الشوفينيّة» (وتفضيلَ العَجَمِ على العَرَبِ) عندما تتعلَّق الأمور بالإسلام، فيما يطرحون شعار الوَحدة بين الشعوب والثقافةِ العالميّة الجامِعة، عندما يتعلّق الأمر بسلطة الغرب واليهود!

وقد أحكَمت الماسونيّة قبضتَها على مواقع النفوذ في «الأمم المتّحدة» و«صندوق النقد الدَّوليّ» والـ«يونسكو»؛ لتفرِض سلطتَها على دول العالَم. إلّا أنَّ الثقافات الغنيّة للدوَل المستضعَفة ما زالت تحُول دونَ استطاعةِ الماسونيّة تأسيس الحكومة العالَميّة الـ«كوزموبوليتينيّة».

وأمام صلابة موقف الإسلام والمسلمينَ، عموماً، حيالَ مآرب الماسونيّة الخفيّة؛ فإنَّ هجوم الغرْب، ومعه الحركة الماسونيّة العالَميّة، يتجلّى على نحو: الدعوة إلى اللِّيبراليّة والإصلاح، في المجال السياسيّ؛ ونشر الإلحاد، في المجال الدينيّ؛ والـ«كوزموبوليتينيّة»، في المجال الثقافيّ؛ وإشاعة قِيَمِ التسامح، في المجال الاجتماعيّ.

(1) المصدر نفسه.

ضرورة الاهتمام بالدَّور السرّي للماسونية في تحوُّلات التاريخ الإيرانيّ المعاصر

لقد برزت في أيّام العهد القاجاريّ، في إيران، أوجه انبهار الحكومات الإيرانيّة بالغرْب وأساليبه الحياتيّة. فانفتحَ العهد القاجاريّ على الغرْب انفتاحاً أتاحَ المنافسةَ على استعمار هذا البلد، بين بريطانيا وروسيا وفرنسا. وقد برزت ظاهرة جديدة، تحت عنوان الماسونيّة، هي «فراموشخانه» (= «دار النِّسيان»)، يدعو أعضاؤها إلى تقليد الغرب فالوصولِ إلى «المدينة الفاضلة».

ولقد تمّ إهمال التعاطي مع تأثير الماسونيّة في التحوّلات التاريخيّة، لا سيّما في إيرانَ. وتمّ التغاضي عن ذكر كثير من الأسماء وما أدّى أصحابُها من الأدوار، سياسيّاً وأمنيّاً واجتماعيّاً، في إطار عَمَلِهم لصالح الأهداف الماسونيّة. وهذا زاد في تحريف المفهوم الصائب لحقيقة مجريات أحداث التاريخ (لا سيّما في إيرانَ).

فحَول الإهمال وعدم التركيز على دَور الماسونيّة في تطوّرات التاريخ الحديث؛ تطرح التسويغات:

أ - **النقص في الوثائق والمعلومات**: لكون طابع عمل الماسونية سرّيّاً، تصعب الحظوة بمستندات وافرة تُفيد في شأن تأثير هذه المنظَّمة. وقد أدّى إسماعيل رائين دوراً مهمّاً في الكتابة عن حيثيّات الماسونيّة، رغم بعض الشوائب في مؤلَّفِه «الماسونية والمحافل المتعدِّدة في إيرانَ».

ب - **التقليل من أهمّيّة الموضوع**: عمد الماسونيّون إلى منع طباعة ونشر أيِّ مؤلَّف مناوِئ لأفكارهم (قبل قيام الثورة الإسلاميّة)؛ بل ومنعوا نشرَ المقالات والكتب التي تمجِّد أفكارَهم كذلك! (فمنها ما وزِّع بين الماسونيّينَ في محافِلِهم فحسبُ)!

وكثيرون هم الذين ينفُون «نظريّة المؤامرة» منوطةً بالعمل الذي تقوم به الماسونيّة؛ ويَعتبرون الحديث عن المؤامرة الخفيّة يَجُرُّ إلى البلبلة والإرهاب في صفوف الشعب[1]. إلّا أنَّ ملاحظةَ امتناعِ الحكومة البريطانية، بعد مئة عام، عن نشر وثائق المراكز الاستخباريّة والجمعيّات السرّيّة، المؤثّرة في فَهم الأحداث (ومنها الوثائق الخاصّة بالثورة الدستوريّة في إيرانَ)؛ تَجرُّ إلى التبيُّن من مدى سرّيّة وحساسيّة العمل الذي قامت به محافل الماسونيّة مع الاستخبارات الغربية، ضمن إطار «نظرية المؤامرة»، في الدوَل الشرقيّة المستضعَفة (دول العالَم الثالث)!

وينكر أولئك الذين ينفون، أو يستبعِدونَ، «نظرية المؤامرة» (وارتباطَها بالعمل السّرّيّ الماسونيّ)؛ أيَّ دَور محتمَل لبريطانيا في (تحريف مجرَيات) أحداث الثورة الدستورية في إيرانَ، والانقلابِ العسكريّ العامَ 1299هـ (1920م)، وإيصال رضا خان بهلوي إلى السلطة...

ونشير إلى مقال لأحمد أشرف (بعنوان «وَهمُ المؤامَرة»)، في العدد الثامن من مجلة «گفتگو»، يطرح فيه الماسونية مصداقاً لنظرية المؤامَرة؛ فيقول: «يسيطر على عقول الإيرانيّينَ هاجس تأثيرات شبكةٍ متداخِلةٍ من المراكز السرية للماسونية والبهائية واليهود، تسيّر أحداث التاريخ المعاصِر، وتحرِّك الشخصيّات القوية في العالَم كالدُّمَى. وأنَّ للماسونية الدّورَ الأكبر في الدَّسائس والمؤامَرات. ويعود سوء الظَّنِّ هذا إلى أنَّه:

1 ـ لم تكن حصّة الماسونيّينَ من تركيبة قادة أيّ مجتمَع في العالَم، بمستوى حجمها في إيرانَ ما قبلَ انتصار الثورة الإسلامية.

(1) وكالة أنباء الجمهوريّة الإسلاميّة، 31/ 5/ 1997.

2 ـ لم يكن الماسونيّون يروِّجون، في أي دولة أخرى، لارتباطِهم المنظَّم بأصحاب الحظوة في المجتمَع، ولم يكونوا عمليّاً عُمَلَاءَ للسفارة البريطانية؛ بقدر ما كان جزءٌ منهم كذلك في إيران. وإنَّ انتفاعَهم المُعلَنَ مِن علاقاتهم الخارجيّة، أشاعَ الكلام عن محافل الماسونيّة السّرّيّة»[1].

إذاً، يرى الكاتب أنَّ عقليّة الإيرانيّينَ المريضةَ تتوهَّم تآمُرَ الماسونيّينَ؛ فيما ليس الأمر جَدِّيّاً إلى حدِّ حقيقة التآمر. فالكاتب، مع إصراره على رفض نظريّة التآمر (في مَقاله)، يقع في شِبَاكِ

---

(1) ترتكز نظريّة المؤامرة على وجود أيدٍ خفيّة تابعة لمراكز القوّة خلف أيّ حادث؛ فتكون جميع عناصر الحدث «لعبةً» في يد هذه «الأيدي الخفيّة». ويرى البعضَ أنَّ هذه النظريّة ضرب من السذاجة لخداع البسطاء، إذ هي غير واقعية. وثمّة مَن يعتقد بوجودها، لكن لا يرى لها تأثيراً في تكوين الأحداث، فهي هامشيّة؛ ومن هؤلاء «سِير كارل بوبر» الذي يدعو إلى الكفّ عن التعامل التجريبيّ مع العلوم الاجتماعيّة، وعن الإيمان بنظرية الدَّسائس والمؤامرات الاجتماعية. ويقول بوبر إنَّ عصر الإيمان بآلهة هومر الذين كانت مؤامراتُهم سبباً في نشوب حروب طروادة، قد ولّى؛ كما يقول إنَّ المؤامرات ليست كثيرة ولا تغيِّر شيئاً من الخصال والخصائص في الحياة الاجتماعيّة، وحتّى في غياب المؤامرات، سنبقى نعاني من المشاكل عَينِها التي نعاني منها الآنَ ودائماً، وكذلك، قلّما تنجح المؤامرات. (كارل ريموند بوبر، حدسها وإبطالها. ترجمة أحمد آرام، تهران، سهامى انتشار، 1363، ص 424 ـ 425). إذاً؛ مثل هؤلاء المفكّرين يعتبرون مؤامرات شيوخ صهيون التي أسّست الكيان الإسرائيليّ الغاصبَ في فلسطين، ودَورَ المستعمرين في تخلُّف الدوَل الشرقية، ودَور المحتكِرينَ الاقتصاديّينَ عالميّاً في نهب ثروات الدوَل الضعيفة؛ قضايا هامشيّة وهميّة، حصلت تلقائيّاً نتيجة التحوُّلات الداخليّة للمجتمَعات! للمزيد حول نظريّة المؤامَرة؛ راجع: Geoffery Robert & Alistair Edwards, A new dictionary of political analysis, London, Edward Arnold, 1991, p. 27 - 28.

تأكيدها! إلّا أنه مقتنِعٌ بأنَّ البلاطَ المَلَكِيَّ هو المتآمرُ على شعبه، بمعزل عن ضغوط خفيّة تُدير مَصالحَ خارجيّةً استعماريّة!

وتشير المصادر إلى أنَّ أوّل ماسونيّ إيرانيّ هو «عسكرخان أفشار أرومي» (وقد تحدّثنا عن أمرِه في ما سَلَفَ)؛ والثاني هو «الميرزا أبو الحسن خان إيلجي» الذي سافر إلى الغرب وانبَهر بالمَظاهر المادّيّة والمعنوية للحضارة الغربيّة، فألَّف كتاب «حيرتنامه»، يدعو فيه (مِن مَوقع الذّلّ) الإيرانيّينَ إلى تقليد المجتمَعِ الغربيّ في جميع المجالات.

... وكان «ملكم خان» آخرَ المُلتَحِقِينَ بالرَّكب الماسونيّ، وأكثرَهم تأثيراً؛ وهو الذي أسَّس المحفلَ الماسونيّ في إيرانَ (وقد سَلَفَ أن ذَكَرنا مُطوَّلاً تفاصيلَ نشاطاتِه، ونشاطات أتباعِه في إيرانَ، التي أدَّت إلى إذلال البلاد).

وبعدَ إغلاق محفل ملكم الماسونيّ، بأمر من ناصر الدِّين شاه (1278هـ)؛ تمّ تأسيس مجمع الآدمية وجامعة الآدميّة (مديرها عبّاس قلي خان) وفقاً لتعاليم ملكم. وكان لهما نشاط جدّي وملحوظ. ثمّ حصلت انشقاقات في صفوف جامعة الآدميّة، فتأسّس «محفل صحوة إيرانَ» (1325هـ) الذي تحكّم بمجريات ثورة المشروطة، فحرَّف أهدافها، وحادَ بها عمّا رَسمه علماءُ الدِّين لها[1]. وكذلك «رابطة الأخوّة» التابعة للماسونية، تدخّلت في أحداث الثورة الدستوريّة وساقتها بعيداً عن غاياتها الأولى.

وكان محفل «غراند أوريان» الفرنسيّ بمثابة دكان سياسيّ لبريطانيا[2]؛ أثناء نهضة الحُكم الدستوريّ. وفي حادثة رمي المجلس

(1) رائين؛ **فراموشخانه وفراماسونرى در ايران**، ج1، ص637 ـ 643.

(2) مجلّة يغما، السنة 2، العدد 10 و11، 1328.

بالمدفعيّة؛ يذكر أديب الممالك فراهاني أنَّ د. ميرل الفرنسيّ (رئيس «محفل صحوة إيران» آنذاك) استغلّ حصانته السياسيّة فنزل إلى الساحة لإمداد المُدافعينَ عن المجلس بالدَّواء والسِّلاح، وليمهِّد لهروب «الإخوة» الذين تمّت محاصرتُهم[1].

وبعد انتصار زعماء الحركة الدستورية على محمّد علي شاه القاجاريّ؛ سيطر أعضاء «محفل صحوة إيران» على زمام الحكم؛ حتّى إنّهم كانوا يعيّنون ويعزلون مسؤولي المُدُنِ! فقد تقدّم الأمير القويّ (في عهد ناصر الدِّين شاه) الذي فَقَدَ موقعه بعد مواجهته للمعارضة الشعبيّة إثر انتصار الدستوريّينَ؛ بطلب إلى «محفل صحوة إيرانَ» لإبقائه في منصب حاكم أصفهان!

وكتب أديب الممالك إلى رئيس محفل صحوة إيران، يقول: «لو كنت بعد عودتي من أراك مقصِّراً، وكان ثمّة مَن اشتكى ضدّي؛ فلماذا لم يتمّ التحقيق معي ومحاكَمَتي؟! وإن كنت مداناً بعد عودتي من نيشابور فلماذا تمّ إيفادي إلى سمنان بدون محاكَمَتي ومعاقَبَتي؟!». وفي هذا دليل على مدى تحكّم محافل الماسونيّة بقادة أرجاء البلاد، في التاريخ الإيرانيّ الحديث!

وعمد أعضاءُ هذا المحفل، فَورَ وصولهم إلى السلطة، إلى قتل الشيخ فضل الله النوريّ. فقد ترأّس الشيخ الماسونيّ إبراهيم زنجاني المحكمةَ التي حكمت بإعدام الشيخ النوريّ، بمعيّة ماسونيّينَ هُم جعفر قلي بختياري، ومحمّد علي تربيت وآخرون... وأنهى هذا المحفل نشاطه الرسميّ العامَ 1319هـ؛ بعد قتل أمنية أرباب كيخسرو شاهرخ.

(1) رائين، **فراموشخانه وفراماسونرى در ايران**، ج 2، ص 356.

وأمّا «محفل التنوير» فكان أعضاؤه من أصحاب المناصب في الشرطة ومن السياسيّينَ والجواسيس البريطانيّينَ، ومِن عدد مِن الإيرانيّينَ. كان لهم تنسيق هجوم على جنوب إيرانَ، بالتعاون مع الحلفاء؛ وقد ساعد محفل «بيشاهنگ آبادان» في هذه العمليّة، بإلْهَاء الضبّاط الإيرانيّينَ، ثمّ إلقاءِ القبض عليهم. وإنَّ اثنَينِ مِن هؤلاء هُما اليومَ عُضوا محفل «ابن سينا» ...»[1].

وقد تمّ تأسيس «محفل بهلوي» لمجابهة الحركة الوطنية لتأميم النفط الإيرانيّ؛ بالتنسيق مع الاستخبارات البريطانية. واستمرّ تدخّل المحافل الماسونيّة في جميع الشؤون الداخليّة الإيرانيّة بعد سقوط حكومة د. مصدِّق وحتّى انتصار الثورة الإسلاميّة. فقد عارض الماسونيّون د. إقبال وحاولوا التضييقَ عليه، في انتخابات الدورة العشرين لمجلس الشورى الوطنيّ؛ إذ رفضَ الأخيرُ الانصياعَ لأوامر المحافل البريطانيّة (محفلَي «التنوير» و«طهران» بالتحديد)... ذلك بعد أن كان د. منوشهر إقبال مِن أكثر شخصيّات العهد البهلويّ انصياعاً للأوامر الماسونيّة؛ وقد عيِّن رئيساً للوزراء في نيسان 1957م. وكان آغا خان بختيار وأمير قاسم إشراقي ود. عبد الحسين راجي، من الماسونيّينَ الأعضاء في حكومة إقبال.

وفي العامِ 1972م؛ كان للماسونيّينَ ثمانية أعضاء في هيئة الوزراء (وفيهِم رئيسُ الوزراء هويدا)، و24 شخصاً في مجلس الشيوخ (منهم رئيسُ المجلس جعفر شريف إمامي)، و54 عضواً في مجلس الشورى الوطنيّ، و24 شخصاً من رجال وزارة الخارجيّة (بينَهم الوزيرُ عبّاس علي خلعتبري، والسفراءُ والمدراءُ العامّون). وكان مع كلّ هؤلاء كمٌّ من رجال الأعمال أصحاب الرساميل،

(1) المصدر نفسه.

ورجال المَصارف، والمدراء من الدرجة الأولى والثانية في البلاد... كلّهم من الماسونيّينَ.

إنّنا لا نهدف إلى تضخيم دَور الماسونية بشكل نتغافل فيه عن سائر العوامل المؤثِّرة في تكوين الأحداث التاريخية وتطوُّرِها؛ لكن يبقى أن نشدِّد على أنّنا سنظلّ نجافي الواقع والحقيقة لو أنكرنا دَور الماسونيّة وتآمرَ الأجانب في تحوُّلات التاريخ المعاصر (والحال عَينُه في ما يخصّ نظريّةَ المؤامَرة).

المَصادر والمَراجع

1 ـ أ. و. سيمونيچ، **خاطرات وزير مختار از عهد تركمنچاى تا جنگ هرات**، ترجمه: يحيى آرينپور، تهران، پيام فرانكلين، 1353ش.

2 ـ إبراهيم الفت، **فراماسونرى چيست؟**

3 ـ إبراهيم تيموري، **اولين مقاومت منفى در ايران**، تهران، جيبى، 1361ش.

4 ـ ________، **عصر بى‌خبرى يا تاريخ امتيازات در ايران**، تهران، اقبال، 1332ش.

5 ـ إبراهيم صفايي، **اسناد سياسى دوران قاجاريه**، تهران، بابك، 1357ش.

6 ـ ________، **اسناد مشروطه**، بى جا، بى نا، 1348ش.

7 ـ ________، **اسناد نويافته دوران قاجاريه**، تهران، بابك، 1355ش.

8 ـ ________، **بنيادهاى ملى در شهريارى رضا شاه كبير**، تهران، وزارت فرهنگ وهنر، 1355ش.

9 ـ ________، **پنجاه نامه تاريخى**، تهران، بابك، 1355ش.

10 ـ ________، **رضا شاه وتحولات فرهنگى ايران**، تهران، وزارت فرهنگ وهنر، 1356ش.

11 ـ ـــــــــــــ، **رهبران مشروطه**، بی جا، بی نا، 1343ش.
12 ـ أبو الحسن ايلچی شيرازي، **حيرت نامه سفرا (سفرنامه ايلچی به لندن)**، به كوشش حسن مرسلوند، تهران، مؤسسه فرهنگی رسا، 1364ش.
13 ـ ابو الحسن گلستانه، **مجمع التواريخ: شامل وقايع ورويدادهای سی وپنج ساله بعد از نادرشاه**، سعی واهتمام: مدرس رضوی، تهران، ابن سينا، 1344ش.
14 ـ أبو الفضل لساني، **طلای سياه يا بلای ايران**، تهران، اميركبير، 1329ش.
15 ـ أبو الفضل وكيلي، **قفقازيه ومجاهدين ايران**، تهران، عطايی، 1346ش.
16 ـ أبو تراب سردادور، **تاريخ نظامی وسياسی دوران نادر شاه افشار**، تهران، ستاد بزرگ ارتشتاران، 1354ش.
17 ـ أحمد تاجبخش، **سياست های استعماری روسيه تزاری وانگلستان وفرانسه در نيمه اول قرن 19**، تهران، اقبال، 1362ش.
18 ـ ـــــــــــــ، **سياستهای استعماری روسيه تزاری، انگلستان وفرانسه در ايران نيمه اول قرن نوزدهم**، تهران، اقبال، 1362ش.
19 ـ أحمد خان ملك ساساني، **پشت پرده: داستانهايی از دوره قاجاريه**، تهران، شباويز، 1372ش.
20 ـ ـــــــــــــ، **دست پنهان سياست انگليس در ايران**، تهران، هدايت، 1354ش.
21 ـ ـــــــــــــ، **سياستگران دوره قاجار**، تهران، انتشارات بابك، 1354ش.
22 ـ أحمد علي سپهر، **خاطرات مورخ الدوله سپهر**، به كوشش أحمد سميعی، تهران، نشر نامك، 1374ش.

23 ـ أحمد كسروي تبريزي، **كاروند كسروى، مجموعه 78 رساله وگفتار از أحمد كسروى**، به كوشش يحيى ذكاء، تهران، كتابهاى جيبى، فرانكلين، 1352ش.
24 ـ ________، **تاريخ مشروطه ايران**، جلد اول، تهران، امير كبير، 1363ش.
25 ـ ________، **تاريخ هيجده ساله آذربايجان**. تهران، اميركبير، چاپ چهارم، 1364ش.
26 ـ إدوارد براون، **انقلاب ايران**، ترجمه: أحمد پژوه، تهران، معرفت، 1338ش.
27 ـ از ظهور تا سقوط، تهران، مركز نشر اسناد لانه جاسوسى، 1368ش.
28 ـ استيفن نايت، **برادري**، ترجمه: فيروزه خلعتبرى، تهران، شباويز، 1368ش.
29 ـ إسماعيل رائين، **فراموشخانه وفراماسونرى در ايران**، تهران، مؤسسه تحقيقاتى رائين، 1347ش.
30 ـ اعتضاد السلطنه، **فتنه باب**، توضيحات ومقالات از عبد الحسين نوايى، تهران، چاپ مسعود سعد، 1359ش.
31 ـ آلبر ممي، **چهره استعمارگر، چهره استعمارزده**، تهران، خوارزمى، 1351ش.
32 ـ أمان الله اردلان، **خاطرات حاج عز الممالك اردلان**، تهران، نشر نامك، 1372ش.
33 ـ إميل لوسوئور، **زمينه چيني هاى انگليس براى كودتاى 1299**، ترجمه: وليالله شادان، تهران، اساطير، 1373ش.
34 ـ آن لمبتون، **اوضاع اجتماعى ايران در عهد قاجاريه**، ترجمه: منير برزين، مشهد، 1343ش.
35 ـ أولريخ گركه، **پيش به سوى شرق**، ترجمه: پرويز صدرى، تهران، كتاب سيامك، 1377ش.

36 ـ ایرج افشار (إعداد)، **اسناد مشروطیت (خاطرات واسناد مستشار الدوله)**، تهران، انتشارات ایران واسلام، 1362ش.
37 ـ ــــــــــــ، **اوراق تازه‌یاب مشروطیت ونقش تقی زاده**، تهران، انتشارات جاویدان، 1359ش.
38 ـ ــــــــــــ، **خاطرات سردار اسعد بختیاری (جعفرقلي‌خان امیربهادر)**، تهران، اساطیر، 1372ش.
39 ـ ــــــــــــ، **زندگانی طوفانی، خاطرات سید حسن تقی زاده**، تهران، انتشارات علمی، 1372ش.
40 ـ إیفان اوزیبویچ سیمونیچ، **خاطرات وزیر مختار از عهدنامه ترکمنچای تا جنگ هرات**، ترجمه: یحیی آرینپور، تهران، پیام فرانکلین، 1353.
41 ـ باقر عاقلي، **خاطرات یك نخست وزیر**، تهران، علمی، 1370ش.
42 ـ بهداد أربابی، **طلوع رستاخیز دوران اصلاحات امیرکبیر**، تهران، انتشارات پیوند، 1364ش.
43 ـ بهرام افراسیابي، **تاریخ جامع بهائیت، نوماسونی**، تهران، انجمن، 1368ش.
44 ـ بیو کارلوترنزیو، **رقابت‌های روس وانگلیس در ایران**، عباس آذرین، تهران، نشر کتاب، 1359ش.
45 ـ پرویز زاهدی، **میرزا تقی‌خان امیر کبیر**، تهران، سروش، 1365ش.
46 ـ پیتر شولاتور، **ایران کانون زمین لرزه**، ترجمه: ضیاء الدین ضیائی، تهران، شرکت تعاونی ترجمه ونشر بینالملل، 1363ش.
47 ـ تشارلز جیمز ویلسن، **تاریخ اجتماعی ایران در عهد قاجار**، ترجمه: سید عبد الله، به کوشش جمشید دودانگه ومهرداد نیکنام، تهران، زرین، 1363ش.

48 ـ تقي نصر، **ايران در برخورد با استعمارگران از آغاز قاجاريه تا مشروطيت**، تهران، شركت مؤلفان ومترجمان ايران، 1363ش.
49 ـ جلال آل أحمد، **در خدمت وخيانت روشنفكران**، تهران، خوارزمی، 1357ش.
50 ـ جلال الدين فارسي، **چهار انقلاب ودو گرايش مكتبى**، تهران، حوزه هنرى سازمان تبليغات، 1375ش.
51 ـ ــــــــــــ، **زواياى تاريك**، تهران، حديث، 1373ش.
52 ـ ــــــــــــ، **فلسفه انقلاب اسلامى**، تهران، اميركبير، 1365ش.
53 ـ جلال الدين مدني، **تاريخ تحولات سياسى وروابط خارجى ايران**، قم، انتشارات اسلامى، 1370ش.
54 ـ جماعة من فضلاء العصر القاجاري، **نامه دانشوران ناصرى در شرح حال ششصد تن از دانشمندان نامى**، قم، مؤسسه مطبوعاتى دار فكر، 1339ش.
55 ـ جماعة من المؤلّفين، **نهضت مشروطيت ايران، مجموعه مقالات**، مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر ايران، 1378ش.
56 ـ جميل قوزانلو، **جنگ اول ايران وروس**، تهران، كتابفروشى مركزى، 1315ش.
57 ـ جهانگير اوشيدري، **تاريخ پهلوى وزرتشتيان**، تهران، انتشارات وقت، 1355ش.
58 ـ جهانگير ميرزا، **تاريخ نو**، سعى واهتمام: عباس اقبالآشتيانى، تهران، علمى، 1327ش.
59 ـ جورج براندس، **جنايت روس وانگليس نسبت به ايران**، برلين، كاوه، 1336 قمرى.
60 ـ جورج لنچافسكي، **رقابت روسيه وغرب در ايران**، ترجمه: اسماعيل رائين، تهران، جاويدان، 1353ش.

61 ـ جوهانس فووريه، **سه سال در دربار ایران با خاطرات دکتر فووریه پزشك ویژه ناصر الدین شاه**، ترجمه: عباس اقبال آشتیانی، تقدیم: همایون شهیدی، تهران، دنیای کتاب، 1362ش.
62 ـ ح. م. زاوش، **نقد وتحقیق در تاریخ معاصر ایران**، تهران، بهاره، 1366ش.
63 ـ ــــــــــــ، **دولتمردان ایران در عصر مشروطیت**، ج 2، تهران، اشاره، 1370ش.
64 ـ حامد الگار، **ایران وانقلاب اسلامی**، تهران، سپاه پاسداران انقلاب اسلامی.
65 ـ ــــــــــــ، **میرزا ملکم‌خان**، ترجمه: جهانگیر عظیما، تهران، انتشارات مدرس وشرکت سهامی انتشار، 1369ش.
66 ـ حسن اعظام الوزراه قدسي، **خاطرات من** یا **روشن‌شدن تاریخ صد ساله**، تهران، ابوریحان، 1343ش.
67 ـ حسن اعظام قدسي، **خاطرات من**، بی جا، بی نا، 1342ش.
68 ـ حسن تقي زاده، **زندگی توفانی (خاطارت سید حسن تقي‌زاده)**، به کوشش ایرج افشار، تهران، علمی.
69 ـ حسن کربلائي، رساله «**تاریخ دخانیه**»، در کتاب **سده تحریم تنباکو**، دفتر دوم.
70 ـ حسن مرسلوند، **شاه شکار**: **بازجویي‌های میرزا رضا کرمانی**، تبریز، جوانه، 1370ش.
71 ـ حسن معاصر، **تاریخ استقرار مشروطیت در ایران**، تهران، ابن سینا، 1352ش.
72 ـ حسین أبو ترابیان، **مطبوعات ایران از شهریور 1326 ـ 1320**، تهران، اطلاعات، 1366ش.
73 ـ حسین حسینچي قره آغاج، **نگاهی به ترکمنچای**، تبریز، 1366ش.

74 ـ حسين سعادت نوري، **رجال دوره قاجار**، تهران، وحيد، 1364ش.

75 ـ حسين لعل، **قبله عالم: زندگانی خصوصی ناصر الدين شاه قاجار**، تهران، دنيای كتاب، 1372ش.

76 ـ حسين محبوبي اردكاني، **تاريخ مؤسسات تمدنی جديد در ايران**، تهران، دانشگاه تهران، انجمن دانشجويان دانشگاه تهران، 1354ش.

77 ـ حسين مكي، **تاريخ بيست ساله ايران**، تهران، علمی، 1323 تا 1364 در 8 جلد.

78 ـ ـــــــــــــ، **زندگانی ميرزا تقی خان امير كبير**، تهران، انتشارات ايران، 1365ش.

79 ـ حسين يكرنگيان، **زندگی سياسی وادبی صدر اعظم شهيد قائم‌مقام فراهانی**، تهران، انتشارات علمی، 1344ش.

80 ـ ـــــــــــــ، **سرنوشت ايران يا زندگانی سياسی قائم‌مقام فراهانی**، تهران، علمی، 1334ش.

81 ـ حميد بصيرت منش، **علما ورژيم رضا شاه**، تهران، عروج، 1376ش.

82 ـ حميد زيارتي، **بررسی وتحليلی از نهضت امام خمينی**، قم، دار الفكر، 1359ش.

83 ـ خانبابا بياني (إعداد)، **فهرست بخشی از اسناد وعهدنامه‌ها وسفرنامه‌ها ورساله‌های دوره قاجاريه**، تهران، وزارت امور خارجه، 1353ش.

84 ـ خانك عشقي، **سياست نظامی روسيه در ايران**، تهران، بی نا، 1353ش.

85 ـ دنيس رايت، **ايرانيان در ميان انگليسيها**، تهران، نشر نو، چاپ دوم، 1368ش.

86 ـ دوست علي خان معير الممالك، **رجال عصر ناصری**، تهران، نشر تاریخ ایران، 1361ش.
87 ـ رسول جعفریان، **بحران آذربایجان**، تهران، مؤسسه مطالعات تاریخ معاصر ایران، 1381ش.
88 ـ ــــــــــــ، **بست نشینی مشروطه خواهان در سفارت انگلیس**، تهران، مؤسسه مطالعات تاریخ معاصر ایران، 1378ش.
89 ـ ــــــــــــ، **جریان‌ها وجنبش های مذهبی ـ سیاسی ایران**، تهران، پژوهشگاه فرهنگ واندیشه اسلامی، چاپ دوم، 1381ش.
90 ـ رضا داوري، **انقلاب اسلامی ایران ووضع کنونی عالم**، تهران، مرکز فرهنگی علامه طباطبائی، 1361ش.
91 ـ ــــــــــــ، **وضع کنونی تفکر در ایران**، تهران، سروش، 1357ش.
92 ـ رضا شعباني، **تاریخ اجتماعی ایران در عصر افشار**، تهران، دانشگاه تهران، 1359ش.
93 ـ رضا عزيزي، **حاج میرزا آقاسی**، تهران، 1328ش.
94 ـ رضا فراستي، **فرمانها ورقمهای دوره قاجار**، تهران، مؤسسه پژوهش ومطالعات فرهنگی، 1372ش.
95 ـ رضا قليخان هدايت، **روضه الصفای ناصری**، تهران، ضمایم، 1339ش.
96 ـ رضا ناروند، **غروب خاندان زند**، تهران، بی نا، 1354ش.
97 ـ روبرت گرانت واتسن، **تاریخ ایران از ابتدای قرن نوزدهم تا سال 1858**، ترجمه: غ. وحید مازندرانی، تهران، امیر کبیر، 1354ش.
98 ـ روح الله خميني، **پیامها وسخنرانیهای امام خمینی**، تهران، انتشارات نور.

99 ـ س. ج. و. بنجامین، **ایران وایرانیان: عصر ناصر الدین شاه**، ترجمه: محمد حسین کردبچه، تهران، سنائی، 1344ش.
100 ـ سازمان اسناد ملی ایران، **گنجینه اسناد سال اول**، دفتر دوم.
101 ـ سبهسالار تنکابني، **یادداشتهای سپهسالار تنکابنی**، جمع: أمیر عبدالصمد خلعتبری، اهتمام: محمود تفضلی، تهران، مؤسسه انتشارات نوین، 1362ش.
102 ـ سعید نفیسي، **تاریخ اجتماعی وسیاسی در دوره قاجار**، تهران، بنیاد، 1344ش.
103 ـ ــــــــــــ، **تاریخ سیاسی واجتماعی ایران در دوره معاصر**، تهران، شرق، 1372ش.
104 ـ ــــــــــــ، **تاریخ شهریاری شاهنشاه رضا شاه پهلوی**، تهران، شورای مرکزی جشنهای شاهنشاهی، 1344ش.
105 ـ ــــــــــــ، **تاریخ معاصر ایران: از چهارم اسفند ماه 1299 تا بیست وچهارم شهریور 1320**، با مقدمه وفهرست بقلم علی زرینقلم، تهران، فروغی، 1345ش.
106 ـ
سید جعفر خان حقایق نگار خورموجي، **حقایق الأخبار ناصری**، اهتمام: حسین خدیوجم، تهران، نشر نی، 1363ش.
107 ـ سید ضیاء الدّین طباطبايي، **مقالات ویادداشتهای سید ضیاء الدین طباطبایی**، تهران، 1322ش.
108 ـ سیدني پولار، **اندیشه ترقی**، ترجمه: اسدپور پیرانفر، تهران، امیرکبیر، 1354ش.
109 ـ سینا واحد، **قیام گوهرشاد**، تهران، وزارت فرهنگ وارشاد اسلامی، 1366ش.
110 ـ شکر الله برآوریان، **وامها واعتبارات خارجی واثر آن در اقتصاد ایران**، تهران، 1347ش.

111 ـ صادق جلالي، **بر ضد استعمار**، تهران، چاپخش، 1354ش.
112 ـ صادق سلطان القرايي، **كتاب شناخت القاب دوره ناصرالدين شاه**، تهران، دنياى دانش، 1365ش.
113 ـ عباس اقبال آشتياني، **ميرزا تقى خان امير كبير**، تهران، توس، 1363ش.
114 ـ عباس خالصي، **تاريخچه بست وبست‌نشينى همراه با شواهد تاريخى**، تهران، علمى، 1366ش.
115 ـ عباس علي عميدزنجاني، **انقلاب اسلامى وريشه هاى آن**، تهران، نشر كتاب سياسى، 1367ش.
116 ـ عباس مخبر، **سلسله پهلوى ونيروهاى مذهبى به روايت تاريخ كمبريج**، ترجمه: وگردآورى عباس مخبر، ويراستار مرتضى اسعدى، تهران، طرح نو، 1371ش.
117 ـ عباسقلي سپهر ثاني، **اوصاف ناصري**: احوالات ناصر الدين شاه 1313ـ1247، تهران.
118 ـ عبد الحسين حائري (إعداد)، **اسناد روحانيت ومجلس**، تهران، كتابخانه موزه ومركز اسناد مجلس شوراى اسلامى، (4 جلد)، 1374ش.
119 ـ عبد الحسين دانش پور، **بانك شاهنشاهى وامتياز**، 1326ش.
120 ـ عبد الحسين سپهر، **مرآت الوقايع مظفرى وياddداشت‌هاى ملك المورخين**، اهتمام: عبد الحسين نوايى، تهران، زرين، 1368ش.
121 ـ عبد الرزاق دنبلي، **تجربة الأحرار وتسلية الأبرار**، تصحيح وحواشى: حسن قاضى طباطبائى، تهران، مؤسسه تاريخ وفرهنگ ايران، 1350ش.
122 ـ عبد الرزاق دنبلي، **مآثر سلطانيه**، اهتمام: غلام حسين صدرى افشار، تهران، ابن سينا، 1351ش.

123 ـ عبد الرضا هوشنگ مهدوي، **تاريخ روابط خارجی ايران**، جلد اول، تهران، اميركبير، 1364ش.
124 ـ عبد الرفيع حقيقت، **تاريخ نهضتهای فكری ايرانيان در دوره قاجار**، تهران، شركت مؤلفان ومترجمان، 1368ش.
125 ـ عبد الله شهبازي، **زرسالاران پارسی ويهودی، استعمار بريتانيا در ايران**، تهران، مؤسسه مطالعات وپژوهشهای سياسی، 1379ش.
126 ـ ________، **ظهور وسقوط سلطنت پهلوی**، تهران، انتشارات اطلاعات، 1378ش.
127 ـ عبد الله مستوفي، **شرح زندگی من: تاريخ اجتماعی واداری دوره قاجاريه**، تهران، علمی، 1341ش.
128 ـ عبد الهادي حائري، **نخستين رويارويی انديشه‌گران ايران با دو رويه تمدن بورژوازی غرب**، تهران، اميركبير، 1367ش.
129 ـ عقيقي بخشايشي، **يكصد سال مبارزه روحانيت مترقی**، قم، نويد، 1358ش.
130 ـ عكاس باشي دربار (إعداد)، **دومين سفر نامه مظفر الدين شاه به فرنگ**، تهران، كاوش، 1362ش.
131 ـ علي أبو الحسني، **سلطنت علم ودولت فقر**، قم، دفتر انتشارات اسلامی، 1374ش.
132 ـ علي أصغر شميم، **ايران در دوره سلطنت قاجار**، تهران، نشر علمی، 1370ش.
133 ـ علي اكبر ارداقی، **اسرار قتل ناصر الدين شاه**، تهران، 1331ش.
134 ـ علي اكبر بينا، **تاريخ سياسی وديلماسی ايران از گناباد تا تركمنچای**، تهران، دانشگاه تهران، 1347.
135 ـ ________، **روابط سياسی وديلماسی ايران با انگلستان**

از اواخر قرن هفتم تا انعقاد معاهده پاريس در سال 1857، تهران، مؤسسه عالى سياسى امور فربى، 1352ش.

136 ـ علي أكبر هاشمي رفسنجاني، **أمير كبير قهرمان مبارزه با استعمار**، تهران، فراهانى، 1346ش.

137 ـ ــــــــــــ، **در رابطه با انقلاب اسلامى**، قم، دفتر انتشارات اسلامى، 1364ش.

138 ـ ــــــــــــ، **نقش روحانيت در انقلاب**، [بيجا، بينا، بيتا].

139 ـ علي أكبر ولايتي، **مقدمه فكرى نهضت مشروطيت**، تهران، اميركبير، 1369ش.

140 ـ علي آل داود، **نامههاى اميركبير** (به انضمام رساله نوادرالامير)، تهران، نشر تاريخ ايران، 1371ش.

141 ـ علي البصري (إعداد وجمع)، **يادداشتهاى اعلى حضرت رضا شاه كبير رياست الوزرايى وفرماندهى كل قوا**، ترجمه وتحقيق از شهرام كريملو، تهران، ستاد ارتش، 1350ش.

142 ـ علي باقري كبوق، **جامعه وحكومت در ايران**، تهران، نشر بين الملل، 1371ش.

143 ـ علي ثقة الإسلام، **مجموعه آثار قلمى ثقة الإسلام شهيد تبريزى**، اهتمام: نصرت الله فتحى، تهران، انجمن آثار ملى، 1355ش.

144 ـ علي خان ظهير الدولة، **تاريخ بيدروغ: در وقايع كشته شدن ناصر الدين شاه**، تهران، شرق، 1362ش.

145 ـ علي دشتي، **پنجاه وپنج**، تهران، اميركبير، 1355ش.

146 ـ علي دواني، **نهضت روحانيون ايران**، تهران، مؤسسه خيريه وفرهنگى امام رضا (ع)، 1360ش.

147 ـ علي رضا شيرازي، **تاريخ زنديه**، ترجمه ومقدمه: غلام رضا ورهرام، تهران، گستره، 1365ش.

148 ـ علي رضا ملائي تواني، **ايران ودولت ملی در جنگ جهانی اول**، تهران، مؤسسه مطالعات تاریخ معاصر ایران، 1371ش.

149 ـ علي ظهير الدولة، **سفر نامه ظهير الدوله**، اهتمام: محمد إسماعيل رضوانی، تهران، کتابخانه مستوفی، 1371ش.

150 ـ علي قلي ميرزا اعتضاد السلطنة، **اكسير التواريخ: تاريخ قاجاريه از آغاز تا سال) 1259**، اهتمام: جمشيد كيان فر، تهران، ويسمن، 1370ش.

151 ـ علي منذر، **جهاد دفاعی یا جنگ‌های ایران وروس**، تهران، دار الحسين (ع)، 1358ش.

152 ـ عوض الخوري، **تبديد الظلام او اصل الماسونيه**، بيروت، 1995م.

153 ـ عيسى صديق، **يادگار عمر**، تهران، اميركبير، 1345ش.

154 ـ غ. د. رخشان، **اميركبير كيست؟**، تهران، جاويدان، 1357ش.

155 ـ غلام حسين افضل الملك، **افضل التواريخ**، اهتمام: منصوره اتحاديه وسيروس سعدونديان، تهران، نشر تاريخ ايران، 1361ش.

156 ـ غلام حسين زرگري نژاد، **رسائل مشروطيت**، تهران، كوير، 1374ش.

157 ـ غلام رضا كرباسچى، **تاريخ شفاهى انقلاب اسلامى ايران**، تهران، مركز اسناد انقلاب اسلامى، بنياد تاريخ انقلاب اسلامى، 1380ش.

158 ـ ــــــــــــ، **هفت هزار روز**، بنياد تاريخ انقلاب اسلامى، 1371ش.

159 ـ غلام رضا ورهرام، **نظام سياسى وسازمانهاى اجتماعى ايران در عصر قاجار**، تهران، معين، 1367ش.

160 ـ فاطمة استاد ملك، **حجاب وكشف حجاب در ایران**، تهران، عطایی، 1367ش.

161 ـ فتح علي آخوند زاده، **الفبای جدید ومکتوبات**، گردآوری حمید محمد زاده، تبریز، احیا.

162 ـ ـــــــــــــ، **مجموعه مقالات**، گردآوری باقر مؤمنی، تهران، آوا.

163 ـ فرج الله بهرامي، **یادداشتهای سری رضا شاه**، گردآورنده فرجالله بهرامی، تهران، انتشارات ترقی.

164 ـ فرشته نورايي، **بررسی اندیشه‌های میرزا ملکم‌خان ناظم الدوله**، تهران، حبیبی، 1352ش.

165 ـ فریدون آدمیت، **امیرکبیر وایران**، تهران، چاپخانه مهر، 1324ش.

166 ـ ـــــــــــــ، **اندیشه ترقی وحکومت قانون در عصر سپهسالار**، تهران، خوارزمی، 1351ش.

167 ـ فضل الله گرگاني، **ایران در میان دو سنگ آسیا**، تهران، انتشارات روزنه، 1356ش.

168 ـ قدرت الله روشني، **امیر کبیر ودار الفنون**، تهران، کتابخانه مرکزی ومرکز اسناد، 1354ش.

169 ـ کاپیتان هفت، **جنگ انگلیس وایران راجع به هرات**، ترجمه: حسین سعادت نوری، تهران، بی نا، 1327ش.

170 ـ کاوه بیات، **ایران وجنگ جهانی اول**، سازمان اسناد ملی، 1369ش.

171 ـ کلیمنت رابرت مارکام، **تاریخ ایران در دوره قاجار**، ترجمه: رحیم فرزانه، تهران، نشر فرهنگ ایران، 1364ش.

172 ـ کوثر، **مجموعه سخنراني های امام خمینی**، تهران، مؤسسه تنظیم ونشر آثار امام خمینی، 1371ش.

173 ـ كوريكن، **بدايع وقايع**، مترجم مشيرالملك، تهران، وحيد، 1350ش.

174 ـ گروه تحقيقات علمي، **فراماسونرى ويهود**، ترجمه: جعفر سعيد، تهران، 1368ش.

175 ـ م. افتخار زاده، **انقلاب اسلامى ايران ومواضع استكبار جهانى**، قم، روح، 1361ش.

176 ـ مجموعة من أنصار الثورة في أوروبا، **روحانيت واسرار فاش نشده از نهضت ملى شدن صنعت نفت**، به كوشش گروهى از هواداران نهضت اسلامى در اروپا، قم، دار الفكر، 1358ش.

177 ـ محسن صدر، **خاطرات صدر الأشراف**، تهران، وحيد، 1364ش.

178 ـ محمد إسماعيل رضواني، **انقلاب مشروطيت ايران**، تهران، كتابهاى جيبى.

179 ـ محمد باقر حشمت زاده، **چارچوبى براى تحليل وشناخت انقلاب اسلامى در ايران**، تهران، مؤسسه فرهنگى دانش وانديشه معاصر، 1378ش.

180 ـ محمد تركمان، **اسنادى درباره هجوم انگليس وروس به ايران**، تهران، وزارت امور خارجه، 1370ش.

181 ـ محمد تقي آيت اللهي، **مبارزات سيد عبد الحسين نجفى لارى**، بنياد مستضعفان، 1360ش.

182 ـ ــــــــــــــ، **تاريخ مختصر احزاب سياسى ايران، انقراض قاجاريه**، تهران، اميركبير، 1363ش.

183 ـ محمد تقي بهلول، **خاطرات سياسى بهلول يا فاجعه مسجد گوهرشاد**، تهران، مؤسسه امام صادق (ع)، 1370ش.

184 ـ محمد تقي سپهر، **ناسخ التّواريخ**، اهتمام: جهانگير قائم مقامى، تهران، اميركبير، طهورى، 1327ش.

185 ـ محمد حرز الدين، **معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء**، النجف، مطبعة الآداب، 1383ق.

186 ـ محمد حسن خان اعتماد السلطنة، **تاريخ منتظم ناصرى**، تصحيح محمد إسماعيل رضوانى، طهران، دنياي كتاب، 1367ش.

187 ـ ــــــــــــ، **چهل سال تاريخي ايران در دوره پادشاهى ناصر الدين شاه، جلد اول: المآثر الآثار**، اهتمام: إيرج أفشار، تهران، انتشارات اساطير، 1363ش.

188 ـ ــــــــــــ، **صدر التّواريخ يا شرح حال صدر اعظم‌ها وپادشاهان قاجار**، تصحيح وتحشيه وتنظيم فهرستها از محمد مشيرى، تهران، وحيد، 1349ش.

189 ـ محمد حسن رجبي، **زندگينامه سياسى امام خمينى**، تهران، وزارت فرهنگ وارشاد اسلامى، 1369ش.

190 ـ محمد حسن كاووسي عراقي، نصرالله صالحى، **جهاديه**، تهران، وزارت امور خارجه، 1375ش.

191 ـ محمد حسين ركن زاده آدميت، **فارس وجنگ بين الملل**، تهران، اقبال، 1357ش.

192 ـ محمد حسين قدوسي، **نادر نامه**، مشهد، انجمن آثار ملى خراسان، 1339ش.

193 ـ محمد خليل مرعشي صفوي، **مجمع التواريخ: در تاريخ انقراض صفويه ووقايع بعد تا 1207 قمرى**، تصحيح واهتمام: عباس اقبال، تهران، كتابخانه سنايى، طهورى، 1362ش.

194 ـ محمد رضا خسروي، **كلات نادرى**، مشهد، مؤسسه چاپ وانتشارات آستان قدس رضوى، 1367ش.

195 ـ محمد رضا عباسي، **حكومت سايه‌ها** (يا اسناد محرمانه ميرزا حسين خان سپهسالار)، تهران، سازمان اسناد ملى ايران، 1372ش.

196 ـ محمد رضا كرمي نژاد، **علل استخدام مستشاران خارجی از دول بیطرف**، کتابخانه مرکزی، 1354ش.

197 ـ محمد رضا نصيري، **اسناد در مکاتبات تاریخی ایران: دوره افشاریه**، رشت، دانشگاه گیلان، 1366ش.

198 ـ ــــــــــ، **اسناد ومكاتبات تاریخی ایران**، تهران، کیهان، 1366ش.

199 ـ محمد ساروي، **تاريخ محمدي: أحسن التواريخ**، اهتمام: غلام رضا طاطبایی مجد، تهران، امیر کبیر، 1371ش.

200 ـ محمد سعيدي، **امير كبير**، تهران، امير كبير، اقبال، 1335ش.

201 ـ محمد شريف رازي، **آثار الحجة يا اولين دائره المعارف حوزه علميه قم**، قم، دارالكتاب، 1332ش.

202 ـ ــــــــــ، **گنجينه دانشمندان**، قم، 1399 قمری.

203 ـ محمد شفيع قزويني، **قانون قزوینی** (يا انتقاد اوضاع اجتماعی ایران در دوره ناصري، به همراه رساله پیشنهادی برای اصلاح امور مملكت)، تهران، طلايه، 1370ش.

204 ـ محمد صادق موسوي أصفهاني، **تاريخ گيتى گشا در تاریخ خاندان زندیه**، مقدمه وتصحيح: سعيد نفيسى، تهران، اقبال، 1317ش.

205 ـ محمد صادق وقايع نگار امروزي، **آهنگ سروش**، گردآورنده حسین آذر، تهران، امیرهوشنگ آذر، 1349ش.

206 ـ محمد علي فروغي، **سير حكمت در اروپا**، تهران، چاپخانه مجلس، 1318ش.

207 ـ محمد كاظم مروزي، **عالم آرای نادری**، تصحيح وتقديم وتوضیحات محمد امین ریاحی، تهران، نشر علم، 1369ش.

208 ـ محمد محیط طباطبايي، **مجموعه آثار میرزا ملکم‌خان**، تهران، علمی، 1327ش.
209 ـ محمد مدد پور، **سیر تفکر معاصر**، تهران، انتشارات تربیت، 1373ش.
210 ـ محمد مصدق، **کاپیتولاسیون وایران**، با مقدمه وحواشی وتعلیقات فریدون جنیدی، تهران، بینا، 1360ش.
211 ـ محمد مهدي استرآبادي، **تاریخ نادری**، تصحیح عبد الله انوار، تهران، انجمن آثار ملی، 1341ش.
212 ـ ــــــــــ، **درّه نادری**، اهتمام: جعفر شهیدی، تهران، شرکت انتشارات علمی وفرهنگی، 1366ش.
213 ـ محمد مهدي شریف کاشانی، **واقعات اتفاقیه در روزگار**، اهتمام: منصوره اتحادیه وسیروس سعدوندیان، تهران، نشر تاریخ ایران، 1362ش.
214 ـ محمد نهاوندیان، **پیکار پیروز تنباکو**، بی جا، بی نا، 1357ش.
215 ـ محمود حکیمي، **داستان هایی از زندگی امیر کبیر**، تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، 1367ش.
216 ـ ــــــــــ، **داستان‌هایی از عصر ناصر الدین شاه**، تهران، قلم، 1365ش.
217 ـ محمود شروین، **دولت مستعجل دکتر محمد مصدق ـ آیت الله کاشانی**، تهران، علمی، 1374ش.
218 ـ محمود طاهري احمدي، **تلگرافات عصر سپهسالار**، تهران، سازمان اسناد ملّی ایران، 1370ش.
219 ـ محمود طلوعي، **بازیگران عصر پهلوی از فروغی تا فردوست**، تهران، نشر علم، 1372ش.
220 ـ محمود فرهاد معتمد، **سپهسالار اعظم**، تهران، 1325ش.

221 ـ محمود محمود، **تاريخ روابط سياسى ايران وانگليس در قرن نوزدهم ميلادى،** تهران، اقبال، 1328ش.
222 ـ مرتضى پسنديده، **خاطرات آيت الله سنديده**، به كوشش محمد جواد مرادينيا، تهران، حديث، 1374ش.
223 ـ مرتضى سيفي، **نظم ونظميه در دوره قاجاريه**، تهران، فرهنگسرا، 1362ش.
224 ـ مرتضى مطهري، **پيرامون انقلاب اسلامى**، قم، صدرا.
225 ـ ــــــــــ، **نهضتهاى اسلامى در صد ساله اخير**، صدرا، 1366ش.
226 ـ مستر همفر، **خاطرات مستر همفر: جاسوس انگليسى در كشورهاى اسلامى،** مقدمه وتعليقات: آقاى حاج شيخ حسين لنگرانى، ترجمه وحواشى: على كاظمى، تهران، 1361ش.
227 ـ مسعود رضوي، **هاشمى وانقلاب**، تهران، همشهرى، 1376ش.
228 ـ مسعود سالور وإيراج أفشار، **روزنامه خاطرات عين السلطنه سالور،** تهران، اساطير، 1377ش.
229 ـ مصطفى فاتح، **پنجاه سال نفت ايران**، تهران، چهر، 1335ش.
230 ـ مصطفى موسوي طبري، **عباس ميرزا قاجار**، تهران، ابن سينا، 1353ش.
231 ـ مظفر نامدار طالشاني، **رهيافتى به مبانى مكتبها وجنبشهاى سياسى شيعه**، تهران، پژوهشگاه علوم انسانى، 1376ش.
232 ـ مهدي أنصاري، **شيخ فضل الله نورى ومشروطيت**، تهران، امير كبير، 1369ش.
233 ـ مهدي فرخ، **خاطرات سياسى فرخ**، تهران، جاويدان.
234 ـ مهدي قلي هدايت، **خاطرات وخطرات**، تهران، شركت چاپ رنگين، 1329ش.

235 ـ مهدي ملکزاده، **تاریخ مشروطیت ایران**، جلد اول، تهران، کتابفروشی ابن سینا، 1331ش.
236 ـ مؤسسه مطالعات تاریخ معاصر ایران، **بنیاد فلسفه سیاسی در ایران**، تهران، مرکز نشر دانشگاهی، 1376ش.
237 ـ مؤسسه مطالعات وپژوهشهای سیاسی، **ظهور وسقوط سلطنت پهلوی**، ج 2، تهران، مؤسسه اطلاعات، 1369ش.
238 ـ موسی نجفي، **اندیشه سیاسی وتاریخ نهضت حاج آقا نور الله أصفهانی**، تهران، مؤسسه مطالعات تاریخ معاصر ایران، 1378ش.
239 ـ ــــــــــ، **اندیشه سیاسی وتاریخ نهضت حاج آقا نور الله أصفهانی**، تهران، مؤسسه مطالعات تاریخ معاصر ایران، 1378ش.
240 ـ ــــــــــ، **بنیاد فلسفه سیاسی در ایران**، تهران، مرکز نشر دانشگاهی، تهران، 1376ش.
241 ـ ــــــــــ، **جریان شناسی وفلسفه سیاسی در تاریخ معاصر ایران**، مشهد، دانشگاه علوم اسلامی ورضوی، 1379ش.
242 ـ میثاق امیر فجر، **امیر کبیر**، تهران، تندر، 1364ش.
243 ـ میر عبد اللطیف خان شوشتري، **تحفه العالم وذیل التّحفه**، اهتمام: صمد موحد، تهران، طهوری، بی تا.
244 ـ میرزا بزرگ قائم مقام فراهاني، **جهادیه**، تهران، بینا، 1354ش.
245 ـ ناصر انقطاع، **امیر کبیر فرزند خلف ایران**، تهران، علوم ارتباطات، 1350ش.
246 ـ ناصر نجمي، **ایران در میان طوفان**، تهران، معرفت، 1363ش.

247 ـ ـــــــــــــ، **عباس ميرزا، رشيدترين فرزند ايران**، تهران، كانون معرفت، 1324ش.

248 ـ ناظم الإسلام كرماني، **تاريخ بيداری ايرانيان**، اهتمام: على أكبر سعيدی سيرجاني، جلد اول، تهران، آگاه، 1362ش.

249 ـ **نامه‌های تبريز**، اهتمام: إيرج أفشار، تهران، فرزانروز، 1378ش.

250 ـ نصرت الله فتحي، **زندگينامه شهيد نيكنام ثقة الإسلام تبريزی**، تهران، بنياد نيكوكاری نوريانی، 1352ش.

251 ـ نعمت الله قاضي، **ايل قاجار در پهنه تاريخ ايران**، پيروز، 1327ش.

252 ـ نيكولا سيسيانوف، **قتل وزير مختار يا گوشه‌ای از روابط قاجاريه**، ترجمه: اسكندر ذبيحيان، تهران، توس، 1369ش.

253 ـ نيكي. ر. كدي، **تحريم تنباكو در ايران**، ترجمه: شاهرخ قائم مقامی، تهران، 1356ش.

254 ـ هدايت الله بهبودي، **ادبيات در جنگ‌های ايران وروس**، تهران، حوزه هنری، 1371ش.

255 ـ همايون الهي، **امـرياليسم وانقلاب اسلامی ايران**، تهران، مولی، 1360ش.

256 ـ وزارت أمور خارجه، **نهضت مشروطه ايران برپايه اسناد وزارت امور خارجه**، تهران، وزارت امور خارجه، 1370ش.

257 ـ ويليام جي اولسون، **روابط ايران وانگليس در جنگ جهانی اول**، تهران، شيرازه، 1380ش.

258 ـ ويليم فلور، **جستارهايی از تاريخ اجتماعی ايران در عصر قاجار**، ترجمه: ابو القاسم سری، تهران، توس، 1366ش.

المجلات والدوريات:

1 ـ فصلنامه تاريخ معاصر، مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر ايران، شماره 15 و16، 1379ش.
2 ـ روزنامه **ايران**، سال اول، شماره 130، تيرماه، 1374ش.
3 ـ روزنامه **قانون**، به كوشش هما ناطق، تهران، اميركبير، 1355ش.
4 ـ كيهان هوايي، شماره 777، 28/ 2/ 1367ش.
5 ـ مجله **مهر**، سال اول، شماره اول.
6 ـ مجله **وحيد**، سال پنجم، شماره اول.
7 ـ مجله **يغما**، سال دوم، شماره 10 و11، 1328ش.

الوثائق:

1 ـ مجموعة من الوثائق المحفوظة في: مركز اسناد مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر ايران، وقد دوّنت أرقامها عند الاستناد إليها.
2 ـ مجموعة من الوثائق والمستندات حول الماسونية محفوظة في مركز اسناد مؤسسه مطالعات تاريخ معاصر ايران، وقد دوّنت عناوينها عند الاستناد إليها.

شهدت إيران تحوّلات خطيرة في تاريخها السياسي في القرنين الأخيرين؛ إذ يمكن القول إنّها كانت ساحة مواجهة بين مجموعة من المشاريع السياسيّة الداخلية والخارجية. فعلى صعيد الخارج كانت ساحة تنافس على النفوذ بين القوى الدولية المتصارعة؛ إذ كانت تلك الأطراف تسعى للسيطرة على المجال الجغرافي الإيراني لما له من موقع استراتيجي ولما فيه من خيرات طبيعيّة. وعلى الصعيد الداخلي شهدت إيران حراكًا اجتماعيًا وسياسيًا بين تيّاراتٍ سياسية بعضها ينبع من الداخل بكل تلاوينه وبعضها ينبع من الخارج ويستقي من مصادره فكره وأهدافه وخطّة تحرّكه. وما يسعى إلى تحقيقه هذا الكتاب هو الإطلالة على أهم الوقائع التاريخية ذات الطابع السياسي والاجتماعي التي كان لها دور مؤثّر في تشكيل الهوية الوطنية الإيرانية.

Political changes in Iran

religion and modernity and their role in the formation of national identity

Center of Civilization for the Development of Islamic Thought

THE CIVILIZATIONAL STUDIES' SERIES

ISBN 978-614-427-018-9



بالتعاون مـع:



مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

بيروت - بئر حسن - بولفار الأسد - خلف الفانتزي وُرد - بناية ماميا - ط٥

هاتف: 826233 1 961+ - فاكس: 820378 1 961+ - ص.ب: 25/55

E-mail:info@hadaraweb.com - www.hadaraweb.com